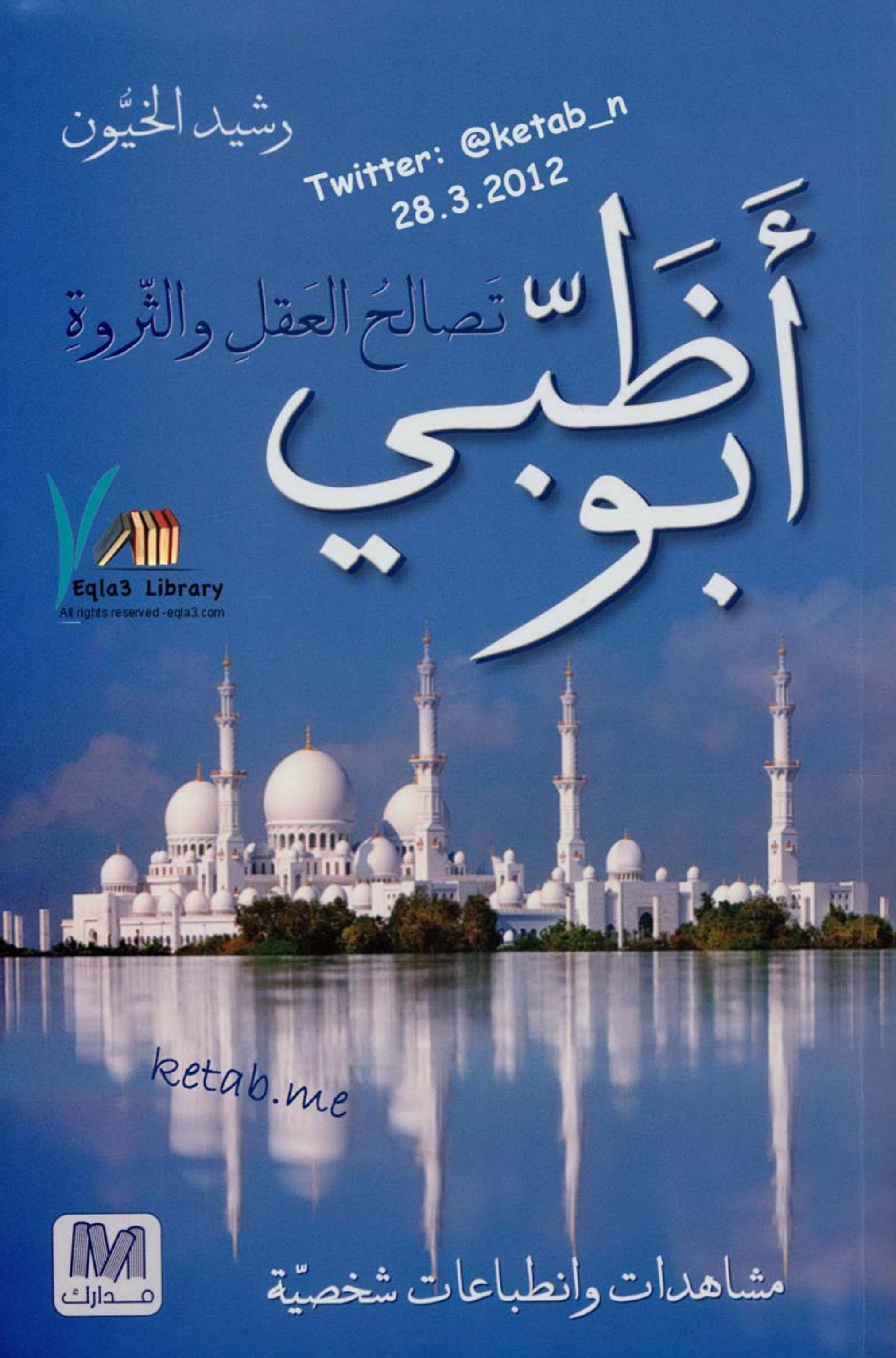

رشيد الخيّون
Twitter: @ketab_n
28.3.2012
أبوظبي
تَصالحُ العَقلِ والثّروةِ
Eqla3 Library
All rights reserved - eqla3.com
ketab.me
مدارك
مشاهدات وانطباعات شخصيّة

رشيد الخيُّون

أَبو ظَبْي...
تَصَالُحُ العَقلِ والثَّروةِ

مشاهداتٌ وانطباعاتٌ شخصيّة



الكتاب: **أَبو ظَبْي... تَصَالُحُ العَقلِ والثَّروةِ**
مشاهداتٌ وانطباعاتٌ شخصيّة

تأليف: **رشيد الخيُّون**

التصنيف: **رحلات**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: يناير (كانون الثاني) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-614-429-004-0



www.mdrek.com - read@mdrek.com

دبي:
مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي - الإمارات العربية المتحدة
P. O. Box: 333577 Dubai - UAE
Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178

بيروت:
فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت - لبنان
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074

إِلى البُلبلِ العِراقي

رأيتُه موكراً على أغصانِ أشجارِ جزيرة صير بني ياس، القصية غرب أبو ظبي، حُراً غرد فاسترعى التفافتي فأنشدته:

بلبلي هل رغبتَ في الرَّبطةِ السوداء

أَم تلكَ شارةُ المحزونِ

إنني قد غدوتُ أنعمُ في الشَّكِ

لأني منغَّصٌ باليقينِ

لم أجد في العراق ليلى ولكنْ

كلَّ آنٍ أمرُّ في مجنونِ

الشَّيخ علي الشَّرقي (ت 1964)

(الدّيوان، ص 404)

المحتوى

استهلال

يغلب على الظَّن أن العراقي أول ما ينزل مطار أبو ظبي أو دبي، سيتذكر البصرة، مناخاً وجغرافيا ورائحة الهند. واستذكر مدنه، وهو ينظر إلى ليل الحاضرتين الزَّاهي بالأنوار، بين البصرة وهي تلتحف الظَّلمة، وما مرَّ عليها مِن حروب وغزوات، حتى شاع عنها «بعد خراب البصرة»، وتلك قصة طويلة ومؤلمة، مع ما بالبصرة مِن خصوبة ونِعمة، وبين ما في هذه الصَّحراء مِن عمارة ونظام وبضاعة واستقرار. بين ما للبصرة من نِعم لا تحصى، وما لأبو ظبي ودبي وبقية الإمارات مِن جفاء الطَّبيعة.

تنتج البصرة لوحدها مليوناً وتسعمائة وخمسين ألف برميل نفط يومياً، هذا حتى 2007، وربما أكثر الآن، وهو أقل من المفروض قياساً بمخزون أرضها، ولو صب هذا السَّيل في وادٍ، على مدى شهر، لأَصبح الوادي زاباً من زابات العراق ذوات الماء. ناهيك مِن ماء البصرة، حيث ينحدر كل ماء الشِّمال والغرب إليها ليكوّن شط العرب، وقديماً عُرف شط التُرك، وأقدم من هذا قيل

الأبلة، تُنبيك الأَسماء المذكورة أن الماء كثير وقديم فيها، مثلما هي بساتين نخيلها. قال بصيرها بشار بن بُرد (قُتل 167هـ):

الرَّافدان توافى ماء بحرهما

إلى الأَبلة شرباً غير محضور

قبل ثمانين عاماً، بالتَّمام والكمال، غنى محمد عبدالوهاب (ت 1991) أمام الملك فيصل الأول (ت 1933) ببغداد قصيدة «يا شراعاً مِن وراء دجلة» لأحمد شوقي (ت 1932)، وكان ماء العِراق حاضراً بشطه شط العرب ورافديه، دجلة والفرات، عنوان القصيدة وموضوعها، ومنها:

يا شراعاً وراء دجلةَ يجري

في دموعي تجنبتك العوادي

سِرْ على الماءِ كالمسيحِ رويداً

واجرِ في اليَّم كالشُّعاع الهادي

أَمةٌ تنشئ الحياة، وتبني

كبناء الأَبوة الأمجادِ

تحتَ تاج مِن القرابةِ والمُـ

لكِ على فرقٍ أريحي جوادِ

مَلك الشَّط، والفراتين، والبطـ

حاءَ، أَعظم بفيصلَ والبلادِ

كانت المناسبة الأُولى التي أزور فيها أبو ظبي هي مؤتمر «التَّعليم بلا حدود» (أواخر شباط/فبراير 2007)، نظمته وزارة التَّعليم العالي والبحث العلمي، والدَّعوة كانت مِن وزيرها الشّيخ نهيان بن مبارك آل نهيان، ولكثرة ارتياد مجلسه كان له فصلٌ في الكتاب. كنت أنظر في الوجوه والثِّياب، وهي تقف تحت أعلام أو رايات دول العالم كافة. كانت مظاهرة أممية، فكلُّ جامعة أو كلية أحضرت نتاجها، وآفاق تطورها العلمي والتَّقني، والغالب على الحضور هم مِن فئة الشَّباب، فهم طلبة جامعات.

حضر المناسبة حائزون على جائزة النُّوبل، وأبرزهم كان ابن البلاد الفقيرة بنغلاديش، التي ليس لها لا ماء البصرة ولا نفطها. ارتقى المنبر بثيابه الوطنية، وكم كان يُذكر بالمهاتما غاندي (اغتيل 1948)، وجواهر آل نهرو (ت 1964)، تحدث عن التَّقنيات الحديثة في التَّعليم، وما أهميتها في إعمار وإصلاح البلدان الفقيرة مثل بلاده، وما فعله لاقتصاد الفقراء. لا مجال للتبسط في تفاصيل تلك التَّظاهرة الأُممية، التي ألفت بين البشر على مختلف دياناتهم ومذاهبهم وقومياتهم وألسنتهم.

ثم أخذت زياراتي تتكرر بدعوة مِن مركز «المسبار للدِّراسات والبحوث» بدبي لحضور اجتماعاته؛ أو لإنجاز ما أُوكِلَ إليّ مِن مهام التَّحرير مع بقية الزُّملاء، وبعد أَن تحولت إلى الكتابة في جريدة «الاتحاد» الظَّبيانية أصبحت أحضر منتداها السَّنوي، الخاص بكُتاب وجهات نظر، الذي يأخذ عادة قضية مِن القضايا

السَّاخنة بالمنطقة، ففي العام 2009 كان الاحتفال بمرور أربعين عاماً على تأسيس «الاتحاد» الجريدة (20 تشرين الأول/أكتوبر 1969)، وجاء الاسم إصراراً على المضي في قيام دولة الإمارات. في العام الماضي كان موضوع النَّدوة «العرب وجيرانهم»، أما هذا العام (2011) فموضوعها «الربيع العربي».

جرت العادة أن يُكلف زملاء بتقديم الأوراق في مواضيع النَّدوة المقترحة، ويُكلف معقّبون عليها، الورقة والمعقب عليها، ثم يُفتح النِّقاش لبقية المشاركين، وهذا العام قُلص المؤتمر إلى يوم واحد. كانت ندوة هذا العام تاريخية بامتياز، فقد شهدت نهاية معمر القذافي قتيلاً (20 تشرين الأول/أكتوبر 2011)، وقد حصل هذا في استراحة الغداء، بينما جرى الحديث عن ليبيا والتَّطورات التي شهدتها، والحرب الجارية فيها.

كان حضور الدُّكتور طيب تيزيني، في ندوة هذا العام، مفاجأة بالنِّسبة إلي، فهو لم يحضر ندوات المنتديات مِن قبل، وأقول مفاجأة لأن آخر لقاء معه كان بعدن (1991)، وكان يُحاضر في كلية التَّربية جامعة عدن، والمد الدِّيني على أشده، مع وجود حكومة عدن السَّابقة، ذات الأفق التَّقدمي، إلى أن احتُلت عدن مِن قبل حكومة صنعاء في عام 1994، فكانت حيرتي في التَّعيين بالجامعة، فكتب لي تيزيني رسالة مانعة جامعة إلى رئيس الجامعة الدكتور العمودي، وقد نسيت اسمه الأول، ففي عدن كان يُركز على

اللقب، ولعل ذلك ما تبقى مِن بريطانيا، حيث التعامل بالسِّر نيم، أكثر منه بالاسم الأول.

ذهبت إلى رئاسة الجامعة وسلمت الرِّسالة، وبجهود أصدقاء عدنيين، أتاني قبول للتدريس في كلية التربية بحضرموت، وحدث ما حدث وتركت عدن نهائياً، بعد أن ودعت تيزيني في مطارها على أمل اللقاء معه العام القادم وبعدن نفسها، وهاهي عشرون عاماً مرت مر السَّحاب، لأجد طيب تيزيني صاحب مشروع الثَّورة والتَّجديد في التُّراث الإسلامي وقد شاخ، لكن قلمه ما زال سيّالاً، وقد خجلت، لمكانته في نفسي، أن أكون ناقضاً أو مقاطعاً لتعقيبه في النَّدوة، بعد أن وجدت فيه حساً قومياً، وموقفاً شعرت فيه سلبيةً تجاه المستشرقين، لم آلفه فيه مِن قبل.

بعد انتهاء جلسات المؤتمر تُعقد جلسات هامشية تلقائياً مع رئيس التَّحرير راشد العريمي، ومسؤول صفحات «وجهات نظر» عبدالله العوضي، ومع زملاء آخرين، وتستمر حتى ساعة متأخرة مِن اللَّيل، ومِن أحاديثهم تراكمت لديَّ معلومات عن أبو ظبي وماضيها وحاضرها، وكثرة النَّخيل في أرضها، وقصص عن إعمارها وظهور الحياة المدنية فيها، وهناك الكثير مِما سمعته في تلك الجلسات متضمناً في هذا الكتاب.

وفّر لي منتدى الاتحاد السَّنوي علاقات صداقة مع أساتذة وكُتاب وباحثين مِن مختلف البلدان: السُّوداني عبدالله عبيد حسن،

القطري أحمد عبدالملك، والبحراني عبدالله مدني، والكويتي خليل علي حيدر، والموريتاني عبدالله ولد أباه، والكويتي شملان العيسى، واللبناني رضوان السَّيد، والسُّعودي صالح المانع، والهندي ذكر الرَّحمن، والمصري عمار علي حسن، والكويتي صالح الطَّراح. إضافة إلى مَن كنت أعرفهم مِن قبل، وتواصلت اللقاءت معهم: سعد بن طفلة، وخالد الحروب، وعبدالوهاب بدر خان، عبدالله بن بجاد، تركي الدِّخيل.

آخرون للأسف على الرَّغم مِن اللقاء بهم سنوياً، وعشرات المناسبات، لكن أجد مسافة بيني وبينهم، وكل عام وكل لقاء يبدأ وينتهي معهم بتحية عابرة، وربما مِن دونها، ويكررون تبادل كارتات التعارف، لكني لا أشعر بصلات معهم، وربما لا أتذكر أسماءهم ولا يتذكرون اسمي، وجدتهم بلا لون ولا طعم، باهتين حتى في المجاملات، وربما هذه هي بضاعتهم في محاولة إثبات الذَّات، ومِن طبعي لا أميل إلى مثل تلك العلاقات المفتعلة.

تقدمت أبو ظبي، والإمارات بعامة، في العمائر والطُّرق، وأنت تقطع الطَّريق بين أبو ظبي ودُبّي أو العين، كأنك تقطع ما بين باريس ولندن. ومعلوم أن درجة التَّحضر والثَّقافة تُقاس إلى حد بعيد بضوابط حركة المرور، وهي دقيقة على مدار السَّاعة في هذه البلاد ومُراقبة بالرَّادارات. لكن، مع ذلك لم تدعك الصَّحراء تنساها، فالأَسماء التي نُقشت على الطَّريق، والأشجار التي صفت

وهي تعاند العطش، وغبرة الرِّمال، كلها تقول لك: إن الأساس كان صحراءَ وعطشاً. فمن تلك الأسماء الموغلة في بيئتها الأولى: أم الرُّمول، بو ذيب، الرِّماح، برُّ دبي، كلباء وغيرها.

سألتُ عن ماء الشُّرب فقيل لي: إنه مِن البحر! ولأنني ابن الماء العذب، الذي بدأ يجف في التِّسعينيات فمات حيوانه ونباته النَّادر في الدُّنيا، أخذني العجب أن الإنسان يحيى ويُعمر كل هذا العمران وهو يشرب مِن بحرٍ! أليس عندما يستخف إنسان بآخر يقول له: «إشرب مِن البحر» فهو غزير ويُزيد العطش! أما النَّبات الذي مد على الطُّرقات فسقايته مِن الصَّرف الصِّحي بعد إعادة انتاجه، وقيل لي: إن محطات تحلية أو تعذيب ماء البحر بأبو ظبي أربع. رأيت واحدة منها في أقصى المنطقة الغربية حيث جبل الظَّنة، ومِن هناك تزود جزيرة صِير بني ياس بالماء العذب، عبر أنابيت ضخمة مُدت تحت ماء البحر إليها. تُسمّى تلك المعامل أو المحطات بمعامل تحلية الماء لا تعذيبه، فالأمر يتعلق بتخليصه مِن الملوحة فيكون حلو المذاق.

صحيح أن نِعم الطَّبيعة، مِن خصوبة المكان والماء، مؤثرات لا تعوض في إيجاد العمران، وتقدم المعاش، لكن يبقى العقل وما يفرضه في السِّياسة والإدارة هو الصَّانع الأول. وأحسب أن العراق لو استمر بمشاريع مجلس الإعمار (1951-1958) إبان العهد الملكي (1921-1958) لاستغنى العراقي عن دهشته وهو ينزل مطار أبو

ظبي، تلك المدينة الندية بألفتها، وذات العمران المتناسق، التي لا تفرغ مِن نشاط اقتصادي أو فني أو ثقافي عالمي.

يتوافد البشر عليها ويتوحدون فيها بلا حواجز، حتى أصبحت الجنسية الإماراتية مغنماً. حينها وجدت نفسي مستذكراً هتافات أشبعتنا ضيماً وحروباً، وجففت الماء، وهو يجري من عهد سومر في قنوات الأَهوار، وأوهمتنا بعظمة الشّعارات مع أنها تركت الوطن حافياً عارياً تصفر فيه الرِّيح، ويسفي على غرائس وفسائل أشجاره ونخيله التُّراب، تركت الحروب والحصار العقول أتربةً، وصارت البِلاد محطة لجيوش الجوار السِّرية والعلنية، وسياسيوه عرائسَ تُحركها الولاءات في مسرح هزلي، فهي كما قال الشَّاعر:

إذا النَّعجة العجفاء باتت بقفرةٍ
فأيان ما تَعـدل بها الرِّيحُ تنزلُ

طوال مشاهداتي في جغرافيا أبو ظبي لم أكف عن تذكر البصرة، وكيف تكون لو تفرغت العقول لعمرانها، وتنزهت النُّفوس عن الاستئثار بكلِّ شيء. أتدرون لو ترك لنا دعاة القومية والوطنية وقضية العرب المصيرية، حصة البرتغالي كولبنكيان (الخمسة بالمائة) لتعمّر بها العِراق، وما انحطت العقول والنُّفوس كل هذا الانحطاط، الذي تغذيه المحاصصة الطَّائفية بنقمة الجهل والحرابة بين أبناء الوطن! لو أخذ (البطل القومي) له ولعائلته تسعين بالمائة مِن الثَّلاثة آلاف برميل نفط يومياً، وترك العشرة الباقية لقيل له هنيئاً.

أقول: كم مِن تقدم تشهده رمال أبو ظبي ودبي، وبقية الإمارات المتحدة، وقبلها كانت متصالحة، تتعطش له خصوبة البصرة! كنا نسمع بأن فسائل نخلنا بيعت إلى الإمارات! نعم، بعنا الفسائل واستوردنا الحنطة المسمومة، والأسلحة، واستقدمنا مصارعين لعبوا مع عدنان القيسي لإلهاء الناس! ونقف طوابير لشراء البيض، ونحن أهل الدَّواجن، ونقف طوابير على شراء النِّفط للتدفئة ونحن أهل النِّفط، ونعطش ونحن أهل الماء! أتتذكرون ماذا حمل لنا الأمريكان والبريطانيون في أول اندفاعهم إلى العِراق عبر البصرة؟! ليس سوى قناني مياه حارة بحرارة أجواء البصرة، فالثَّلج صار خاصاً بالمتبطرين!

سألت بأبو ظبي عن فسائل نخيلنا، التي سمعت كثيراً أنهم اشتروها الفسيلة مقابل دولار أو أقل، وهو كلام المقاهي ليس إلا، قالوا: لدينا نخيل مِن الأَصل، وأفلاج العين شاهدة، وعندما بدأنا التَّوسع بزراعة هذه الشَّجرة أتينا بالنَّخيل من مختلف مزارعه ومشاتله العالمية، ومنها العِراق. جعلت منه زينة وثمراً في الطُّرقات، وعدد النَّخيل فاق بالإمارات الأربعين مليون نخلة، رغماً على قسوة المناخ وملوحة الأَرض. وقعت عيني في القرية التُّراثية على تسميات تَمر بصرية مِن بين حوالى خمسة وعشرين صنفاً، مثل: البرحي، الزَّاهدي، البريم، الخصاب، الخضراوي، وغيرها.

لا أحسد أهل أبو ظبي وأهل الإمارات كافة، لكني أغبطهم على ما هم فيه، أما نحن فسلطتنا هدمت وقطعت رؤوس نخيلنا،

وما زالت كذلك، وسلطتهم بنت وزرعت. وهاهم العراقيون مِن العهدين، السَّابق واللاحق، مقيمون في ربوع أبو ظبي وشقيقاتها، وبينهم خيرة الكوادر. فعندنا تملكت السُّلطة القديمة العمائر العالية بما استحوذت مِن أموال علانيةً، والسُّلطة الجديدة بما أفسدت. وقيل لي: اشتروا عقارات مرفهة بأبو ظبي ودبي. ليشتري ويمتلك، ما يريد، لكن لو كانت يده معمرة وضميره يتسع لغيره.

أصاب الشَّاعر الشَّعبي الملا عبود الكرخي (ت 1947) بتوقعاته في قصيدة «المحالات» أو«الاستحالات» (حوالى 1933)، إلا أنه لو كان حياً لراجع ما قاله في هذه المنطقة: «إيصير بدُبّي مدرسة حربية»، والاستحالة تعني شبيهات دبي أيضاً، أي استحالة أن تكون تلك الصَّحاري مدناً! شأنها شأن ما قال الكرخي في القصيدة نفسه: «إيصير تصعد للسِّما بسلم درج»! صحيح إنه قالها يوم لم تكن هذه الأماكن سوى رمال وأعشاش (في ثلاثينيات القرن الماضي)، ولم تتعلم بعد إحالةَ ماء البحر إلى عذب فرات، بينما كانت البصرة وبغداد قد خلعتا أكفان التَّخلف!

عموماً، لا تُغفل الفروق ما بين العِراق والإمارات، في سعة وكثافة البشر، وفي السِّياسة والاجتماع، إلا أنها مجرد أُمنية لتصالح العقل والثَّروة، فما عمره العقل ببغداد هدمه جنون عسكرة الاقتصاد، وشدة الظُّلم، وليس المحاصصة السِّياسية والطائفية الحالية أَقل جنوناً.

تلك مشاهدات وانطباعات، فيها ما هو اعتراف بحماسة للعمران، اقتصرتها على إمارة أَبو ظبي، وكانت النِّية الكتابة عن مشاهدات بدولة الإمارات كافة، لكن وجدت نفسي عاجزاً عن الإلمام، فمِن الإمارات لم أرها، ومنها ما مررت بها مروراً عابراً، فالتفاصيل تزدحم «وما يدري خراشة ما يصيد»، لذا اكتفيت بأبو ظبي. ما أكتبه ليس بحثاً إنما هو سكب ما رأته العين وسمعته الأذن على الورق، لا أُطالب فيه بآليات البحث العلمي.

لقد شوقني الوجود العراقي القديم بأبو ظبي إلى الكتابة عنه، فقد تكاثروا وتقادمت عليهم الأيام هنا حتى زرعوا النَّخل، وهو كناية عن التَّوطين والتأبيد في المكان، واندثر آخرون كانوا عملوا وتسامروا في المكان، وهو لا يزال يومها رملةً يابسةً، الماء يأتيه مِن أفلاج العين، ولا ظل سوى ظل الحصن.

تحدثتُ عن أبو ظبي، في تاريخها القديم المستمر، مع تبدل المكان كليةً، وهو ليس أكثر مِن 250 عاماً، فالبداية كانت باكتشاف بئر للماء العذب (1761)، وجاء الاسم كنيةً «أبو ظبي». لكن الكتابة عن أبو ظبي تبقى ناقصة، بل أجدها غير منصِفة، إذا لم يكن لمؤسسها، كمدينة وعاصمة تضاهي العواصم الأُخر، حضور فيها، فالرَّجل أسس وتبع خلفاؤه الخطوات.

ظاهرة بأبو ظبي سرتني أيما سرور، وربما ما زال هناك مَن هو كارهٌ لها لتعصبه وتشدده الدِّيني، ألا وهي المجاورة بين

الكنائس والمساجد، ولا أظن أن أرضاً يسودها العُمران تبقى جافة مِن روح التَّآخي، وما أكثر سامعي الأَذان وما أكثر سامعي النَّاقوس أيضاً، فهم معمرون لهذه الأَرض، فاقتضت الحكمة تسهيل الصَّلاة لله على مختلف الطَّرائق، فالله لم يخلق البشر إلا مختلفين في الوصول إليه، أليس هو القائل في كتابه العزيز: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: 48). وأليس هو القائل أيضاً: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: 118)؟!

مثلما ننظر الآن إلى ملوية سامراء العِراق (القرن الثَّالث الهجري) على أنها الأثر العريق؛ والرِّيازة المعمارية العجيبة، سينظر مَن يعيش في هذه الأرض بعد خمسمائة عام إلى مسجد زايد الكبير على أنه الأثر النَّفيس، وسيُقرأ عنه ويُبحث في عمارته، لكلِّ هذا صار للكنائس والمساجد فصل، وللمسجد الكبير فصل آخر، مع أني لا أحبذ تقسيم هذه المشاهدات إلى فصول، كي أبعد عنها لغة البحث والأكاديمية، إنما وجبتها لتسهيل القراءة.

صعب عليَّ ترك معالم شاهدتها بمدينة العَين، أُم القلاع والحصون، فأفلاجها، وهي توافيها بالماء الزَّلال مِن مئات السِّنين، تُعاند عطش الرِّمال المحيطة، واحة وسط قفراء صادية. كما صعب عليَّ ترك ما كان مفاجأة بالنسبة إليّ، وما شاهدته بمدينة مصدر، حيث الأمل ببيئة نظيفة. وكان للصُّقور، وهي

وسيلة الصَّيد وغايته في أغلب الأحيان، ومستشفاها فصلٌ، أَحسب أنه جاء طريفاً للمفارقات التي فيه.

كنت قد تشرفت بإحياء ندوة في مجلس ولي العهد، وجعلت لها عنوان «التُّراث المحجوب»، فكان عليَّ وأنا أكتب عن أبو ظبي أن يكون لهذا المجلس وتلك النَّدوة مكان في المشاهدات. أما صير بني ياس، فلا أظن أن كاتباً سيترك البيئة وتلك الجهود في إحياء المنقرضات، مِن الكائنات الحية، بلا تسجيل خاطرة، وللبُلبل العِراقي فيها وجدتُ مقاماً. لقد بدأت صلتي بأبو ظبي بمجلس الشَّيخ نهيان، وما لهذا الرَّجل مِن حضور في نفوس الكثيرين، فجعلت من مجلسه مدخلاً إلى عادات وتقاليد، التي أحسب أنها انقرضت في العديد مِن المدن، التي كانت تعيش زمن الخلافة العباسية.

أخيراً، وجبت الإشارة إلى أن أسلوب كتابة المشاهدات والانطباعات جاء متأثراً بتُراث عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255)، مِن دون ادعاء التَّماثل مع تلك القِمة، لأن الجاحظ نجم ولنا الاهتداء بالنُّجوم لا الارتقاء إليها. جاءت المشاهدات مكثفة بالاستطرادات والاستراحات، فهناك مَن كتبَ التَّاريخ بهذه الطَّريقة، مثل الجاحظ في «الحيوان»، وكمال الدِّين محمد بن موسى الدُّميري (ت 808 هـ) في «حياة الحيوان الكبرى»، وكُتب أُخر لا عدَّ لها.

الفصل الأول

الماضي والحاضر
التَّلازم المقبول

«إنَّ المُدُن تُبنى على الماء
والمرعَى، والمُحتَطَبِ والحَصانة»

(التَّوحيدي، الإمتاع والمؤانسة)

ليس بالضَّرورة أن يكون للمدن تاريخٌ يعود إلى ما قبل الميلاد، أو إلى ما قبل الإسلام، فليبدأ تاريخها مِن نشوئها وتخطيطها، وأعني مهما كانت حديثة الولادة. لكن في عالمنا الشَّرقي، والعربي الإسلامي خصوصاً، يبدو التَّاريخ مهماً في ثقافة المدن. فعندما يجرى الحديث عن إقامة أحدهم وعمله بأبو ظبي، أو الاستيطان الموقت، تظهر أمامه المقارنة بين بيروت وبغداد مثلاً، وإمارة أبو ظبي أو دبي، وأي مِن الإمارات المتحدة السَّبع، حيث لا وجود لنكهة التَّاريخ فيها، كمعالم ما زالت قائمة، لذا قد يشعر المستلهم التَّاريخ مِن تلك المدن بالغربة، أو يجد نفسه مقطوعاً داخل مدن

كسموبوليتية يرى الشُّعوب فيها مِن مختلف أرجاء العالم على مختلف الألسنة والأديان!

لكن ذلك الشُّعور يخف ويتلاشى لدى الكثير بعد الاستقرار، فكلٌّ قادم لا بد من أن يأخذ بالموازنة بين ثقل غربته عن التَّاريخ وما يجنيه مِن فائدة في العمل والعيش بانفتاح ديني واجتماعي، بحسب تخطيط هذه الإمارات الحضاري التَّسامحي، مِن ناحية الأديان والمذاهب والأُصول القومية والحرية الشَّخصية، حتى صارت الجنسية الإماراتية أو الجواز الإماراتي أُمنية وجائزة، وعقد العمل فيها ضالة الشَّباب من مختلف الجنسيات، والغرب قبل العرب.

فلو فُتح المجال لاكتساب المواطنة، لا أظن أن وافداً لا يرغب فيها، بغض النَّظر عن صواب نظام دولة الإمارات في تقييد اكتساب الجنسية أو خطأه. قيل لي إلا أحد العراقيين القدماء بأبو ظبي حين عُزم على منحه الجنسية، ومِن قبل الشِّيخ زايد شخصياً رد شاكراً ومعتذراً، لا تعالياً إنما كان طيف العِراق يمتلكه، لأن الجنسية، بحسب اعتقاده، ستخلعه مِن تلك الجذور، إلى درجة أنه اعتبر الوفاء للإمارات مرهوناً بالوفاء للعِراق، والرَّجل عاش ومات وفياً للبلدين، وبحسب هواجسه مَن لم يحتفظ بجنسية بلاده لا يكون وفياً لجنسية مكتسبة، لكن عاطفة وتوهم الوالد أضرت بالأولاد.

تكررت زياراتي لأبو ظبي، على وجه الخصوص، وما وقفت على شاهد تاريخي، يضاهي أو يشابه بقايا بابل أو خرائبها، وسط العَراق. تلك التي شُيدت في الزَّمن الغابر، الذي يُشار إليه بالآلاف قبل الميلاد، أو قصر الأخيضر، الذي يعود بناؤه إلى القرن الثَّامن الميلادي، وبالفعل شعرت بشعور الاغتراب وأنا الزَّائر لا المقيم، فأنا في مكان جديد تماماً، فما مِن شاهد تاريخي أُكحّل به ناظري وأنا المأخوذ في التاريخ، فلم تسترع التفاتي سوى العمائر الزجاجية والأبراج الشاهقة، وأسلوب مروري وحياتي يُحاكي المدن الأوروبية، وبشر يبلبلون بشتى اللغات واللهجات في الطُّرقات.

تلك المحاكاة التي ضاق بها الرَّحالة ألفريد ثيسجر (ت 2003)، وهو يزور أبو ظبي بعد ردح مِن الزَّمن (1977)، فوصله الأول بها كان خلال الأربعينيات مِن القرن الماضي، يوم لم يجد جداراً يستظل به، وهو ينتظر لقاء حاكمها الشَّيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان (ت 1989)، سوى ظل الحصن قصر الإمارة الأول. قال وهو يصلها مِن ليوا؛ حيث المنطقة الغربية، مع صاحبيه: سالم بن كبينة وسالم بن غبيشة: «كانت أبواب القلعة موصدة، ولم يكن هناك أحد عندها، أنزلنا حمولة النِّياق واستقلينا للنَّوم في ظل الجدار» (كتابه الرِّمال العربية).

يلوح للدَّاخل إلى أبو ظبي مِن جهة الجنوب برجٌ وسط بحيرة، مغلف ببناء يحاول المحافظة على قِدمه، إنه برج المقطع، وإلى

جانبه جسر يُعرف جسر المقطع، نسبة إلى اسم البرج، وكان هذا المَعلم هو نهاية وبداية أبو ظبي، مِن جهة الجنوب. قرأت عنه أنه شُيِد في عام 1793، وهو توأم قصر أو قلعة الحصن دار الحُكم الأولى. إن هذا البرج على ما يبدو هو الأقدم في تاريخ أبو ظبي، وتغنّى به الشُّعراء المحليون، وكان شاهداً على رحلات الغوص في البحر بحثاً عن اللؤلؤ. تعبر السَّيارات الآن مِن أبو ظبي وإليها عبر جسر المصفح وجسر المقطع نفسه، لكن بحلّته الجديدة. سوى هذا البرج وقلعة الحصن ربما لا ترى بناءً آخرَ يشير إلى تاريخ عُمراني ضارب في الأَرض قبل 250 عاماً.

سألت ظَّبيانيين ووافدين مِن العِراقيين، ممَن وصلوها منتصف السِّتينيات وما قبل ذلك: كيف كانت أبو ظبي حين رست مراكبكم على شواطئها؟! وجدتهم لم يزيدوا على ما قاله الرَّحالة ثيسجر، الذي أخذ اسم مبارك بن لندن خلال رحلته في أعماق الصَّحراء اسماً: كلُّ ما فيها، هو حصن وعرائش متفرقة حوله. لكن كيف تخلو مدينة مِن أثر التَّاريخ القديم، ما قبل الميلاد، وهي على مرمى عصا من آثار دلمون السُّومرية بالبحرين؟!

لا بد من أن قَدم الإنسان وطأت هذه الأرض قبل التَّاريخ، وعلى ما يبدو كانت هذه رغبة جامحة لتأصيل وجود المدينة، فاستُقدمت بعثات أثرية كشفت عن أدوات مصنوعة مِن فخار وووجدوا آثاراً لصهر النُّحاس، وما زال اسم «أم النَّار» فَي نقاش وجدل، تلك التي استبدل اسمها بـ«ساس النَّخل».

ترى الإشارة واضحة إليها وأنت على الطَّريق إلى إمارة دبي صوب الجنوب، أو إلى منطقة العين صوب الشَّرق، على أن «أم النَّار» كانت قديماً مصاهرَ للنُّحاس، الذي يتاجر به إلى أور السُّومرية، هذا ما سمعته، على ما أتذكر، مِن خبير الآثار العِراقي، العامل في آثارها منذ العام 1971 الدُّكتور وليد التكريتي.

أما الاسم أبو ظبي فالقصة المتواردة تقول: إنها كانت في يوم مِن الأيام مرتعاً للظِّباء، وسقط ظبيٌّ في بئر، فسميت تلك البئر «أبو ظبي»، فأخذت المنطقة الاسم منه. ربما يؤكد صحة هذه الحكاية، أي وجود الظِّباء في هذا المكان، هو ما رأيته مِن نقش يُشير إلى ظبيين على جدار أحد القبور الكبيرةِ بمنطقة العين، وهي على مرمى عصا مِن أبو ظبي، القبر الذي أُعيد تشكيله في مكانه، والواقع في حديقة هيلي بالعين، على الحدود العُمانية شرقاً مباشرةً.

ظننت، في أول زيارة لأبو ظبي، أن اسم أم النَّار جاء مِن ديانة أهل هذه الدِّيار القديمة قبل الإسلام؛ وهي المجوسية أو الزَّرادشتية، قياساً على ديانة أهل البحرين القُدماء، أي قُبيل الإسلام، بحسب ما يحكي عنها المؤرخون والبلدانيون المسلمون، والبحرين مثلما قلنا الجار الجنب لأبو ظبي، ليس بينهما سوى الماء، وكادت البحرين نفسها تكون إحدى الإمارات، التي كانت المتصالحة أولاً ثم المتحدة، والعاصمة بطبيعة الحال أبو ظبي فهي الأكبر مساحةً، والأكثر ثروةً، على ما أظن. فلو نجحت المساعي

لكانت البحرين الإمارة الثَّامنة وقطر التَّاسعة في الاتحاد، عندما أُعلن عن اتحاد الإمارات السَّبع (كانون الأول/ديسمبر 1971). فما لاحظته عند زيارتي للبحرين وقطر أن في علمي الإمارتين، أو الدَّولتين، كلاهما، مع اختلاف اللون بين العنابي والأحمر، نقش يتألف مِن تسعة رؤوس، وقيل لي إنه إشارة إلى الإمارات التَّسع المتصالحة.

مِن المعلوم، أن المجوسية توقر عنصر النَّار، حتى كتب الخصوم أن المجوسيين يعبدونها، وهم ليسوا كذلك، وما توقيرهم لها سوى عقيدة تقول: إنها عنصر شريف تُتَّخَذ وسيلةً لعبادة الله الواحد الأحد، ولم يعدونها إلهاً بحد ذاتها، مثلهم مثل الصَّابئة المندائيين مع الماء والكوكب القطبي الشِّمالي. وإن للإمام أبي حنيفة النُّعمان (ت 150 هـ) رأياً يبرأ الصَّابئة ويُقاس عليه تبرئة المجوس أيضاً مِن عبادة غير الله، ينقله مفتي بغداد وصاحب كتاب «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني» أبو الثَّناء الآلوسي (ت 1854): «إنهم ليسوا بعبدة أوثان، وإنما يعظمون النُّجوم كما نعظم الكعبة» (روح المعاني). لكن بعد العِلم بوجود تلك المصاهر، والنُّحاس يحتاج إلى نيران عظمية لصهره، ووجود آثار مسيحية بصير بني ياس تراجعتُ عن هذا القياس.

لاحظتُ اهتماماً أكثر مما يلزم، بأبو ظبي وسواها مِن الإمارات المتحدة، بقضية التَّأصيل التَّاريخي، ومثلما أشرت في البداية، أنه ليس مِن الضَّرورة ألا تكون المدن مدناً إلا بشواهدها

أو بآثارها التَّاريخية! ولو كان ذلك كذلك فكيف شُيدت المدن، التي غدت تاريخية الآن؟! أقول: ألم تكن جديدةً بداية أمرها؟! لكنه شعور يكاد يحبس المنطقة على التَّاريخ. مثلاً، وأنا أنظر إلى مسجد زايد الكبير تخيلته قديماً، بينما هو شُيد على أرض كانت خالية ليس فيها سوى الرِّمال، وما زال غير مكتمل البناء لشساعة مساحته ودقة تفاصيله، لكن مِن المؤكد أنه بعد خمسمائة عام سيُحكى عنه مثلما يُحكى اليوم عن مسجد غرناطة أو كنيسة آيا صوفيا أو ملوية سامراء مثلاً، وهاهو الآن يجلب السَّائحين، مِن كل أنحاء العالم كمعلم عمراني مميز إلى جانب كونه مسجداً جامعاً. لقد جعل هذا الهاجس البعض يحاول التَّلفيق لبيعه على أهل البلاد.

قيل لي: إن أحد الوافدين العرب أخذ يبحث عن تاريخ منطقة «ليوا»، في المنطقة الغربية مِن أبو ظبي، ليقول: إنها التي أتت في شعر امرؤ القيس بن حجر الكندي (565 ميلادية)، مع أن المعروف أن الملك الضَّليل كان حضرمياً مِن ملوك كندة، واللِّوى في شعره ليس مكاناً بحد ذاته، بحسب تفسير الحسين بن أحمد الزَّوزني (ت 486 هـ) لمعلقته، إنما هو «رمل يعود ويلتوي» (شرح المعلقات السَّبع)! وكم هي الصَّحراء شاسعة وممتدة في الأُفق، وكم تلتوي فيها كثبان الرِّمال! وكان البيت مطلع أو مستهل معلقة الشَّاعر الشَّهيرة، التي شك في وجودها ووجود أخواتها مِن المعلقات طه حسين (ت 1973)، في كتابه الشَّهير «الشِّعر الجاهلي» (1925) وبعد الضَّجة صدر مخففاً تحت عنوان«الأدب الجاهلي»:

قِفا نبكِ مِن ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

بسَقطِ اللِّوى بينَ الدُّخول فحومل

لم ينجح صاحبنا في اكتشافه، مثلما لم ينجح المنقب الذي صرخ بالعثور على منزل إبراهيم الخليل بأور، حيث محافظة ذي قار مدينة النَّاصرية جنوب العِراق، وعلى أكثر الظَّن أن أور الموجودة في كتاب «التَّوراة»، وحُكيت قصة هجرة إبراهيم الخليل منها، وتلقفها كُتاب سير الأنبياء المسلمون ما هي إلا النَّار، ويبدو شأن لوى امرؤ القيس هو شأن نار إبراهيم، التي ما زال أمرها غامضاً، وليس لها أثر سوى أنها وردت في كتاب التَّوارة، ثم كتاب القرآن.

هذا ما توصل إليه اللغوي العراقي الأب أنستاس الكرملي (ت 1947)، قال ناقلاً عن نسخة «التَّوراة» اللاتينية: «أنت الرَّب الإله الذي أخرجته (أي أبرام) مِن نار الكلدانيين. أما ترجمة الآباء اليسوعيين عن أصلها العبراني فقالت: مِن أور الكلدانيين. وسبب هذا الفرق في الاستخراج أن اسم النَّار، واسم مدينة كلدانية، أي أُور، هما واحد بالعبرية» (مجلة المشرق، أيلول/سبتمبر 1900). هذا ويأتي ياقوت الحموي (ت 626 هـ) في «معجم البلدان» بأكثر مِن لِوى ورد في قصائد الشُّعراء الأقدمين، وليس مِن بينها لِوى امرؤ القيس، ولا ليوا أبو ظبي. هناك لوحة تشير إلى ليوا تراها وأنت تسلك الطريق المتجه غرباً إلى منطقة الرُّويس ومسلع، حيث الحدود الإماراتية السعودية غرباً.

إمارة أبوظبي واحدة مِن إمارات السَّاحل المتصالح، وبطبيعة الحال ما حلَّ مصطلح «التصالح» إلا كانت الحروب متواترة، وهو ساحل عُمان أيضاً، والاسم هو هكذا، حتى أهل هذه الإمارات، قبل أن تُعلن دولتهم، ويُشار إليهم بالإماراتيين، كانوا عندما يُسألون ببلدان أُخر عن بلادهم يقولون: ساحل عُمان، فيُقال لهم: أنتم إباضية، مع أنهم سُنّيون بين مالكية وشافعية وحنابلة، ومعلوم ما بين تلك المذاهب والإباضية مِن جدل طويل وعداء مزمن.

بدأت مباحثات المصالحة بين إمارات ساحل عُمان بإشراف بريطاني العام 1842، ثم تلتها معاهدة جمعت المشيخات كافة العام 1843. وبحسب تاريخ المكان أُطلق اسم السَّاحل المتصالح، أو الإمارات المتصالحة، على إمارات ساحل الخليج العربي التِّسع (ضمنها البحرين وقطر). كان يميز أبو ظبي حتى قيام الاتحاد العام 1971 رسمياً، علمها الأحمر مع مستطيل أبيض صغير. تأسست أبو ظبي كمشيخة، أو إمارة، العام 1761، وسبب التَّأسيس هو ظهور الماء العذب لأول مرة في هذه البطحاء، باكتشاف بئر ماء، وحينها انتقل جماعة مِن بني ياس برئاسة ذياب بن عيسى بن نهيان آل نهيان (ت 1793)، ليعيشوا حول الماء بأبو ظبي.

لم تخرج أبو ظبي، في هذا التَّأسيس، عن القاعدة التي قالها بعض الحكماء واستشهد بها الأديب أبو حيان التَّوحيدي (ت 414هـ): «إنَّ المُدُن تُبنى على الماء والمرعَى والمُحتَطَب والحَصانة» (الإمتاع والمؤانسة). لكن هذا الماء لم يرو حقولاً،

ولم ينشأ عمراناً، فمَن أجاد حِرفة الغوص على اللؤلؤ، وصيد ما في بطن البحر، سكن أبو ظبي، وكان سكانها لا يتعدون الألفي نسمة، أما الآخرون مِن الظَّبيانيين، ومثلهم سكان الإمارات المتصالحة، ثم المتحدة، فكانوا يهاجرون بحثاً عن الرِّزق إلى البلدان المجاورة، ومنها الكويت والبحرين، أو رحالة في عرض الصَّحراء.

بحسب مَن عاش فترة تأسيس أبو ظبي الثَّانية، وهو ما حصل بعد تولي الشَّيخ زايد الحكم فيها (6 آب/أغسطس 1966)، كان الماء العذب يأتيها مِن أفلاج العين، محمّلاً في تنكرات. هذا ما قرأته في رواية الأديب البحريني بدر عبدالملك «أبو ظبي سيرة مدينة». كان الماء العذب متعذراً على أكثر مدن الخليج العربي، قبل تحلية ماء البحر المالح، وإن الماء المحلى، مهما كانت درجة تحليته، لا أظنه مثل طعم مياه الأنهر والأفلاج الجاري. فما بينهما، قبل التحلية، هو ما بين ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ (الفرقان: 53).

حكى لي أحد التَّقدميين الكويتيين القدماء، ومدير إدارة مجلة «الطَّليعة» الكويتية سابقاً، أبو فهد عبدالله البعيجاني، وكنت أحدثه عمَّا رأيته في أفلاج العين، أنه كان صبياً ينتظر مع الصِّبية على ساحل البحر، حيث منطقة فريج غنيم بالكويت، وعندما تأتي السُّفن مِن البصرة ينزلون إلى البحر كي يحملوا قِرب الماء العذب الجلدية على ظهورهم، ويسبحون بها إلى السَّاحل، بعد أن يملأها السّفانون بالماء مِن حوض في داخل السَّفينة. كان الماء

الزلال مجلوباً من شط العرب بالبصرة، والمشترون وباعة الماء ينتظرونهم على السَّاحل مع حميرهم لنقلها إلى البيوت، مثلما كان ذوو غواصي اللؤلؤ أو صيادي الأسماك ينتظرون عودتهم وعيونهم مسمّرة إلى بطن البحر. كان ذلك في الخمسينيات مِن القرن الماضي، ولعله في أواسطها.

كثيراً ما سمعنا بمحاولات الكويت مع الحكومة العراقية في مدِّ قناة مِن شط العرب، تدور حول الكويت وتعود لتَّصب في الخليج العربي، وسمعنا عكس هذه الرِّواية أيضاً بأن العراق أراد مد قناة والكويت رفضت، لأنها لا تريد وضع سقايتها وروايتها بيد العراقيين، يقطعونها متى أرادوا! طبيعي مثل هذه الحكايات تتداول بين النَّاس بحسب المواسم في العلاقات. وإذا جرى الحديث عن طلب الماء مِن العِراق حضرت قصة مقتل الحسين بالكوفة، وعطشه ومنعه مِن الماء على شط الفرات، كانت هذه القصة تتداول في الجد والهزل.

بعد وصول عوائد النِّفط، والاستقلال عن بريطانيا، بدأت تحلية الماء مِن البحر، واستُدعيَ المهاجرون إلى أبو ظبي ومُنحوا الجنسية الإماراتية، ووزعت عليهم الثَّروة عن طريق تمليك العقارات، منها الشَّخصية، ومنها التِّجارية، وما هي إلا لحظات مِن الزَّمن والحياة الحديثة أخذت تدب في المكان، فشيدت العمائر محل الأعشاش، التي كانت من سعف النَّخيل وجريده، ورحلت تلك الأعشاش إلى المتاحف، كي تبقى شاهداً على عسر ذلك الزَّمن.

أورد هندرسون، صديق شيوخ أبو ظبي، والعامل في شركة نفط العِراق في الأربعينيات، وأحد مديري التَّنقيب عن النِّفط هناك، وهو الشَّاهد على الزَّمنين، البؤس والنَّعيم: «مما كان يتبادر إلى ذهن المرء ماذا يحصل لهؤلاء النَّاس إذا لم يتم اكتشاف النِّفط، فسبل معيشتهم، التي تعتمد كلياً على صيد اللؤلؤ أصبحت مستحيلة، فلا بد مِن الحصول على النِّفط. مثلما هذه الأفكار لم تكن تفارق عقولنا» (ذكريات عن الأيام الأُولى في دولة الإمارات وسلطنة عُمان).

لو قرأت عن الصِّراعات والمعارك المحتدمة، بسبب سرقات النِّياق أو آبار الماء أو مناطق النفوذ للصِّيد وغيرها، بين الإمارات قبل التَّصالح ثم التَّوحد، لأخذك العجب العجاب كيف تلاشت تلك الفواجع وذاب النَّاس وبسهولة المعشر في كيان واحد، حتى غابت أعلام المشيخات، وصار لها علم واحد يخفق في فضائها، هو علم دولة الإمارات المتحدة، ورأيت ساريته شاهقة على البحر بأبو ظبي، قيل إنها مِن أطول ساريات الأعلام في العالم. صحيح إنه اليسر المالي بانفجار الثَّروة، لكن إذا خُليت هذه الأرض مِن عَقلٍ مدبر لحلت محل الاتحاد الاستباحات والمقاتل، وحل محل التقدم تكريس للتخلف بشكليه القبلي والدِّيني.

بحسب ما سمعته وقرأته أن هاجس أبو ظبي، في ظل زعامتها الحديثة، كان توسيع الكيان ليضم ما مقدور عليه مِن المشيخات

المجاورة، عن طريق التَّوحد الطَّوعي لا النِّزاع والحرب. مع علمنا أن أبو ظبي تُكوِّن نحوِ خمسة وثمانين في المائة مِن مساحة الإمارات كافة، ذلك إذا أُخبرنا أن مساحة الإمارات كاملة تبلغ نحو ستة وثمانين ألفاً وسبعمائة وستة عشر كيلومتراً مربعاً، بينما أبو ظبي وحدها تبلغ سبعة وستين ألفاً وثلاثمائة وأربعين كيلومتراً مربعاً. فلو نظرت في الخارطة لوجدت أبو ظبي الإمارة ممتدة على مساحة واسعة، لا تمثل بقية الإمارات أكثر مِن ربعها إذا لم يكن أقل مِن ذلك. وهي مُحاطة بشواطئ يصل طولها إلى أربعمائة كيلو متر، وهي المنتجة الأُولى بين الإمارت مِن الثَّروة النِّفطية.

الأمر الآخر، أن أبو ظبي لم تتجاوز واقع الحال، وتُؤخذ بشعار قومي أو ديني، وبما أن استعمارها البريطاني كان شبه رمزي لا احتلالاً عسكرياً، إنما وجوده يتعلق بالممرات المائية والصَّحراوية، وأهل البلاد كانوا يديرون أمورهم، وكان له دور في حمايتها من الجيران الكبار، لهذا لم تلجأ إلى الحرب على الاستعمار، إنما أخذت منه عصرنتها وتمدنها، فتحول حصن الشَّيخ إلى حاكم الإمارة. بعدها، منذ كانون الأول/ديسمبر 1971، استُبدِل لقب حاكمها، عظمة الحاكم، بلقب سمو رئيس الدَّولة.

سمعت في أحد المجالس، مِن إماراتيين، وقرأت في مقال كتبه عبدالله بن بجاد، أن أحد القوميين الثَّوريين العرب دخل على الشَّيخ زايد بن سلطان آل نهيان (ت 2004)، وأسمعه مديحاً كونه

حمل البريطانيين على الجلاء (1971)، والمعنى العام مِن كلامه أن حاكم أبو ظبي رفع رأس العرب عالياً في مقارعة الاستعمار. عندها أطرق الشَّيخ الحكيم برأسه، وقال له ما معناه: على هونك، نحن ما زلنا بحاجة لخبرة ودراية هؤلاء في فنون العُمران. وعندما طلب أجانب عاملون بالعين منه لو يسمح بتشييد كنيسة للصَّلاة فيها، منحهم أرضاً مِن دون أن يطلبوها، فالصَّحراء مترامية، وبعد حين كانت تلك الكنيسة وراء علاج الأمراض التي عانى منها السُّكان، مِن دون أن يصبح إماراتي مسيحياً، ولا الكنيسة كسرت أعراف المنطقة وأخذت بالتبشير الدِّيني.

بحسب هندرسون، بدأ التَّنقيب عن النِّفط في العام 1948، لكن لم تظهر عوائده إلا في نهاية السِّتينيات مِن القرن الماضي، ومعه بدأ البناء والتَّعليم وتمدين القُرى، ومدها تدريجياً بعناصر الحضارة، مِن كهرباء وماء يجري في الأنابيب، وليس محمولاً في قِرب على ظهور الجمال والحمير، ولم تعد الآبار هي المنهل الأول للماء العذب، وربما لا تساهم بشيء مِنه، إنما وصلت مكائن تحلية ماء البحر، وهي الآن، بحسب ما سمعت أربع منشآت عملاقة لتعذيب الماء الأجاج، يعتمد عليه في السِّقاية والشُّرب.

كنت أول مرة أسمع بأبو ظبي، ودولة الإمارات ككلّ، وأنا طالب في المدرسة الثَّانوية، يوم أخرجونا في تظاهرة طلابية، عصر 30 تشرين الثَّاني (نوفمبر) 1971، احتجاجاً على احتلال إيران، في زمن الشَّاه، للجزر الثَّلاث: طنب الكبرى وطنب الصُّغرى

وأبو موسى. يومها لم نعلم أين تقع هذه الجزر، وما قصة احتلالها، لكننا حملنا اللافتات، بتوجيهات رسمية، منددين بالاحتلال، وكانت العلاقة حينها سيئة بين بغداد وطهران، فواحدتها تُكيد إلى الثَّانية المكائد، وكان آية الله الخميني (ت 1989)، وقادة من حزب تودة، الحزب الشُّيوعي الإيراني، المعارضون بقوة لنظام شاه إيران، موجودين على الأرض العِراقية.

كان يوماً حاسماً في تاريخ الإمارات المتصالحة، فبعد يومين، أي في الثَّاني من كانون الأول (ديسمبر) 1971 مِن احتلال الجزر اعترفت الأمم المتحدة بدولة الإمارات، فعرفنا، في ما بعد، التَّزامن بين احتلال الجزر والإعلان عن الدَّولة الجديدة دولة الإمارات وعاصمتها أبو ظبي، الاتحاد الذي لاقى معوقات لا حصر لها.

ما زالت الجزر بيد إيران، حتى هذه اللحظة، وكان المعول على الثَّورة الإسلامية إعادتها، على أساس أن ذلك محسوب على زمن الشَّاه البغيض عندها. لكن دولة الإمارات مستمرة في المطالبة بها، مِن دون كسر العظم مع إيران. قيل لي: إن هناك دولة حاولت دفع الإمارات، وهي الدَّولة الفتية والجاهدة في البناء، لأن تقدم على الحرب مِن أجل الجزر، لكن الإمارات ترى من الحكمة عدم التَّفريط في حقها مهما طال الزَّمن، بالسلم لا بالحرب. حصل ذلك في زمن كانت الإمارات فيه تحبو صوب التَّقدم والعالمية.

يبدو لي ساهم حدث احتلال الجُزر الثَّلاث، الذي شغل الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، وما زال يشغله مع اختلاف الدَّرجة، في ذيوع اسم دولة الإمارات الفتية آنذاك وعاصمتها أبو ظبي. لكن بعد أن وضعت أبو ظبي الماضي خلفها، وتقدمت في البناء الهائل، أخذت تشتهر في الإعلام العالمي، وجهد الباحثون عن العمل يتوافدون عليها، وارتفعت سمعتها ارتفاعاً عالياً. أتذكر العام 1979 تعرفت إلى يمني مِن أهل يافع، وأنا أعمل مدرساً بعدن، أنه كان قادماً مِن الإمارات، ولديه فائض مِن المال وينوي تشييد مسجد مع كثرة المساجد هناك، وحينها تساءلت وماذا بالإمارات؟! فقالوا: العمل والمال الوفير.

لقد حصرت أبو ظبي ماضيها المُعسر في مُتحف صغير، يقع على كورنيشها النَّظيف والزَّاهي بأدوات التَّحضر، والممتد على طول ساحلها شِبه الدائري، يأتيه السَّائحون وتلاميذ المدارس، تجده مكتفاً بما يُعرف بكاسرات الأَمواج، فالأمواج عاتية في مواسم الرِّياح الهوج، تقفز إلى الطَّريق العامة، وتعيق مرور السَّيارات، وتهاجم الأبنية والحدائق الممتدة على الكورنيش لمسافة طويلة.

يقف في زاوية مِن زواياه المُتحف التُّراثي، أو القرية التُّراثية، الجمل، وتنتصب الخيمة والعشة، ومعروضات رمزية للمهن التقليدية، مع نماذج أو عينات مِن التَّاريخ القديم. لكن لم تلفت نظري موجودات العصر البرونزي أو الحجري بقدر ما

أخذني الشُّرود وأنا أنظر إلى تلك الخيمة المفروشة بالرِّمال، ثم ألتفت لأرى الشَّواهق مِن العمائر، والوجود الجديد في كلِّ مناحي الحياة.

سمعت مِن إماراتيين أنهم يحاولون أن يضعوا أمام الجيل الجديد تفاصيل ذلك الزَّمن، وهم في مجالسهم لم يغادروا أعرافهم القبلية، مِن الاستقبال وأُسلوب المأكل والاحتضان الأُسري واللباس أيضاً، وقيل إن وجود مهرجان لشاعر المليون، ضمن النَّشاط الثَّقافي، ما هو إلا محاولة لربط الشَّباب بتلك الأُصول. حتى سمعت أن المؤسس الشَّيخ زايد كان يريد تعليم كتاب ألفريد ثيسجر «الرِّمال العربية» ضمن ما يتعلمه التلاميذ مِن دروس، لا لشيء إلا لكي يعرفوا أين كان الآباء والأجداد وكيف صار الحال بالأبناء والأحفاد، فثيسجر كان الشَّاهد على تلك الكثبان العارية، وهو الصَّادق الأمين في نقل المشهد كما هو في واقع الحال.

قادتني المصادفة إلى اللقاء بشاب تخرج مِن الثَّانوية، اسمه سعيد أحمد العامري، مِن منطقة الوكَن (الوقن بحسب لوحة تشير إليها مِن مركز مدينة العين)، التي تبعد ستة وثمانين كيلومتراً عن العين، عاصمة المنطقة الشَّرقية، جاء سعيد إلى أبو ظبي متقدماً لدخول الكلية العسكرية -تذكروا ما قاله عبود الكرخي في مستحيلاته الواردة في المستهل- وما زال سعيد يعتني مع أهله بالجمال والنُّوق، التي تزيد على 120 جملاً وناقةً.

كان سعيد العامري، كبقية الإماراتيين، مؤدباً للغاية، يحتفظ بمسحة بداوة مع مدنية بائنة على تصرفه، يحفظ أسماء الجمال والنِّياق التي اعتاد الظَّبيانيون تسميتها: الظِّبيان، والسَّراب، وصوغان، والأندلس، ونجوى، ونهب، وأفعال، ونجوى، وشاهين، حنيش، صوغان، رعد، كَعود. وبعد مشاهدة إعدام صدام حسين (2006) سمى أحدهم جمله باسم صدام. قلت لسعيد لماذا فقد كان ظالماً؟! قال: «لأنه كان شجاعاً عندما شنقوه! وأنا أعرف أنه كان ظالماً لكنه شجاع». وهي صفة بدوية صرفة أن يغتفر الظلم بالصَّلابة!

تحدث سعيد عن النَّاقة بشغف، ونوّرني بالكثير مِن أخلاق سفينة الصَّحراء. قال كلمة مقطوعة: «النَّاقة فيها الرَّحمة». وسألت كيف؟! قال: «إذا مات الحوار نأتي بحوار آخر للنَّاقة الثَّكلى، وأول مرة لا تقترب منه ولا تريده، لكننا نضعهما في سور مشبك واحد، وتدريجياً يصبح ابنها، تعطف عليه وترضعه وتدافع عنه».

حكى لي عن أمراض الجمال، وأن الدَّولة جعلت في كلِّ منطقة دائرة بيطرة للعناية بالحيوان. قال: «إن مِن طبع الجمل الحقد»، وأتى بشواهد على ذلك، ومنها أنه خلع كتف قريب له، لأنه شعر بأذيته وإهانته له. يتم نظام تزواج الجمال والنُّوق عبر بطاقات، عندما تؤخذ النُّوق إلى صاحب جمل له مواصفات خاصة، يُطلب منه الأبناء. رأيت في سعيد المثال الحي على الجامعين بين الماضي والحاضر.

سعيد مِن ولادات 1990، لما سألته عن وحدته الإدارية وماذا يُسمى رئيسها، قال لي: خليفة. وظننت أنه اسم آخر سَمي لرئيس الدَّولة، لكنه كان يقصد رئيس الدَّولة نفسه، وذكر الاسم على الطريقة البدوية بلا لقب. لما حكيت ما سمعته من سعيد لآخرين قالوا: إنه تأكيد على وحدة البلاد، فسابقاً كان النَّاس يتحدثون عن رئيس القبيلة، ويقفون عنده، لكن الحال تبدل وصارت أبو ظبي إمارة يجمعها حاكم واحد. ربما كان هذا ردة فعل أو تربية ضمن التَّعليم الحديث في محاولة التَّأكيد على الدَّولة. قال سعيد: أنا مِن العوامر، والشُّيوخ يحبون العوامر، ونحن نزور مجلس أبي هزاع كثيراً، ولما سألته مَن أبو هزاع، قال: الشَّيخ سلطان بن زايد، ممثل رئيس الدَّولة.

ما سمعته مِن سعيد القادم مِن الوكَن، القصية عن أبو ظبي، قياساً بمساحة أبو ظبي الإمارة لا المدينة، فسّر لي كثيراً مِن المظاهر، ومنها التَّجاوب بين البادية والحاضرة. كان متقدماً ليصبح ضابطاً في الجيش الإماراتي الاتحادي. راجياً أن التَّمرين في الكلية العسكرية سيحل له مشكلة سمنته، مع أنه يقول: لا آكل كثيراً، لكنه كان صائماً، وأفطر في نصف النَّهار، قائلاً: لم أستطع الاستمرار.

مِن جهتها لا تحاول الدَّولة قطع الصِّلات بين الماضي والحاضر كليةً، فهي تحافظ على العادات والتَّقاليد، فمثلاً يشترط الزَّي على تلاميذ المدارس «الكندورة»، أي الدِّشداشة،

والسِّفرة أو الحمدانية (غير مشروطة) تشبه العِمامة. أما البنات فيرتدينَ الزَّي التَّقليدي، وهو يقوم مقام الحِجاب الدِّيني، لكنه كتقليد شعبي، حمى الإمارات مِن الزَّي الموحد الذي يشيعه الإسلاميون ثقافةً.

قرأتُ في كتاب «غطاء الرَّأس في التُّراث الشَّعبي العربي»، للباحث العِراقي المقيم بالإمارات محمد رجب السَّامرائي، فصلاً عن أغطية الرأس بدولة الإمارات، مثل: الشَّطفة وهو العقال المقصب، مثلما نسميه بالعِراق -اشتهرت به شخصيات عراقية لعبت أدواراً في السياسة والحياة العراقية عموماً، لكنني لم أرَ شخصاً بأبو ظبي يعتمره اليوم- والغترة وهي ما يسمونها: دِسمال أو السِّفرة، غترة أم قلم يعتمرها الشَّباب، وكذلك العصابة التي تشد حول الرَّأس.

في هذا التَّماهي بين الماضي والحاضر يحق الاستشهاد ببيت الجواهري، مِن قصيدته «أفتيان الخليج» (أبو ظبي 1979):

فقلتُ وفي البداوةِ ما يُزين
البداةَ وفي الحضارةِ ما يُشيدُ

لاحظت أن الإمارات بمفردها تجمع بين العِقال والسِّفرة، أي العِمامة العُمانية، وكأن العِقال وقف عند الحدود الإماراتية العُمانية ولم يدخل إليها، وأن العِمامة وقفت عند الحدود الإماراتية النَّجدية. لم ألاحظ الصِّغار يعتمرون العِقال والغترة، ولما سألت

الجالسِ إلى جنبي في مجلس الشَّيخ نهيان بن مبارك عن سبب ذلك، وأشرت إلى صبيين يجلسان قريباً مِن الشَّيخ نهيان، أجابني: أنهم يلعبون، وبالتَّالي لا يثبت على رؤوسهم العِقال، فنكتفي بالسُّفرة غطاءً لرؤوسهم. ظهر في ما بعد أنهما مِن الشِّيوخ، وكان محدثي والدهما. شعرت مِن جوابه المقتضب عدم ارتياحه لسؤالي، هكذا فهمت. رأيت بدولة قطر أطفالاً وصبياناً يعتمرون العِقال والشِّماغ، لكنهم بدوا أكبر مِن سنهم، في مشيتهم وتصرفهم مع الآخرين.

عن انقلاب الإماراتيين على العمائم، قرأت لدى السَّامرائي، والعِهدة على ما كتب: أن أهل الإمارات تحولوا عن لبس العمائم منذ نصف قرن (غطاء الرَّأس)، بمعنى منذ العام 1955، ذلك إذا علمنا أن الكتاب صدر في عام 2005، ويغلب على الظَّن أن ذلك قليل، فهناك صور تشير إلى اعتمار الغترة والعِقال أقدم مِن هذا التَّاريخ.

أكاد أجزم أنني لم أرَ ظبيانياً، مِن المواطنيين، دخل مجلساً أو دائرة وهو يلبس القميص والبنطلون، وما رأيت ظبيانياً أو إماراتياً حليق اللِّحية، وهو تقليد يُحافظ عليه بالعرف الاجتماعي لا بالقانون ولا بأمر رسمي، حتى ذهبت لحية الإماراتي مثلاً اهكذا سمعتُ . لذلك عندما نلتقي بهم بلندن يظهرون على غير هيئة في الملابس الأوروبية، هكذا توهمت مرة بأحد الأصدقاء.

مِن تقاليد الكندورة أو الدِّشداشة أن يتدلى مِن رقبتها، على الصَّدر، ما يُسمى بالطَّربوش، وهو عبارة عن خيوط مضفورة

كالجديلة، تخلو منها دشاديش العِراق والشَّام ومناطق الخليج الأُخر، وربما معروفة لدى العُمانيين أيضاً. استغرب أحدهم وأنا أسأله عن معنى وجود الطَّربوِش، حسبها مزحةً فقال ضاحكاً: هلا فسرت لي سبب وجود هذه الأربطة في الرِّقاب، وأشار إلى أشخاص يجلسون إلى جوارنا في بهو الفندق مِن سائحين أو وافدين! أما أنا فوضع الربطة في العنق يحبس حنجرتي عن الكلام، هكذا، ونحن العراقيين نسميها (باينباق) أو رباط، وأشهر الأربطة المصنوعة هناك هي ما شاع بيننا بأربطة البلداوي.

أجد المفارقة عند المقابلة بين أبو ظبي، الخالية مِن أثر حضاري ومِن عراقة في التَّاريخ، وبقية المدن ذات الإرث الهائل. فمدن تتحدث عن تاريخها الحضاري والعلمي والثقافي، الممتد إلى أربعة أو خمسة آلاف عام، وكأنها تعيشه لحظة بلحظة، بينما نجدها تنعي لحاضرها حتى غدا ذلك الماضي خبراً من الأخبار، كأن زلزالاً ضربها وشُقّت أرضها وابتلعت تحضرها ورُقيها وتسامحها الديني الغابر.

بينما أبو ظبي تؤسس للحضارة مِن دون الاتكاء على حجرة أو فكرة مِن الماضي أو جغرافيا مساعدة، مِن ماء وخصوبة أرض، وكي تبقى عاضة بنواجذها على ما شيدته وترنو إلى ما هو أكثر، لا بد مِن محافظة على تلازم مقبول بين ماضيها وحاضرها، لا عودة، ولا غرور وتعاليَ بما يُعبر عنه بثورات الحداثة، فالتدرج في صعود السَّلالم أراه أسلم.

الفصل الثَّاني

المؤسس

الحِكمة والإِخلاص

«يكفي أنه أراد تجنيب
الشَّعب العراقي الحرب،
بدعوته لصدام حسين
التَّنحي وبلاده مفتوحة له»

(شاعر عراقي مشهور)

لو عاد الزَّمن قبل ثلاثين، وربما عشرين، عاماً ما قدمتُ على كتابة حرف واحد عن شخصية خليجية، فكيف إذا كان حاكم إمارة، ورئيس دولة؟! في تلك الفترة، وقبل التَّحولات الكبرى، التي جرت في العالم، كان لدينا اللجوء، نحن العراقيين حاملي العقائد، إلى بريطانيا أو أمريكا وحتى الدُّول الإسكندنافية، وهي اشتراكية لكنها اشتراكية ديمقراطية مثلما كنا نسميها، خيانة للوطنية، وها نحن لجأنا إليها وبسعي وكثافة.

أتذكر أن الصَّديق الصحافي اليمني، محرر جريدة الثَّوري، النَّاطقة باسم الحزب الاشتراكي اليمني، حسن عبدالوارث، ولا أعرف إلى أين جرى به الزَّمن بعد الحوادث الجسيمة التي تمر بها بلاده، قال لي (صيف 1992) بعدن، بين الجدّ والهزل، وأنا نويت اللجوء إلى بريطانيا: كيف لك اللجوء إلى أحضان الإمبريالية وأنت تدَّعي إنك خصم لها؟! أجبته: وأين كتب كارل ماركس (ت 1883) سِفر «رأس المال» العظيم! أليس بلندن؟! وقد أقنعته حجتي، مع أنني لولا الاضطرار إلى اللجوء ما حضر ذلك الرَّد في خاطري.

كنا نعتبر شخصاً مثل الشَّيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مؤسس إمارة أبو ظبي الحديثة ودولة الإمارات، وبقية الأمراء والملوك بمَن فيهم ملكنا الشَّاب الطَّيب الخلق والعفيف اليد والسَّريرة فيصل الثَّاني (قُتل 1958)، في ضفة الأعداء فكراً وممارسةً، فهم قوى رجعية استحواذية! هكذا كنا نفكر.

فالأمر لا يخصنا نحن اليساريين إنما كان الصِّراع ينشب ويوجه هكذا، فالعالم منقسم إلى يمين ويسار، في أيدينا الخروج على ما يجري بالعالم. أتذكر لما اشتركتُ في برنامج قناة الحرة (2005) حول المؤتمر الإسلامي بمكة، رددت على المسؤول الأمريكي عندما وصف الاتحاد السوفياتي بالإمبريالية السُّوفياتية! قاطعته مباشرة وبحدة قائلاً: إن الإمبريالية هي الأمريكية وليس السُّوفياتية، ولمن لا يتذكر أن الرَّأسمالية، بحسب قواميسنا، هي

أعلى مراحل الإمبريالية، يكون الاستحواذ المالي في ظلها قد بلغ أشده. بمعنى كان كلٌّ طرف لديه قناعاته بالآخر.

تبدلت الدُّنيا كثيراً وما عادت الموانع قائمة مِن قراءة تجارب الآخرين ومواقفهم، ورأي شعوبهم الإيجابي فيهم، هذا ما كتبه شاعر عراقي تقدمي في دفتر التَّعازي أو في ذكرى الشَّيخ زايد. كان قد سخر كل شعره ضد غير الثَّوريين وحرض على إسقاطهم، لكنه في لحظة ما هدأت عواطفه، وعواطفنا جميعاً، فما وجدناه مِن حرية العمل الفكري والحزبي بلندن أكثر بكثير منه بموسكو، وما حصلنا عليه من استقبال إنساني غير مشروط جعلنا نفكر بالآخر بأنه ليس كلَّه سيئات، ومنجزات عديدة مما كنا نحلم به قد تحققت في أرض الخصم.

أخذنا ندقق ونصطدم بالتَّفاصيل، وابتعدنا قليلاً عن الخطوط العامة، أو الصِّراعات الكونية بين الرَّأسمالية والاشتراكية، وإن من تعاليم الاشتراكية ما وجدناه مطبقاً بأوروبا الغربية، وهو ما لم يطبق في ظل حكم الأَحزاب الشِّيوعية نفسها، وكذلك الحال بما نصفه بالبلدان الرَّجعية، ودولة الإمارات كانت واحدة منها، فقد طبقت عملية توزيع الثَّروة بالقدر الذي يجعل المواطن يحيا حياة كريمة. كتب الشَّاعر كلمة أعطى فيها الرَّجل حقه، وقال لمَن كان معه: «يكفي أنه أراد تجنيب الشَّعب العراقي الحرب، بدعوته صدام حسين للتَّنحي وبلاده مفتوحة له»!

بينما شاعر آخر ما زال يدعي أنه الشِّيوعي الأخير، في الكلام لا الفعل، كان له موقف آخر، أظهره بعد وفاة الشَّيخ زايد مباشرة بكلام غير لائق، لم أجد عراقياً تقدمياً أو خلافه رضي عليها، أو بارك له كلماته، والأول لم يكن فائزاً بجائزة من الإمارات، بينما الثَّاني كُرم بإحدى كبريات الجوائز، مِن دون أن يأخذوا يساريته، ولا ادعاءه أنه الشِّيوعي الأخير، كحاجب بينه وبين الجائزة التي مُنحت له، وكان رصيدها المالي 100 ألف دولار أمريكي. اضطرت المؤسسة التي منحته الجائزة إلى سحبها منه، أما المال فظل في رصده، وبلا خجل.

يتفق الجميع أن الشَّيخ زايد آل نهيان كان المؤسس الثَّاني لأبو ظبي، بعد جده الأعلى ذياب آل نهيان، فبين وفاة الجد وحفيده مضى نحو مئتي عام. فهو الباعث لدولة جمعت من شتات المشيخات، وهو الذي صمم على تحويل الرِّمال إلى عمران. سمعت ذلك في الكلمة التي ألقاها أحد حكام الإمارات السَّبع، في حفل جائزة الشَّيخ زايد الثَّقافية السَّنوية، وهو حاكم الشَّارقة الشَّيخ سلطان القاسمي. كما سمعتُ ذلك مِن عراقيين عاشوا عسر أبو ظبي في السِّتينيات ويُسرها الحالي.

لم نكن سمعنا حينها في التَّغيير الذي حصل بأبو ظبي في 6 آب (أغسطس) 1966، من قبل، مثلما سمع العالم بالتغيير الذي حصل بالقاهرة 23 تموز (يوليو) 1952، أو ببغداد 14 تموز (يوليو) 1958، ثم 17 تموز 1968، أو ما حصل ببغداد، مِن قَبل،

في 8 شباط (فبراير) 1963، أو 22 يونيو (حزيران) 1969 بعدن، وما عُرف بالخطوة التَّصحيحة، وغير ذلك مِن حوادث العواصم والبلدان.

فأبو ظبي لم تكن تثير الإعلام العالمي آنذاك، مثلما تثيره الآن، حتى صار الدِّرهم الإماراتي منافساً في صف العملات الصَّعبة العالمية، بعد أن كانت المنطقة بأسرها تتعامل بالرُّبية الهندية، وهي رسمية على مساحة شاسعة مِن قارة آسيا مِن الهند وحتى العِراق آنذاك.

غدت عواصم العالم تنظر إلى أبو ظبي أو دبي بمنظار نظرتها إلى العواصم الكبرى. كذلك لم تجعل أبو ظبي هذا اليوم عطلة رسمية، أو احتفالاً بثورة أو تنصيب، أو تصحيح، مع أنه بالفعل يستحق اسم التَّصحيح، إذا قرأناه بعناية وأخذنا النَّتائج بنظر الاعتبار. إنما ظل يمرُّ عادياً كبقية الأيام بأبو ظبي، وكم أهلكتنا تلك المناسبات سنوياً.

كنا نتحدث حول هذا الأمر، فقال أحدهم لأنه حدث بين أخ وأخيه، وهو تنصيب الشيخ زايد بن سلطان مكان أخيه شخبوط بن سلطان. ربما يكون لهذه العلاقة أثر ما في عدم التَّذكير فيها، لكن هناك الكثير ما يُغني عن إعادة التَّذكير بالمناسبة، وهو البناء وتأسيس دولة مِن جماعات كانت مشتتةً، ومناطق أهلها كانوا يلجأون إلى الكويت وغيرها لكسب العيش، وإذا بها تغري أهل الاختصاص مِن غربيين وشرقيين بإلقاء عصى التِّرحال فيها.

سمعت مِن الدكتور عدنان الباجه جي، الذي سيأتي الحديث عنه في الفصل الخاص بعراقيي أبو ظبي، أن الشيخ زايد كان يكرر القول: إنه يريد لكلِّ مواطن بيتاً ومصدر عيش كريم، كان ذلك قبل الانطلاق بالعُمران. سألته ومِن أين للرِّجل هذا الفكر والسُّلوك حتى ينفتح على المدَنية والحضارة ويشعر في سعادة مواطنيه؟! قال: وجدته حكيماً، يفكر بتأنٍّ، ومسالماً جداً، لا يحب إيذاء أحد، وضالته هي العُمران. استطاع بحكمته حل كل الخلافات القائمة مع الجوار، وإن خسر أرضاً لكنه ربح السَّلام، وكان ملتفتاً إلى الدَّاخل، أي إلى العُمران وتشييد دولة مِن العدم.

وأضاف الباجه جي قائلاً: حدث مرة أن سأل الشَّيخ زايد وزير الخارجية العراقي الأسبق، في العهد السَّابق: كم صار لكم في الحكم؟ قال له: خمسة وثلاثون عاماً. فقال الشَّيخ بقدر سنين حكمي! لكن ماذا فعلتم لوطنكم وشعبكم؟! فسكت الوزير. أما خمسة وثلاثون زايد ففيها خَلق دولة مِن لا شيء، حتى أصبحت جنسيتها وعقد العمل فيها ضالة منشودة، وأحيا أرضاً كانت تسفي فوقها الرِّمال.

سمعت، والعهدة على الرَّاوي، وزايد كان حاكماً على العين، أنه راسل عدداً مِن الملوك والرُّؤساء لمساعدته في إنشاء مدارس هناك، لكن لا جواب على رسائله، وكأنهم يسألون أين تقع العين ومَن المرسل؟! كذلك سمعت مِن أحد العاملين معه، أنه وهو جالس على الرَّمل مع حاشيته، كان يحرك الرِّمال بعود مِن الشَّجر

ويقول: أسمع صوت الجرس! والذين حوله شكوا أنه ليهجر، فماذا يعني صوت الجرس بين هذه الكثبان الممتدة! بمعنى أنه كان يحلم ويفكر بتحقق حلمه، والبداية بالتَّعليم.

كان ينزل إلى الأفلاج ليحول الماء، مع مزارعي النخيل مِن مزرعة إلى أخرى، هذا ما سمعته أكثر مِن مرة بأبو ظبي وداخل الأفلاج. أيد الدكتور عدنان الباجه جي، وهو وزير دولة وأحد واضعي الأُسس للجهاز الحكومي بأبو ظبي تحت إشراف الشَّيخ زايد، هذا التَّوجه لدى حاكم أبو ظبي حينها، بأن التَّعليم كان هاجسه الأول، فمع العُمران في المباني لا بد مِن عُمران الإنسان، وهذا هو سر النَّجاح.

لذا بعد تشييد المدارس كانت تُدفع رواتب للتلاميذ، لجذبهم إلى المدرسة، وإبطال أعذار أهلهم بمشاركتهم بجلب المعاش، منه لتوطين البدو الرُّحل. تلك المدارس التي شهدت مثلها في محافظات اليمن الدِّيمقراطية، وعلمتُ أبناءها في إحدى القرى القصية، العام 1979، وكانوا يأتون مِن أطراف الصَّحراء بدائيين بمعنى الكلمة. لكنها انتهت إلى الفشل، فبعد الوحدة (أيار/مايو 1990) أُلغيت كل الإنجازات لتحل القبيلة محل الوطن، ويتحول أبناء تلك المدارس إلى ميليشيات.

قيل لي: كانت المدرسة النَّهيانية (1958- 1959)، نسبة إلى آل نهيان بالعين، مِن أوائل المدارس الحديثة، غير المقتصرة

على تعليم الأمور الدِّينية، وكانت أول نشأة لمدارس البنات في أول السِّتينيات، من القرن الماضي. أما عن أبو ظبي فهناك مدارس نشأت مِن قبل يُدرّس فيها القرآن والأمور الدِّينية، تولى نشأتها التَّاجر خلف بن عتيبة، لكنها توقفت بعد حين، وهناك مدرسة أخرى تأسست العام 1940 عن طريق درويش بن كرم، وهي مدرسة أهلية، ومعلمها هو الإمام والخطيب والخاتن (عن شبكة الرَّحال الإماراتية). ثم تأسست مدارس التَّعليم الحديث وتوسعت، ولاتساع المهام صار للتعليم العالي وزارة وللتربية والتَّعليم وزارة منفصلة.

مِن أول القرارات التي اتخذها الشَّيخ زايد تحريم قلع الشَّجر، والعقوبة كانت صارمة، وكذلك تحريم صيد الطَّير، مع أن صاحب القرار، في السَّابق، كان يصطاد الحباري، والحديث طويل لأفريد ثيسجر (ت 2003)، الذي نزل بضيافته في نهاية الأربعينيات مِن القرن الماضي.

في أمر عدم قطع الشَّجر يُذكرنا هذا الفعل بالزَّعيم عبدالكريم قاسم (قُتل 1963)، عندما حرم قطع النَّخلة ببغداد بقرار رسمي، على أمل أن يتكاثر النَّخيل في العاصمة، وتمسي بيوتها وطرقاتها تحت ظل جنات النَّخيل. لكن علينا حساب نِعمة البيئة ببغداد وبؤسها بأبو ظبي، فزراعة نخلة في الرَّملة الظامئة تكلف ما تكلف، بينما زراعة نخلة على شاطئ دجلة سهلة كشربة

الماء، ومع ذلك لم يتم ذلك المشروع. أخبرني بهذه المعلومة المعمار محمد مكية، فهو كان مكلفاً بالمشروع من قبل عبدالكريم نفسه، لكن بعد قتل الزَّعيم انطفأ الحلم.

حكى لي المحامي صلاح إبراهيم أبو خالد، وهو مِن قدماء العِراقيين بأبو ظبي، وشهد بؤسها ونعيمها في ما بعد، عمل آنذاك وكيل نيابة، في ظل وزير الدَّاخلية الشَّيخ مبارك آل نهيان، وما زال يقيم فيها، أن الشَّيخ زايد كان شخصياً يحضر إلى مواقع العمل في الظَّهاري، ولما شاهد أحد العمال يقلع شجرةً، وأظنه قال: نخلة، أوقفه وسأله إلى أين ذاهب بها؟ أين تغرسها؟! ولم يكن لدى العامل جواب، فهو خلعها ليرميها، فأوقف الشَّيخ العمل حتى تأكد مِن إعادة غرس النَّخلة أو الشَّجرة المجتثة في المكان المناسب، فصار ذلك قانوناً.

هذا ما سمعته أيضاً وأنا أزور الأفلاج بالعين، أن العاملين في إحدى المؤسسات سألوا مدير المؤسسة أن الحائط أتى على شجرة، فرد المدير قائلاً: أزيلوا الحائط، فقلع الشَّجرة مصيبة! ويقصد ما سيناله مِن عقوبة. ربما في هذه القصص شيء مِن المبالغات والإضافات لكنها ليست الخيال الخالي مِن الحقيقة. إن صح القول فقد شاع بين النَّاس مِن كرامة للشيخ زايد، أنه يضع عصاه فيُحفر فينبع الماء! لكن لولا تلك الصَّرامة مِن أجل إحياء الشَّجر ما تم الانتصار على الرِّمال العطشى، وما امتدت خطوط

النَّخيل على طول الطُّرقات الدَّاخلية والخارجية، جناتٍ ومرابع تحمي بظلالها مِن الهجير ما تحتها مِن إنسان وكائنات أُخر.

قرأت في كتاب «عبقرية زايد في الزِّراعة والبيئة» لهلال حميد بن ساعد الكعبي، أن الشَّيخ زايد زار بريطانيا وفرنسا وأمريكا العام 1953، وكان لهذه الزِّيارة تأثير كبير على رؤيته في العمران والحياة المتمدنة، تم ذلك قبل ظهور النِّفط بأكثر مِن عقد، وربما قبل تشخيص وجوده في هذه الأرض وبهذه الغزارة. صحيح أن زيارة حاكم العين لأوروبا أثرت في توجهاته، ومال بعدها إلى محاكاة تلك المدن المزدانة بالنِّظام والشَّجر، وكلٌّ ما يُسهِل العيش الرغيد للإنسان، إلا أن هناك العديد مِن المشائخ والأُمراء والحكام زاروا أوروبا، ومنهم مَن قطن فيها ردحاً مِن الزَّمن، وعاد أكثر انغلاقاً وتعصباً وحفظاً للتَّخلف، بذريعة المحافظة على الهوية!

ألم يعد دارسون بهارفرد الأَمريكية، وكبريات الجامعات الأَوروبية، متعصبين دينياً، واستبدلوا علمهم وما كسبوه في تلك التَّجربة بزنار ناسف، فجروه في شارع أو مدرسة أو روضة أطفال! كم مِن طبيب تعلم بأوروبا وعاد إرهابياً؟! وكم مِن مسؤول الآن احتضنته أوروبا وذاق طعم عدالة نظامها الاجتماعي وسار في حدائقها، ولما أتته المسؤولية لم يتمكن مِن خلع رداء تخلفه، منه رغبة ومنه مجاراة مِن أجل كسب الأصوات، إن كان هناك حكمٌ نيابيٌّ.

لم يخجل الظَّبيانيون، أو الإماراتيون ككلٍّ، مِن عرض صور مؤسس إمارتِهم ثم دولتهم حافي القدمين يجلس على الرَّمل، وينام عند الأفلاج عندما كان حاكماً للعين، ولو زرت مُتحف العين لوجدت التَّسلسل في المشاهد. وما كان ألفريد ثيسجر طامعاً بشيء أو مرائياً عندما كتب ما نصه: «كنت أتطلعِ إلى اللقاء به، فقد كان يتمتع بشهرة واسعة بين البدو، الذَّين أحبوه بسبب تصرفاته البسيطة غير الرَّسمية ومودته، واحترموا قوة شخصيته وفطنته وقوته الجسدية. كانوا يقولون عنه بإعجاب: زايد بدوي، له معرفة بالنِّياق، يمتطيها كواحد منا، ويجيد إطلاق النَّار، ويعرف كيف يُقاتل» (الرِّمال العربية).

هذا الإنسان البدوي، غير المتعلم في مدرسةً نظامية، الذي نال إعجاب قومه، وهم كانوا على بداوة تكاد تكون نقية لا تشوبها شائبة، احتفظ ببداوته وانفتح على الحضارة! وكيف تمكن مِن استيعاب دروس التَّسامح الدِّيني والاجتماعي، وكيف فلت مِن التَّأثر السَّلفي وهو القائم على حدوده الغربية، حيث منطقة المسلع، التي منها يُنفذ إلى السعودية وقطر.

اجتهد هذا الرَّجل لتأسيس دولة لا أظن البدو كانوا يتطلعون إليها، أو حتى رغبوا فيها مِن الأساس. كان عمداء التَّيار السَّلفي يسمون إمارة أبو ظبي ودبي، وإمارات ساحل عُمان كافة، بالجهمية، نسبة إلى جهم بن صفوان (قُتل 126 هـ)، وبالتَّالي تكفيرهم، سمعت ذلك ممن أثق به، ولم أستأذنه في ذِكر اسمه.

هذا، ولو كانت السَّلفية رسخت قدمها بأبو ظبي أو دبي ما عمرت البلاد، وما دخلها صاحب علم وخبرة. ومعلوم أن الجهمية كانت تعتقد بخلق القرآن ونفي الصفات، شأنها شأن المعتزلة والإباظية، لكنها كانت شديدة القول في إثبات القدر، أي إنها تمثل الجبرية الصَّارمة العمياء، ويغلب على الظَّن أن الذين يتهمون الآخرين بالجهمية ما عرفوا جوهرها، لكنها تهمة طالما كُفر وقُتل بسببها مفكرون.

كان ألفريد ثيسجر نفسه، وفي كتابه، يشكو مِن التَّمييز الدِّيني ضده في تلك المناطق على حدود أبو ظبي، وكثيراً ما كان يُمنع مِن الدُّخول إلى خيمة أو بادية لا يرضى عن مسيحيته أميرها، وهُدد بالقتل عدة مرات، ولم يتمكن مِن الوصول إلى منطقة الجبل الأخضر لهذا السَّبب. لكن كيف تعامل معه حاكم منطقة العين وانسجم معه، وقبلها استُقبل بأبو ظبي مِن قِبل حاكمها الشَّيخ شخبوط، ومِن دون أن يُسأل عن دينه، أو يُمتنع مِن مآكلته! بل كانت الكنائس أخذت تفتح بأبو ظبي ومنذ أواسط السِّتينيات، لوجود مَن يحتاج إليها وهم الأجانب القادمون للعمل بالبلاد!

بهذا المعنى أتي على ما نُقل إليّ، مِن أحد حاضري المجلس: إن بعض رجال الدِّين أتى إلى الشَّيخ زايد، وتكلم بفظاظة ضد فتح الفنادق وما فيها مِن شراب أو غناء، وأوصاه بغلقها، لأنها تتعارض مع الشَّريعة! فما كان مِن حاكم الإمارة إلا أن قال ما معناه له: تعال إجلس في مكاني وأحكم، ما دمت تأمرني ماذا أفعل!؟ خجل

الرَّجل وأخذ يستمع وهو صامت. قال له: ألم ترَ المساجدَ التي شيدتها، وأنها مفتوحة لمَن يريد الصَّلاة، وتلك الفنادق مفتوحة لمَن يرتادها، مِن أهل البلاد ووافديها، وجعلت القانون والشُّرطة في الوسط تحاسب مَن يعتدي ويتجاوز حدوده؟!

قصة أخرى سمعتها ممَن حصلت معه مباشرة بلا وسيط، كان وفد الإمارات في زيارة خارجية، إلى دولة مِن الدُّول الأوروبية، وفي داخل أحد أعضاء الوفد روح فنان، يهوى العزف على العود لا أكثر، وكان بعد أن يقضي واجبه مع الوفد يركن إلى غرفته ويأخذ يدندن عزفاً على أوتار العود، مِن دون إزعاج الآخرين، ولما سمعه شخص آخر اشتكى منه لدى الشَّيخ زايد.

بعدها نادى الشَّيخ على الرَّجل المعني فأتى ووقف بين يديه، ينتظر سخطاً عليه بسبب ما فعل. فقال له الشَّيخ: إذهب واجلب ما كان معك! فحاول الرَّجل التَّخلص مِن الموقف بالإنكار أنه لم يكن معه شيء، إلا أن الشَّيخ أصر عليه. فجلب العود وأمره أن يسمعه شيئاً منه، فلما عزف التفت الشَّيخ للجالسين، وكان الواشي بينهم: هذا جميل، أسمعنا منه!

أقول: فهل تتصورون أن الخمر والمعازف قد اختفت بالمدينة المنورة وبمكة المكرمة نفسيهما، وفي حياة النَّبي والخلفاء الرَّاشدين أنفسهم؟! بل إن أخبار الكوفة تنقل أن الحانات كانت موجودة حتى بعد أن أصبحت إمارة، ثم عاصمة للخلافة في زمن

علي بن أبي طالب، لأن هناك مَن ضمن الإسلام حياتهم وحريتهم الدِّينية، وتاريخ الكوفة والنَّجف، وهي غدت مدينة دينية هو تاريخ الكنائس والأديرة. ولولا مخافة انحراف مشاهداتنا بأبو ظبي إلى موضوع آخر لتبسطنا في تلك الأخبار والرِّوايات.

إن شخصاً لم يمتلك التَّصالح بين الدُّنيا والدِّين لن يتمكن مِن البناء وتحويل الصَّحراء إلى حاضرة مدنية؛ يُضرب بها المثل بين دول العالم، وتَمك إليها الشُّعوب مكاً، للعمل وللسِّياحة والرَّفاه. ترى الانفتاح لدى الظِّبيانيين، والإماراتيين بشكل عام مع اختلاف الدرجة في ما بين الإمارات، فهم يواظبون على الصُّوم والصَّلاة، منه عبادة ومنه حفاظاً على التَّقاليد، وليس أكثر مِن المساجد بأبو ظبي، واختلاط الأَديان والمذاهب على أرضها. تلك الثَّقافة الجامعة بين الدِّين والدُّنيا، أو لنقل بين العقل والدِّين، هي الكفيلة بالتَّمدن وحماية الدِّين في الوقت نفسه.

أعلم علم اليقين، مثلما تقدمت الإشارة، أنه مِن خلال قراءة التَّاريخ، والبحث فيه، أن المدينة المنورة في الحقبة النَّبوية لم تكن خالية مِن الشَّراب أو آلة عزف، وإلا كيف تسنى معاقبة سكران برميه بالثِّياب، لا بالجلد، مِن قِبل النَّبي نفسه؟! وهذا هو كتاب القرآن خالٍ مِن عقوبة على عازف عود أو شارب خمر، ومِن أين أتت مكة بالمغَنين والمغنيات في تاريخها الإسلامي؟ ألم يُصلِّ رهبان نجران في المسجد النَّبوي وبحضرة النَّبي نفسه، بصلبانهم وأرديتهم الكهنوتية؟!

ليست الثَّقافة المنهولة مِن القراءة والدِّراسة، كافية للرُّقي، مع أنها مهمة كأساس في قيادة النُّهوض والتَّمدن، إنما هناك ما يأتي بالفطنة والفِطرة والإخلاص. كان هذا الرَّجل ممَن علمته الحياة، وفطرته الإنسانية وجعلته يتفوق بتسامحه، وهو حاكم لإمارة ورئيس لدولة، ولولا تلك الفطنة لتغلب الإسلام السِّياسي على أبو ظبي، ووقف كلَّ تمدن وأحبط الخروج مِن الكثبان الرَّملية، ولحال دون استقدام الخبراء والعلماء والعاملين، فالمعاملة ستكون على أساس التَّدين، والانتماء إلى الإخوان المسلمين.

لقد حصل أن أحد وزراء التَّعليم، بعد الدِّراسة بالقاهرة، أن كُسب مِن قبل الإخوان، مثلما يفعلون ويبشرون لفتح فروع بالبلدان، وكيف تفوتهم دولة الإمارات، فإضافة إلى المال الشَّعب خارج تواً مِن الصَّحاري، بمعنى أن الأرض ممهدة لعملهم السِّياسي، لكن سرعة القرار في إنقاذ التَّعليم مِن هذه القوى كان أسرع مِن تمكنهم في الأرض.

هناك فرق كبير بين مصالحة الدِّين والعقل، أو الدُّنيا، مثلما أرادها ومارسها الشَّيخ زايد، وطريقة أولئك في فرض التَّدين، وبهذا لم تسمح تلك المصالحة ظهور أشخاص بثقل المصري يوسف القرضاوي، يتسلم أربعة رواتب مع إمبراطورية مالية تحت يده، أو فقيه يُصطلح عليه بإمام الدَّولة أو مفتيها، لأن تكريس هذا المنصب سيكون عائقاً للتمدن، بل يُعيق ذلك التَّساير بين التَّعقل والتَّدين.

لذا فالأمور الفقهية تجري عبر لجنة فقهية تجيب عن الاستفتاءات عبر المراسلة الإلكترونية أو اللقاء المباشر باللَّجنة الفقهية، لا يُشخص بينها شخص بعينه رئيساً أو مفتياً، إنما تضم فقهاء مهمتهم الإجابة عن الاستفتاءات التي تردهم مِن الجمهور، فليس هناك شيخ الإسلام مثلما كان الحال في الدَّولة العثمانية أو الصَّفوية، وأبو ظبي والإمارات كافة خالية مِن مؤسسة مثل مؤسسة الأزهر بمصر أو فاس بالمغرب أو الزَّيتونة بتونس، أو مفتي المملكة مثلما هو الحال بالمملكة العربية السّعودية، أو المرجعية الدِّينية بالنَّجف مِن العِراق، أو دار الإفتاء ببغداد.

بمعنى أن التَّاريخ لم يثقل الإمارات بوجود مثل تلك المؤسسات، أو أسرة تتوارث قيادة الشُّؤون الدِّينية، إنما الأوقاف وتسيير الأُمور بأبو الظبي جزء مِن الدَّولة، فلا صلاة جمعة مركزية ولا إمام جمعة معَيّناً، بل تُقام صلاة الجمعة في المساجد عامة، بعد الاطِّلاع على الخطب التي تُلقى في تلك المناسبة، فهناك مَن استغل تلك الشُّعيرة وراح يوجه المصلين والجمهور إلى ما يريد ويفكر به مِن تشدد وتسييس المناسبة. فإذا تُرك الحبل على الغارب لهذه القوى فما أخصب وأسهل تسييس الدِّين مِن على منابر المساجد.

يبدو أن أبو ظبي مصممة على السَّير في هذه الطَّريق، فشهر رمضان لا يمر مروراً عابراً إنما تعبر عنه الدَّولة وتمارسه بأفصح وأبهج ما يكون، مِن دون خطب رنانة وتحشيد ديني، ولا

دين في السِّياسة، فيبقى رمضان ظاهرة دينية اجتماعية يعيشها الإماراتي بالتفاصيل الدَّقيقة، مِن الصِّيام إلى صلاة التَّراويح، ولا يخلو فندق مِن سِفرة إفطار وسحور.

مِن حظ أبو ظبي أن عاش لها مؤسسها نحو أربعة عقود، حاكماً لها، فواضع حجرة التَّمدن الأُولى أكثر حرصاً ودراية على صعود البناء في الأفق، ذلك ما خسره العراق. تجدني أقابل دائماً بين رمال أبو ظبي ودبي وأطيان البصرة، فالخسارة عندنا حلت بموت المؤسس فيصل الأول (1933)، فملك العِراق لم يعش ملكاً سوى اثني عشر عاماً، لذا تصدعت التَّجربة، وبدأت الانكسارات. فأربعة عقود، أو بالأصح ثمانية وثلاثون عاماً (1966-2004) مِن وجود الشَّيخ زايد، وهو ينهض بحلمه في دولة متمدنة له ولجيرانه، خلقت نظاماً وعرفاً وتوقاً في النُّفوس إلى التَّقدم والحضارة.

بعد زيارة الإمارات لأكثر مِن مرة كتبت تحت عنوان في مجلة «الأسبوعية» العِراقية (تموز/يوليو 2011): كلما ضمنا مجلس بأرض الإمارات: أبو ظبي أو دبي، مع أصدقاء ومعارف عراقيين، مِن أهل الاختصاص، تحضر المقابلة بين جفوة رمال ذلك المكان وخصوبة أطياننا، وما بين تفوقه في البناء والنِّظام وعشوائية حياتنا، إلى درجة صارت الإمارات قبلةً لطالبي المعاش والسِّياحة، مع قيظها الشَّديد، وخلوها مِن مشاهد الطَّبيعة التي بأوروبا ولبنان ومرابع العِراق، وقديماً أهوار جنوبه. لا تمتلك أبو ظبي سوى البحر المالح وكثبان الرَّمل، تلك هي القاعدة التي تأسست عليها.

لكي تبان الصُّورة أكثر، بما لدينا مِن نعمة الطِّين، وما نشكو الآن مِن مؤلمات، وما بالإمارات مِن جفوة الرَّمل، وما بها مِن مسرات لأهلها والمقيمين، لا بد مِن المقابلة بين الرَّمل والطِّين؛ أرملوا يعني نفذ زادهم، وأَرملة المحتاجة أو المسكينة، والرِّجال المحتاجون الضُّعفاء، وأخيراً: التَّرميل يعني التَّزييف (الفيروزآبادي، القاموس المحيط). أما الطِّين: طانَ الرَّجل: إذا حسن عمله، وطان فلان كتابه: ختمه بالطِّين، والطِّينة الخلقة والجبَلَّة، يُقال فلان مِن الطِّينة الأولى (الجوهري، الصَّحاح). صحيح أن الرَّملَ يستخدم اليوم في البناء بعد مزجه بمواد أُخر، لكنه ليس كنِّعمة الطِّين يُقام منه البناء بذاته، ومنه المعاش. فإذا قيل لفلان أطيان يعني أنه ثري صاحب حقول وبساتين وقرى.

كلُّ تلك المقارنات تأتي على خاطر العراقي، الباحث عن استقرار أو عمل في تلك الدِّيار، هناك أحياء كاملة أُنشئت خلال عام أو عامين، ليس لأحياء أوروبا ألقها، ونظامها. لكلِّ طائفة مِن المنازل الفارهة بيت للسباحة والرِّياضة تجده مفتوحاً ليل نهار، والحرية مكفولة للجميع، مِن الذِّكور والإناث. مَن يريد الإلحاق بمؤذن المسجد فليلحق، ومَن يريد السِّباحة والاسترخاء له ذلك.

في ذلك المكان قلت للصَّديق الباحث عبدالله بن بجاد، وهو أحد ساكنيه: أتدري أن العِراق بكامله يمكن أن يكون مثل هذا الحي الجنائني (المنطقة الخضراء)، لو حسب ما بذل في الحروب وما هده الحصار مِن بُنية تحتية، وما أكلته أسراب الجِراد مِن

الفاسدين؟! ناهيك عن البصرة، فهي أم الطِّين والماء والنَّفط والأيدي المنتجة والأرواح الفارهة!

فلماذا أهلنا يترقبون المراكب كي يحشروا أنفسهم فيها حشراً، لتقلهم إلى الرِّمال، بعد أن ضاق عليهم الرِّزق في أرض الطِّين. كان آخر فن الفاسدين بالبصرة، مِن رافعي الدِّين لافتة في الحكم والتغطية على منكراتهم، أن مسجداً شُيد فوق أنابيب يمر عبرها البنزين والدِّيزل إلى المحطات، وتحت المحراب فتحوا في الأنابيب للشفط إلى تانكرات؟! هذا ما صرح به المختص بإدارة النَّزاهة!

صارت التَّجربة التي وضع حجرها الأساس الشَّيخ زايد آل نهيان، في الفطنة والحكمة والإخلاص، مثار الجدل والإعجاب في الوقت نفسه، ومحاولة الاقتفاء أو الاقتداء بها، فالحروب والحزازات انطمرت، واستحالت إلى بناء وتكافل بين الإمارات السَّبع. أتذكر جيداً في الأزمة اليمنية التي قادت إلى حرب صيف 1994 الشَّعواء، بعد الوحدة اليمنية المولودة عرجاء، صرّح أحد كبار المسؤولين الجنوبيين: لنأخذ بتجربة دولة الإمارات المتحدة، وهي الفيدرالية المحددة بدستور وتوثيقات تميز بدقة ما للاتحاد مِن حقوق وواجبات وما للإمارات، كلٌّ على حدة، مِن التزامات. كذلك عندما أخذت تعصف بالتَّجربة العراقية العواصف، عِقب العام 2003، صرح أحد كبار المسؤولين أيضاً، لنقتدي بتجربة الإمارات.

هنا لا أتحدث عن شخصية المؤسس بالشُّمول، فلم تسنح لي الفرصة لزيارة أبو ظبي إلا بعد وفاته بثلاث سنوات، أي عام 2007، إنما كغيري أدهشته التَّجربة، وأبهره تصالح العقل والثَّروة بعد تصالح مع الدِّين، ويظل السُّؤال كيف لرَجلٍ لم يدرس في مدرسة نظامية، ونشأ على ما في بيئته الصَّحراوية مِن ثقافة لا تسمح بتجاوز ركوب النَّاقة والاضطجاع على الرِّمال والرَّاحة تحت ظل نخلة تروى بالفلج، تمكن مِن إدارة نهضة مدنية قل نظيرها في محيطه الإقليمي؟! أجده في هذا الإنجاز أحد القادة الأفذاذ، وإذا كان هناك مَن يؤرخ لرجال النَّهضة فهو أحدهم.

سألت أحد الأصدقاء الخُلصاء مِن الظَّبيانيين المثقفين، وأنا نويت كتابة هذه الخواطر ولا بد للمؤسس منها حصة، وإلا لا تكون صادقة، قائلاً: أنتم تتحدثون عن الشَّيخ زايد بهالة أحسبها في العديد مِن الأحيان مبالغة، فهل تراه خالياً مِن الخطأ أو النَّقص؟ ألم تحسبوا عليه موقفاً ما ليس بصالحكم كظبيانيين أو إماراتيين؟! كان سؤالي هذا مقصوداً، كي أكتب براحة نفس لا على قلق، وقدمته إلى شخص يثق بي، ولا يكتم عني ما يخشاه.

أجابني وبصريح العبارة قائلاً: نحن لا نؤمن بعصمة الأشخاص وكمالهم، فتلك لله لا لغيره، مهما كان مركزهم أو فعلهم، وربما كان للشَّيخ زايد ما ينقصه، ولستُ أتعامل بقول الشَّاعر: وعين الرِّضا عن كلِّ عيب... إنما ما قدمه الشَّيخ زايد وشيده وبذله مِن أجلنا، ورفعنا كلَّ هذه الرِّفعة، نحن الظَّبيانيين والإماراتيين،

يمنعنا إلى درجة الإحراج في تلقط المعايب والنَّواقص إن وجدت، فهو غدا رمزاً لبلادنا، ولا أزيد على ما أقول.

بالفعل كان حزن الإماراتيين كافة عليه صادقاً، لم تخرجهم إلى تشييعه منظمات حزبية ولا نقابات ولا شرطة، فهو بالنِّسبة إليهم بمثابة الأب ومؤسس لبلاد لولاه قد لا تكون. وقفت أمام قبره على طرف مِن مسجده الكبير، وظننت أنه مرموس تحت إحدى القباب الثَّلاث البيض، التي تعلو مقبرته، لكن القبر أُفرد خارجها مكشوفاً، ودفتر تسجل فيه الزِّيارات، وقرآن يُتلى على مدار النَّهار.

الفصل الثَّالث

الأفلاج

سواقٍ تحت الأرض

«سقاية وتنظيم الماء وتوزيعه
يجري ليل نهار، فلو اعتقدنا
بوجود الجن لخربت الأفلاج
بالكامل ومات النَّخل»

(رامس الظَّاهري)

لكثر ما سمعت بأفلاج العين وبساتين نخيلها، وإنها كانت مصيفاً لأهل أبو ظبي، وغيرهم مِن المناطق المعدومة الماء العذب والظِّل؛ سعيت إلى زيارتها، وسألت عن ذلك، فقيل لي ربما لا ترى شيئاً إذا لم يكن معك شخص يعرف المكان، وطبيعة الأفلاج، وكذلك الآثار، والوقت الآن وقت رمضان (آب/أغسطس 2011)، يكون النَّهار عادة خاملاً، أما الليل فلا سبيل إلى الأفلاج، ولا الآثار، لكن مع التَّرتيب ستكون الزِّيارة مفيدة.

كنت قد تعرفت إلى عِراقيين يقيمون بالعين، خلال معرض الكتاب بأبو ظبي، وعرضوا عليَّ حينها زيارة المكان، وهم يعيشون هناك منذ فترات طويلة، ويعملون في الحقل الجامعي، إلا أنني فقدت الصِّلة معهم، لذا صرفت النَّظر عن الزِّيارة.

تعرفت في ما بعد بالرجل الطيب، الذي يُخجلك بأدبه الجم، الدُّكتور عبدالله الخنبشي، رئيس جامعة الإمارات، وموقعها بالعين. فقال: إذا كنت تنوي زيارة العين أعطني خبراً قبل يوم لأرتب لك الزِّيارة، فكان ذلك، وهيأ لي الرَّجل ما لا أتوقعه، مِن أدلاء كرماء ومصور ماهر في حرفته.

ظل فاضل العامري، مدير العلاقات العامة في جامعة الإمارات، على اتصال بيَّ. وهناك أول ما تُسأل عن واسطة النَّقل، فهي جزء مِن الضِّيافة مهما كان مستواها. قلت: معي سيارة توصلني إلى العين، وبودي رؤية الأَفلاج والأماكن الأثرية. فقال: سأكون في استقبالك، وهيأتُ لك شخصاً عارفاً بالأفلاج وتاريخها وتصريف المياه وتوزيعها حق المعرفة، وحتى أسماء مُلاك بساتينها، وأنواع النَّخيل، وكذلك رتبتُ الأمر مع مؤسسة الآثار.

قد لا تتجاوز المسافة ما بين العين وأبو ظبي مائة وعشرين كليومتراً، وهي المدينة الرَّئيسة في المنطقة الشَّرقية، وواليها منذ ثلاثين عاماً هو الشَّيخ طحنون بن محمد، وهو أخو الشَّيخ مبارك آل نهيان، أول وزير داخلية لدولة الإمارات، وعم الشَّيخ نهيان بن مبارك، هذا ما كان يقصه عليَّ الهندي فازها محمد مصطفى،

وهو يسوق سيارته بسرعة مِن أبو ظبي منطلقاً إلى العين، فخمسة وعشرون عاماً مِن العيش بأبو ظبي تكفي فازها معرفة الكثير عن المكان ورجاله.

وصل فازها مِن منطقة (كيرلا) الهندية الجميلة، إلى أبو ظبي، عن طريق سماسرة عمالة، مقابل مبلغ مِن المال، لم يحصل على عمل في البداية، فأخذ يبيع الصُّحف في الشَّوارع، أو يطوف بها على البيوت كبائع متجول، ويحشر نفسه مع العشرات مِن مواطنيه الهنود في غرفة للمنام ليلاً، ثم حصل بواسطة أحد الهنود على فرصة الخدمة في الجيش الإماراتي، وهناك تعلم السِّياقة وبرع فيها، بحسب ما يفخر بنفسه وهو يحدثني، فاختير بعدها للعمل سائقاً براتب ستة آلاف درهم شهرياً، لا يصرف فازها منها شيئاً، فمنامه المشترك في غرفة مع زملائه وطعامه المجاني يجعله يوفر كل المبلغ، ويحوله إلى أهله بكيرلا. ففازها متزوج، له ولد وبنت: شيرزاد وهناء شيرين.

قال: نحن مِن الأنصار! قلت: كيف مِن الأنصار وأنت هندي الأصل، هل أنت مِن أُصول عربية؟! قال: لا، إنما نحن المسلمين هناك نسمي أنفسنا الأنصار. كانت معه نسخة مِن القرآن الكريم مترجم إلى الهندية (لغة مليبارية). قال: أنا أعرف أجود القرآن! لكنه ظهر يقصد بالتَّجويد حفظه عن ظهر القلب وقراءته، ولم يحفظ سوى السُّور القصار، التي جوّدها لي. سألته عن أبو ظبي عندما دخلها قبل خمسة وعشرين عاماً، قال: قسم مِن الطَّريق إلى

دبي كانت تُراباً، ولا وجود للأشجار والنَّخيل في الطُّرقات. تركته مشغولاً بكيفية جلب أخيه للعمل هنا، الذي يعمل سائقاً بالمملكة العربية السُّعودية.

أشارت الأسماء على الطَّريق إلى الأشجار والصَّحراء: الغويفات، وشجرة الغويف برية منفوشة الأغصان، سويحان، رماح، غابات الحفار، قرية بوذيب، مدخل المزارع، غابات بو رمرامة، قصر السَّراب، وما فاتني تسجيله. كانت الطَّريق مرصوفةً بخطوط مِن النَّخيل على الجانب الأيسر وأنت تتجه مِن أبو ظبي إلى العين. وترى على الطرق ساحات خضراء مزروعة بالثَّيل، ومزارع نخيل وجسر رصيفه مدرج مزروع بأناقة وإتقان هندسي. بطبيعة الحال كم يبدو وجود هذا الاخضرار شاقاً للزَّارعين، وسط القفراء وشحة الماء والقيظ اللاهب، وكم يبدو جميلاً وأنت تشاهده مِن خلال نافذة السَّيارة المبردة، في شهر آب (أغسطس) وهو عَزُّ الصيف، مِن دون تلمس الزُّجاج السَّاخن.

اتصل فاضل العامري: إلى أين وصلت؟ قلت: على باب العين. قال: إذاً اعبر دوار التَّوام، الذي فيه نصب الخيول، واستمر، ثم سترى بناية جامعة الإمارات، سننتظرك هناك عند البوابة. قيل التوام هو أحد أسماء مدينة العين التَّاريخية، وكانت تشترك قديماً باسم البريمي، والأخيرة الآن جزء مِن سلطنة عُمان، بعد خلافات ومحادثات عصيبة. كان فاضل منتظراً مع جاسم الهرمودي، مدير علاقات المجتمع في دائرته، والمصور السُّوري عمر البحرة.

كان جاسم بديناً مع سرعة في الحركة ووجه طفولي منتفخ بالسمنة المحببة، مع خفة في الرُّوح، والبحرة على الرَّغم مِن شدة الحر كان يرتدي قميصاً وبنطالاً أسودين، ورأسه مكشوف مِن الشَّعر والقبعة معاً، فحسبتُ أنه سيصاب بضربة شمس لطول ما مكثنا تحت أشعتها في عزِّ الظهيرة.

حاول خبير الأفلاج رامس الظَّاهري، ودرجته الوظيفية مساعد مراقب، عدم الحضور، على الرَّغم مِن التَّنسيق بينه وبين فاضل العامري، والأخير شاب قوي البُنية، رشيق فارع الطُّول، مع سحنة مملوحة، جدي النَّظرات، وقد أصر على حضور رامس بأي وسيلة، ولما تمنع قال له: لدينا ضيف مِن أصحاب الشَّيخ نهيان، وكان قد رآني في مجلس الشَّيخ في مرة مِن المرات، لكن مِن دون تعارف مباشر معه، وهي محاولة منه لإقناع رامس بالحضور، على الرغم مِن إحراجي لهذا التعريف لأني لم أطلب ذلك مِن الشَّيخ نفسه. أخيراً حضر رامس وطاف بنا، وأجرى تجربة لتحويل الماء بحسب نظام السَّقي المحسوب رسمياً.

كان رامس في عمر يتجه إلى الشَّيخوخة، ويُقدم نفسه هو العارف في هذه الأفلاج والبساتين أكثر مِن غيره؛ لم يبق في فمه سوى سن واحد بائن، لكنه ما زال نشيطاً، لم يكتف بتوجيه العامل الباكستاني في تحويل مجرى الفلج، بل رفع دشداشته وشدها بحزامه وخاض وسط ماء الفلج الجاري، وحوَّل الماء سريعاً.

الأفلاج ممرات مائية، تجري تحت الأرض، شُيدت قديماً كأنفاق يمر عبرها الماء مِن منابعه الجبلية، لكنه ليس بالكميات التي تكوِّن الأنهار، لذا يُحافظ على كمية الماء بالجريان عبر مجارٍ ضيقة، وتتناوب على سقي بساتين النَّخيل. هناك ما يُطلق عليه بالفلج الأُم، حيث يجتمع الماء من مجريين يلتقيان فيه. وقفت على فلجين التقيا في ما يُسمى بالثَّقَبة، ويعني التَّقاطع. نزلت فيه وهو بارد صاف. قال رامس: كان هنا يغسل أهل العين الثِّياب، ويتبردون من حر الصَّيف، لكن بعد ذلك مُنعت مثل تلك الأمور فيه، وظل الماء مِن حق النَّخيل والطُّيور فقط.

قرأت في كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي (ت 626 هـ)، كيف كان أهل الصحارى يكيفون البيئة ويتفننِون في حفظ ماء السَّماء الهاطل في المواسم، ومثل ذلك أن أهل الأَحساء كانوا يستنبطون الماء، بعد حفظه تحت الرَّمل، فعندما يهطل المطر على الرَّمل يمتصه الأخير ويترشح عبره إلى الأَسفل، فيتجمع على صخور صلدة، ويمنع الرَّمل عنه حرارة الشَّمس، لهذا لا يجف، وعند اشتداد الحرارة يُزاح الرَّمل وينبع مِن تحته الماء البارد، ولهذا السَّبب سميت المنطقة المعروفة، في شرق المملكة العربية السُّعودية، بالأَحساء نسبة إلى احتساء الماء. أما شق الأفلاج تحت الأرض فهي فن آخر مع الشَّقاء فيه، كي يروض جوف الأرض لانحدار الماء فيه من الأعالي إلى الأسافل.

مررنا نتوكأ بسعف النَّخيل على حافة الفلج، وعثوق التَّمر

مدلاة تلمع كجماهر مِن الجواهر، فها هو وقت الرَّطب قد حان، ومِن دون شعور أخذتُ تمرةً ورفعتها بيدي لأضعها في فمي، فلاحظت رامس يطالعني بنصف عين كأنه يلومني، فالوقت كان صياماً، فرميتها مِن يدي متظاهراً بشمها فقط. كذلك هوت نفسي لرشفة مِن الماء العذب البارد الجلاب، واكتفيت بغسل يدي ووجهي للسَّبب نفسه.

أشار فاضل إلى بستان نخيل جده هنا، وحكى لي قصصاً كثيرةً، كان يرويها عن جده وأبيه، وكيف أن هذا المكان يُعد مصيفاً لأَهل العين، وأهل أبو ظبي عموماً. كانوا يأتون وينزلون بين النَّخيل لقضاء ردح مِن أشهر الصَّيف الحارقة، ورامس يؤيده في كل ما يرويه، ويذكِّره بعلاقته بجده وأبيه بين الحين والآخر، وكان يشير إلى أسماء أصحاب البساتين، مِن رجال ونساء، وبساتين الشُّيوخ أيضاً. سقطت تمرة فرفعها فاضل بالعود، لكن رمضان منعه مِن تناولها، فوضعها على حافة المجرى طعاماً للطَّير.

رأيت وسط منطقة الأَفلاج، بعد الدُّخول عبر السَّيارات ثم السَّير على الأقدام، جهازاً أو آلةً كبيرة منصوبة تحت ظلال النَّخيل أثارت عجبي، مِن ناحية هيئتها ولونها البرتقالي، فكأنها إنسان آلي، أو مركبة فضائية، مربوطة فيها شبكة عَلقت فيها حشرات، فسألت عنها، قالوا: إنها المصيدة الضوئية، تعمل على الضَّوء، لحماية النَّخيل مِن هذه الحشرة، وهي سوداء شبيهة بالخنفساء، ولعلَّها هي بعينها.

تجد بين النَّخيل نخلات طوال، يسمون الواحدة منها بـ«العوانة»، قالوا: هناك عقوبة على مَن يقطع عوانة، وهي حبس ثلاثة شهور وغرامة. عقب أحدهم: أصدر ذلك ولي العهد محمد بن زايد آل نهيان، فالأصل في البساتين هي العوانة أم الفسائل. كانوا وما زالوا يتسلقون العوانات، أو بقية النَّخيل، بما يسمى لديهم بالحبول، ونسميه بالعراق «الفرود» بجنوب العِراق، أو «التبلية» بديالى وما حولها، ورأيت أحدها مطروحاً عند جذوع النَّخيل، وهو التبلية أو الفرود الذي عندنا نفسه تماماً. أما النَّخلة الصغيرة أو القصيرة فيسمونها «الصِّرمة»، وبساتين العين خليط مِن عوانات وصرمات لا على انتظام.

وقفت السَّيارات عند ساحة واسعة، وسط بساتين النَّخيل، قالوا: هنا يُجمع التَّمر عند القصاص، بحسب ما نسميه بالعِراق، أو الجني، وجمعه في مكان يسمونه بالنَّد، أي البيدر، وأشاروا إلى ند محيمد في ساحة قريبة. وعند حوض الماء، الذي تجمع مِن لقاء فلجين شُيد مسجد معاذ بن جبل، وفي واجهته المقابلة لحوض الماء توجد مزملة، أو حنفية، للماء البارد تعمل على الكهرباء.

سمعت بمفردة «باق»، عندما أشار فاضل العامري إلى حزمة من النَّخيل. قلت: أظنها «باك» عندنا بالعِراق، وهي لفظة فارسية النَّجار، وعُرفت المدائن أو طيسفون، حيث ينتصب طاق كسرى، بسلمان باك، أي حديقة أو بستان الصَّحابي سلمان الفارسي (ت

35 هـ)، والي المدائن في زمن عمر بن الخطاب (اغتيل 23 هـ)، وتوفي ودفن فيها، وضريحه ما زال يُزار هناك.

ليس سوى النَّخيل شجرٌ في الأفلاج، إلا ما ندر، قد تجد شجرة «لومي»، بحسب ما سمعتها مِن لسان رامس، أي الليمون الحامض، ونسميه بالعراق النُّومي، وما أشهر النُّومي بصرة، الصَّغير الحجم، وهو يأتي مِن عُمان عبر البحر، ويُنتظر حتى يجف في الشَّجرة، ويتحول لونه إلى السَّواد. شجرة أخرى عريضة الأوراق تملأ الفضاء بين نُخيلات، اسمها: أنبو، أو ألبو، وقالوا: تستخدم أوراقها في مكافحة السُّعال.

هناك نظام ثابت في السَّقي، سَنه الشَّيخ زايد آل نهيان عندما كان حاكماً على العين (1948 –1966)، حلاً للمعارك بين المزارعين بسبب الماء، يوم كانت حياة العديد منهم مرتبطة بما تجنيه النَّخلة من تمر، وأكثر الشَّكاوى بالعين آنذاك كانت على ماء الأفلاج. كلُّ بستان، أو باق، تُسقى في الشَّهر مرتين، أي كلُّ أسبوعين مرة، ويترك الماء لساعتين أو أكثر موجهاً عليها، ثم يُحجز ليتحول إلى مجرى آخر، ويتم حجز الماء بوضع الأحجار وقطع مِن كَوانى (أكياس الخيش)، والبيدار هناك يقوم بهذه المهمة، وهو العامل، مع حراثته للأرض، أو ما يُسمى هناك بالرَّضيم، حول أصل النَّخلة. وترى الطّيور تتبع مجرى الماء مفردةً في كلِّ تحويلة، وهي مرتوية طول النَّهار.

كان ذلك جواباً كافياً على استفساري: لماذا لا تستغل المساحات التُّرابية بين النَّخيل لزراعة الخضروات وأشجار الفاكهة، التي تنمو هناك، مع أن التُّربة تبدو خصبة خالية مِن الملوحة؟! إنه الماء وشحته، فالخضار لا تصبر على البقاء لأسبوعين بلا ماء، وعلى الخصوص في أول نبعها، ولا أشجار الفاكهة تستغني أيضاً. إلا النَّخلة فتمد جذورها في عمق الأرض وتمتص الرُّطوبة المتبقية، وقادرة على مقاومة الحرارة، بل تحتاج إليها في نضج ثمرتها، فُسميت تلك الأيام الحارة، بجنوب العِراق، بالطَّباخات، لأن ما نسميه (الخَّلال) ينضج على حرارتها.

كان مشهد الماء الجاري في ما يشبه الأنابيب المفتوحة البطون، زاهياً لأهل العين تحت ظلال سعف النَّخيل، إلى درجة أن المنطقة تتحول في الأيام الخوالي إلى مصيف. مع ذلك فالمشهد لا يمثل شيئاً لدى الغارف مِن دجلة والفرات، وبساتينِ نخيل البصرة، تلك التي قال فيها هارون الرَّشيد: «نظرنا فإذا كلُّ ذهبٍ وفضة على الأرض لا يبلغان ثمن نخل البصرة» (السِّجستاني، كتابُ النَّخل). لكنه في الوقت نفسه ينظر بإعجاب ودهشة مِن هذا الإنسان، الذي حفر أنابيب طينية، كي يستقدم قطرات الماء مِن الأعالي ليزرع في هذه المساحة واحة مِن النَّخيل، يقطع بها رتابة الصَّحراء، ويُلين جلفها، ويقلل مِن قسوتها.

فبعد وصول الشَّيخ زايد والياً على العين العام 1948 حفر ما عُرف بفلج الصَّاروج، ولقسوة الحياة، وتخلف الآلات، استمر العمل

به فترة طويلة، وطوله لا يتعدى الكيلو متر ونصف الكيلو، وهو على عمق خمسة وستين قدماً، وعلى ما يبدو أنه إذا لم يكن بهذا العمق لا يسيل فيه الماء. هذا ما قرأته في كتاب الباحث العِراقي القاطن أبو ظبي الدكتور فاضل زكي الحنظل «معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات العربية المتحدة». أما الصَّاروج فهو مادة بناء تُحضر مِن الجص المخلوط بالطِّين وروث الحيوانات بعد حرقه، وهذا ما كانت تغطى به سقوف المنازل سابقاً.

سألت رامس الظَّاهري في ما إذا أُحيط المكان بظواهر روحية، وهو خبير الأفلاج بحسب ما قدمه لي فاضل العامري، ومِن الجيل السَّابق الثَّابت بالمكان، لم يُغادر إلى مدينة أُخرى للعمل أو للدراسة، ولديه رغبة في استخدام الجديد مِن الآلات، فقيل لي هو أول مَن نزل مِن على ظهر الحمار، الذي يحمل أهل البساتين إلى بساتينهم، وامتطى الدَّراجة الهوائية في مشاويره داخل الأفلاج وخارجها، وحالياً بين الحين والآخر يرد على مكالمة مِن موبايله الخاص.

أجاب عن سؤالي: نعم، كنا نعتقد أن كلَّ نخلة يجلس عندها مَلك أو جني، والنَّاس يتداولون ذلك. ثم أردف قائلاً برأي علمي يعبّر عن واقع الحال: إن العمل في سقاية وتنظيم الماء وتوزيعه يجري ليل نهار، فلو اعتقدنا بوجود الجن لخربت الأفلاج بالكامل، ومات النَّخل، والجن لا يسقي الشَّجر ولا يجني الثَّمر. إنها ثقافة إنسانية لا تخص شعباً دون آخر، فالجن وعالم اللامرئيات يعم أهل

الوبر والحضر، فبالعراق كنا نعتقد أن الجلوس عند جذع النَّخلة لا يجوز، فهناك ملك أو جني يحرسها، لكن رفاه البيئة وسخاء الطَّبيعة غَلَّب العقول، وهاهو رامس الظَّاهري أخذ يفكر بواقعية.

لم تخل النَّظرة التَّاريخية لوجود الأفلاج، وعجائبيتها وسط الصَّحراء القاحلة، مِن نظرة رومانسية لها، حيث يجري الماء مِن تحت الأَرض، فوصفت بالشِّعر كثيراً. جاء في «معجم البلدان» لياقوت الفَلَج: الماء الجاري مِن العين، فقال الشَّاعر: «تذكر أعيناً رواءَ فلجاً». وقيل الفلج الأكبر وجد في أرض اليمامة، مِن بلاد نجد، ويُعرف بفلج الأفلاج. فنُظم فيه:

سقى فلجَ الأفلاج مِن كلِّ همةٍ

ذِهــابٌ تــرَويه دِماثاً وقُــوَّدا

وقال أمرؤ القيس الكندي في الأفلاج:

بِعيــنيَّ ظُعــن الحــيِّ لما تحملوا

على جانب الأَفلاج مِن بطن تيمرا

تشبه أفلاج العين إلى حدٍّ كبير صهاريج عدن، حيث أقصى الجنوب العربي، وهي الكائنة على جهة مِن مركز المدينة، فتجد هناك السَّواقيَ مسقفة أو مقببة، تأخذ الماء مِن صهاريج عدة، لكنها تحوي ما تجود به السَّماء مِن المطر، وليس نابعاً مِن عين ماء، فالأرض هناك خرساء صماء، محاطة بصخور جبال داكنة،

حيث جبل شمسان البركاني، تتخللها آبار كانت محفورة داخل المنازل، وكنت أسكن في سفحها، ولا ترى عيني سواها.

صهاريج عدن مِن بقايا أنظمة الماء أو الرَّي القديمة، وهي مكان سياحي كنا نذهب إليه للتنزه، ففيها ما يشبه المقهى تُباع فيه المشروبات الباردة، ومنها البيرة المصنوعة محلياً واسمها «صيرة» على اسم ساحل مدينة كريتر مركز مدينة عدن. كانت صهاريجَ بلا ماء، ولا يجري فيها إلا بعد مطر غزير، وهذا لا يأتي إلا في شهر شباط (فبراير)ر أو آذار (مارس)، وليست لها أهمية قائمة في سقاية المدينة آنذاك، وحالياً أيضاً.

تحوّلت منطقة الأفلاج إلى محمية طبيعية، يزورها تلاميذ المدارس ينظرون في ما شقى لأجله الأَجداد، وليقدروا قيمة النَّخلة، وهي تملأ طرقات وشوارع وباحات مدنهم. لم ينسوا ترك العشش، أو المنزل القديم بهيئته قائماً في مدخل الواحة، على أن المكان بأفلاجه ونخيله غدا مَعلَماً سياحياً ومتحفاً حراً، إلى جانبه يقع مسجد صغير اسمه «الرميثة»، مع ملاحظة وجود اسم رمثاء بين النِّساء.

للسبب نفسه سميت فلوجة العِراق بهذا الاسم، لكن الفرق هناك هو انفلاج نهر عظيم، كانت غزيرة الماء، يجري فراتاً على مدى الآلاف مِن السِّنين، ويتوقع له الآن النُّضوب، أما بالعين فهو انفلاج الماء بسواقٍ ضيقة تحت الرِّمال. يغلب على الظَّن أن

الصِّيانة وقانون توزيع الماء سيبقي أفلاج واحة العين حيَّةً، بينما الاستحواذ والسِّياسات غير القابلة للتَّطوير، وغير المحصنة بالخبرة والحرص الوطني، سيؤدي إلى ضياع انفلاج الفرات، ويبقى اسمها مثل اسم الفلج الميت، الذي استدل المنقبون عليه في صحراء البريمي وحافات منطقة العين، كفلج بنت سعود.

الفصل الرَّابع

قـلاعٌ وحصون

«أربع طابوقات وضعها
الشَّيخ زايد، حدد فيها مساحة
وبناء المُتحف، الذي تراه»

(عبدالرَّحمن النَّعيمي)

قبل التَّوجه إلى مدينة العين سألني أبو خلف محمد خلف المزروعي، مدير هيأة أبو ظبي للثَّقافة والتُّراث، عندما أخبرته بنيتي زيارة العين وأفلاجها: متى ستذهب؟ قلت: صباح الغد (الخميس 17 آب/أغسطس 2011)! هل تعرف أحداً هناك، أو نسّقت مع أحد؟ قلت: تفضل رئيس جامعة الإمارات الدُّكتور عبدالله الخنبشي بتقديم المساعدة في التَّجول داخل الأفلاج، أو واحة العين. قال: أفضل لك زيارة القلاع والمتاحف، وأهداني كتابين للآثاري وليد ياسين التكريتي، مُترجمان إلى الإنكليزية: عن الأفلاج والآثار.

بعد الانتهاء مِن جولة الأفلاج قال فاضل العامري: أترك معك جاسم الهرمودي والمصور عمر البحرة، وأعتذر لوجود التزام معي. كنت في تلك اللحظات أشعر بالغثيان، فخشيت أن أكون قد أُصبت بضربة شمس، لكني تماسكت طمعاً في الجولة، التي قد لا تتهيأ لي مرة أخرى.

كنت بين الحين والآخر ألتفت إلى المصور عمر البحرة، وأقول له: حرمناك مِن القيلولة في عزِّ ظهيرة رمضان، على عادة أهل العِراق والشَّام. فقد شعرت بتململه لشدة الحر داخل قاعة الجاهلي، إلى حد الاختناق، وهو يرد عليَّ بالنَّفي والاستعداد للمواصلة، وما زلت أعجب كيف لم يأخذ ضربة الشَّمس، وهو مكشوف الرَّأس، فالآخرون يضعون العقال والشماغ، وعبدالرَّحمن كان يعتمر الحمدانية أو السِّفرة، أي العمامة، أما أنا والدُّكتور وليد فكنا نعتمر الكاسكيتات، أو الشَّفقات مثلما نسميها.

رحّب بنا مدير إدارة البيئة التَّاريخية محمد عامر النِّيادي، أيّما ترحيب. سألني مِن أين تريد البداية؟! لحظات ويدخل رجل ملامحه لا تخفي عراقيته، أبيض البشرة نحيل القامة يميل إلى القصر، قدمه النَّيادي: الدكتور وليد ياسين، مدير قسم الآثار. فقلت: أنت وليد التِّكريتي! قال: نعم. فأردف النِّيادي أن هناك خبيراً عراقياً آخر، تركنا منذ فترة طويلة. قال وليد: إنه الآثاري ماجد محسن هدو، مِن أهَل النَّجف، وعملنا معاً هنا لفترة مِن الزَّمن.

اختار وليد لمصاحبتي عبدالرَّحمن النَّعيمي، وهو شاب مِن ولادات أواسط الثَّمانينيات، اختير مع زملائه الثَّلاث مِن طلبة الثَّانوية لدراسة الآثار بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو الآن يعمل مع الآثاري وليد في التَّنقيب، وأخذ يشرح لي، وهو يقود سيارته إلى حديقة آثار الهيلي، كيفية تحديد الأثر وطرق الحفر المختلفة، والعناية الفائقة به، كي يخرج سليماً.

قلت للنَّعيمي مِن أي النَّعميين أنت؟ قال: مِن العين. فالنَّعيمي عشيرة كبيرة، منهم وزير الخارجية السَّابق راشد عبدالله النَّعيمي، وكنت أقول لنَجله الصَّديق الدكتور علي بن راشد، الأكاديمي والكاتب في جريدة «الاتحاد»، هازلاً: أنتم مِن السَّادة، فضع على رأسك عِمامة سوداء، إذا كنت شيعياً، وخضراء إذا كنت سُنياً. فآل النَّعيمي لدينا هكذا، منهم بالموصل شمالاً ومنهم بالجنوب، فأصلكم مِن العراق! فكان يرد عليَّ قائلاً: اصفوا مع بعضكم واتركونا بحالنا، نحن نعيمي الإمارات وبس!

كان النَّعيمي يقود سيارته محاذاة شبك عالٍ منصوب على مسافة طويلة، وخلفه مباشرة ترى علم سلطنة عُمان، وأرقام مركباتها واضحة، وممرنا على منفذ حدودي، تقف أمامه السَّيارات للتفتيش. قال: هذا منفذ هيلي بين الإمارات وعُمان لعبور مواطني دول التَّعاون الخليجي، حيث منطقة البريمي التي اشتهرت بالخلافات الحدودية حولها بين عُمان وأبو ظبي، لكن حكمة الشَّيخ

زايد جعلت الخلاف يحل بالسَّلام، وإن كان فيه تنازل عن أرض، فلا عمران بلا صفاء وسلام مع الجيران.

ففي سنوات مضت أوشكت الحرب تقوم حول تلك المنطقة، ما يمكن ملاحظته أن أبو ظبي لم تكن دولة قائمة بذاتها، قبل الانسحاب البريطاني، تتمكن مِن المواجهة، لكن وجود بريطانيا، مِن دون تدخل بشأن تفاصيل إدارة المشيخة، ضمن لها عدم تمدد الدُّول المجاورة إلى أرضها، ولم تتمكن السَّلفية القادمة مِن نجد في العشرينيات، مِن جهة الغرب حيث منطقة السَّلع، التَّأثير فيها، وإلا فالصحراء كانت مفتوحة، والقوافل تجول بلا جوازات سفر أو قيود. أما حالياً فتعبر قوافل المركبات يومياً عبر البريمي في أقصى المنطقة الشَّرقية إلى مسقط، وعبر السَّلع في أقصى المنطقة الغربية إلى قطر والمملكة العربية السُّعودية، بالبطاقات المدنية.

نزل عبدالرَّحمن لفتح بوابة كبيرة كي تمر سيارته إلى داخل حديقة آثار هيلي، قال: إن الهدف مِن وجود الحديقة حول الآثار هو الجمع بين سياحة السُّكان والنَّظر في تاريخ أَرضهم، وتعميق الثَّقافة الأَثرية لديهم. فالأثر أصبح ذا قيمة عالمية، والعديد مِن البلدان اشتهرت بآثارها، وأتى بالعراق مثالاً. كان يتحدث عن آثار العِراق بشوق لرؤيتها، وتمني اللقاء بآثاريين عراقيين، وكان يعرفهم بالأسماء أكثر مني، وقد علمت أن هناك بعثة عِراقية عملت في السَّبعينيات مِن القرن الماضي بترميم الآثار بالعين والتَّنقيب أيضاً.

كان عبدالرَّحمن متألماً على ما حدث للمتحف العِراقي صبيحة التَّاسع مِن نيسان (أبريل) 2003، ووصفها بالكارثة. فربَّما كان يقابل أو يقارن، بين تلك الآثار وغزارتها وجهده في البحث عن قطعة فخار أو شاهد قبر، وما حصل مِن خراب في المتحف العِراقي، وما يجهد هو مِن إعمار وإعادة حضور لما طمرته الرِّمال.

وقفنا أمام قبر كبير، وسط الحديقة، وبدأ عبدالرَّحمن يشرح لي كيفية العثور عليه، وماذا يعني، وكيفية ترميمه ليكون بهذه الصُّورة. كنت مأخوذاً بحماسة هذا الشَّاب وأتمعن في اندفاعه أكثر مما كنت أتمعن في الآثار نفسها. في هذه اللحظات التحق بنا وليد التَّكريتي، معتذراً عن التَّأخر لشغل شغله، إلا أنه كان مكتفياً بدلالة عبدالرَّحمن وشرحه.

ما فهمته أن هذا الأثر يرتقي إلى الألفية الرَّابعة قبل الميلاد، وكان مدفناً جماعياً دائرياً، ترى عليه لوحات أو نقوش الخصب، تحوي رجلاً وامرأة متقابلين في لحظة وجدٍ أو عتاب، وأبرز ما عليه هو نقش الظَّبيين وامرأة ورجل يقفان بينهما. أخبرني الدَّليل النَّعيمي، بنشوة وزهو، أن بلدية العين جعلت هذا المجسم شعاراً لها.

اتُّخِذ قرار صارم، على المستوى الرَّسمي، أنه لا يُشيد بناء على أيٍ قطعة مِن الأرض بالعين، إلا بعد أخذ موافقة مديرية الآثار، أُخبرت بذلك ونحن نمرُّ على أرض مسورة تجري فيها

حفريات للتنقيب، وظهر أنها موعودة بوجود آثار عباسية أكثر مما اكتُشف حتى الآن: مسجد وبيتان تعود إلى تلك الفترة، وما زالت قيد الدِّراسة والتَّوثيق. قيل لي ذلك عندما طلبت مشاهدتها أو الدُّخول إلى المنطقة.

بمعنى أصبح للأثر حظوة وسلطة في الوقت نفسه، فكم مِن أراضٍ ذات موقع مميز تغدو بوجود الأثر لا تثمّن بثمن وخارج السُّوق، لا تباع ولا تُشرى. كان قد شُرع لتشييد مسجد على هذه البقعة، باسم حاكم إمارة أبو ظبي ورئيس دولة الإمارات الشَّيخ خليفة بن زايد، إلا أن وجود الآثار فيها منع مِن ذلك، فإذا صح أن الآثار قد منعت الشُّروع ببناء جامع للحاكم نفسه، فمعنى ذلك أن القرار يشمل الجميع.

هناك قلعة شاسعة الفناء، لم تبدل التَّرميمات لونها الأَصيل، ولا بهيكلها العُمراني، تُسمى قلعة الجاهلي، وقبل الدُّخول إليها: ظننت أنها مِن العصر الجاهلي، فالرِّمال متصلة! تبدو أنها أكبر القلاع التي ممرَّنا عليها، والبرج يقع داخلها. لكن ظهر أنها شُيدت بين عامي 1891 و1898، شيدها الشَّيخ زايد الأول، فلبعد منطقة العين عن ساحل البحر، وبالتَّالي عن الرُّطوبة الخانقة ووجود الظل ومياه الأفلاج، تُتخذ عادة مصيفاً للعائلة الحاكمة بأبو ظبي.

دخلنا إلى ساحة القلعة ووقفنا أمام برجها الدَّائري، ومعلومٍ أن الأَبراج كانت مهمتها مراقبة الغزاة مِن الجهات الأربع، ومكاناً

للدِّفاع. ركزت دليلة القلعة هدى المصعبي على شرح خطوات تشييد البناء خطوة خطوة، فلديها برنامج زيارات لا بد مِن إنجازه، شبهته بزيارات الأضرحة، وما في دفاتر زياراتها، التي لا بد من أن تُقرأ بكاملها، وإلا بطُل الثَّواب.

قرأت لي المصعبي ما مكتوب على واجهة قاعتها واحتُفظ به كأثر منقوش: «فتح الخير في باب العلا حلَّ.. فيه السَّعد العلياء المنيفة.. تهاني العزِّ قالت أرخوا.. دار جد شاد زايد بن خليفة». على ما يبدو أن البيت الأخير هو تاريخ بناء القلعة، وهي طريقة معروفة في حساب الجمل، وقد حاولت استخراج التَّاريخ، في عملية حسابية، وهي تحويل الحروف إلى أرقام، الذي مِن المفروض أن يبدأ بعد مفردة «أرخوا»، لكني لم استحصل الرَّقم الذي أشير به إلى بناء القلعة، بل يظهر لي أقدم مِن هذا التَّاريخ، وربما لم أجيد طريقة القراءة.

مِن المعلوم أن اللغات الشَّرقية، ومنها العربية والعبرية والسِّريانية، وحتى الغربية اللاتينية، ليست فيها رموز للأرقام، إنما كانت تُكتب بالحروف. هذا ما تبسطت فيه في كتابي «جدل التَّنزيل». ذكرني هذا كثيراً بما كَان أهل النَّجف عليه مِن البلاغة في التَّأريخ للمناسبات، الولادات أو الوفيات، في بيت شعر أو قول ما.

على أي حال، اتُخذت قلعة الجاهلي كقاعدة للجيش البريطاني منذ منتصف الخمسينيات مِن القرن الماضي؛

ثم اعتني بها كأثر تاريخي، وهي الآن مؤهلة لإقامة الحفلات الموسيقية والاستقبالات الرَّسمية فيها. دلفنا إلى قاعة المعرض الدَّائم داخل القلعة، وهو لصور الرَّحالة ألفريد ثيسجر، كان المكان يشبه السَّاونة، أو الحمام التُّركي، بحرارته، فالكهرباء كانت مقطوعة لضرورات الصِّيانة القائمة في البناء، والشَّهر كان آب (أغسطس)، وهو عزُّ الصَّيف.

وجدت في هذا المعرض نوعاً مِن الوفاء لمبارك بن لندن ثيسجر، الذي استقبل بأبو ظبي أكثر مِن مرة، وواحدة منها كُرم، وقيل لي، ولا أدري مدى صحة ذلك، وهو أن الشَّيخ زايد أكرمه بشراء بيت له ببلاده بريطانيا. وقد سمعت مِن الدُّكتور عدنان الباجه جي، وهو الذي عايش الشَّيخ زايد منذ العام 1969 وحتى وفاته في السَّنة 2004، كانت رغبة عند الشَّيخ أن يُترجم كتاب ثيسجر «الرِّمال العربية»، ويُدرّسه لتلاميذ المدارس، ليروا الماضي وصعوباته، ويسعوا إلى الحفاظ على ما هم فيه مِن نِعمة وخير عميم، ففي الكتاب شرحٌ وافٍ عن أحوال الصَّحراء وما فيها مِن عسر حال.

ما زالت تسمية القلعة بالجاهلي غير معروفة، فمَن يقول: إن هناك فلجاً كان يصل إلى القلعة، وهو مجهول فسميت بالجاهلي. أما ارتباطها بالعصر الجاهلي فبعيد جداً. تجد اسم الجاهلي مطلقاً على أماكن عدة مِن منطقة العين، مثل دوار الجاهلي وغيره. وعدا قلعة الجاهلي ترى بمدينة العين قلاع عدة كحصون وقصور،

شُيدت على النَّمط القديم، وما زالت أبراجها، بعد إعادة التَّأهيل قائمة، مثل: القلعة المربعة، والحصن الشَّرقي، وأبراج هيلي، وقلعة المريجب، وحصن أو برج الشَّيخ أحمد بن هلال الظَّاهري، وهو ممثل حاكم أبو ظبي على العين في زمن الشَّيخ زايد بن خليفة، والمعروف بزايد الأول (ت 1909).

سألت عبدالرَّحمن النَّعيمي، ونحن نتجه إلى المُتحف الوطني، كيف وردت فكرة الاهتمام بالآثار وتأسيس المُتحف، وهو يبدو بالعين أكبر متاحف الإمارات؟ قال ببساطة متناهية: أربع طابوقات وضعها الشَّيخ زايد، حدد فيها مساحة وبناء المُتحف، الذي تراه. أما أول بعثة للتنقيب عن الآثار فهي البعثة الدَّانماركية، التي بدأت التَّنقيب في أواخر الخمسينيات مِن القرن الماضي.

يبدو مِن بعيد جبل حفيت داكناً، يبعد كليومترات عدة عن مركز العين، وتصله به طريق معبدة، وفيه مقابر قديمة، حيث عاشت حضارات وبادت هناك، وهو على الحدود بين سلطنة عُمان ودولة الإمارات. قيل لي مكان يستحق المشاهدة لكنه بعيد، ويصعب الوصول إليه، ولا يكفي لمشاهدته ما تبقى مِن هذا اليوم، لذا عزفت عن الذِّهاب إليه، فالشَّمس كانت حارقة خارج السَّيارة.

لكني عدت خلال زيارة أخرى لأبو ظبي، في تشرين الثَّاني (نوفمبر) 2011، فصعدت حفيت، اصطحبني إلى هناك الصَّديق عبدالله عبدالرَّحمن بسيارته، كانت الطَّريق سالكةً وسهلة الصُّعود،

على الرَّغم مِن كثرة التَّعرجات، وارتفاع الجبل الذي يصل إلى نحو 1300 متر، وعندما تصل إلى الذَّروة تشرف على منطقة العين كاملةً، وامتداد الحدود العمانية الإماراتية مِن جهة الشَّرق. على قمة جبل حفيت هناك فندق جميل للغاية، يرتاده إماراتيون وأجانب، ومقابر قديمة عدّها المختصون في الآثار بثلاثمئة وسبع عشرة مقبرةً، كذلك عُثر على آثار في سفح هذا الجبل، ومنها آثار نحاسية، قيل إنها كانت مستوردة مِن بلاد ما بين النَّهرين.

نظرنا في ذروة قمة الجبل وإذا بجُنينة مغروسة بالنَّخيل، على شكل الجنائن المعلقة التي اشتهر صيتها ببابل، كانت مسورة، هممت بالصُّعود إليها لكن لم يسمح بذلك. خلال الصُّعود إلى الجبل مِن العين بمسافة تزيد على عشرة كيلومترات تصادفك حفريات داخل الجبل كأنها كهوف، وبين مسافة وأخرى تلاحظ مساحة خضراء مزروعة بمعاناة على ما يبدو، كأنها الجنينات، وإلا فالجبل كان أجردَ مِن الزَّرع.

قيل لي: إنهما مُتحفان لا بد مِن زيارتهما، قبل انتهاء الدَّوام الرَّسمي، وهما المُتحف الوطني، وقصر الشَّيخ زايد، عندما كان ممثلاً للحاكم بالعين. ونحن في الطَّريق أشاروا إليّ: في هذا المكان كان سوق الهجن، أو الأباعر، ثم نُقل إلى مكان بعيد بعض الشَّيء عن مركز المدينة. علمت أن الإمارات غنية بالثَّروة الحيوانية، مِن ناحية عدد الأَباعر، ولديها العربية الأصيلة منها.

لكن لم تبق للبعير مهمة في السَّفر مثلما كان سابقاً، إلا أن لحومها تُقدم في الولائم الكبيرة، وعلى وجه الخصوص سنامها، وقيل إن لحومها غير مضرة، فهي أقل لحوم الحيوانات بالكولسترول الضَّار بالشَّرايين، والمسبب لأمراض القلب، وعلى الخصوص لحم البعير الصَّغير (الحوار). كذلك أخذ حليبها يباع في أسواق الإمارات شأنه شأن حليب البقر.

يصعب على بلد، ذي أُصول صحراوية وما زال كذلك، الاستغناء عن البعير، لذا تراه دخل في الرِّياضة، وصار سباق سنوي للهجن، وهناك مَن يتغذى على حليب النُّوق، الذي يُعتقد أنه أنفع أنواع الحليب، وأخذت أشرب منه، ففيه طعم مِن الملوحة اللَّذيذة، وهو يُصنع ويباع في الأسواق. فمع وجود العناية البيطرية في تربية الأباعر ازداد عددها في الفترة الأخيرة، وهو في تزايد.

قيل إن سوق الجمال أو الأَباعر بالعين هي السُّوق المركزية بدولة الإمارات، ومحطة لجذب المهمتين بتربيتها ورياضتها. معلوم أن الدِّيانة اليهودية تُحرم لحم الجمل وما يتعلق به، ولحم الخنزير وما يتعلق به، فماذا لو حرم الإسلام لحم الجمل تماشياً مع ما جاء في التَّوراة. تذكرت ذلك وأنا أَقف في بيئة كانت لا تقبل سوى الجمل مركوباً ومطعوماً ومشروباً! والإسلام ظهر وسط هذه البيئة، هذا ما يجعل التَّفكير في التَّرابط بين الظَّاهرة الاجتماعية والبيئية وما جاء في الأَديان متناسقاً.

كانت دليلة المتحف الوطني، مريم الظَّاهري، تشرح الصَّغيرة والكبيرة مِن الآثار، في قسميها المحلي والقديم، وهي لديها تقليد لا تحيد عنه، أي تنطلق متحدثة، وربما كررت ما تشرحه عشرات المرات في اليوم الواحد، ولا تعطي مجالاً للسؤال أو الاستفسار إلا بعد الانتهاء بما بدأت له.

كانت الظَّاهري تحفظ تاريخ اللقى الأثرية والمجسمات، كقصيدة شعر، إن فقدت بيتاً منها فقدت القصيدة بكاملها. حريصة أن تُكمل جولتها على الرَّغم مِن تململ البعض، فالوقت وقت ظهيرة وصيام، مثلما تقدم. وقفت على لقىً نقدية، أموية وعباسية وعثمانية، منها ما يصل إلى عهد عبدالملك بن مروان (ت 86 هـ)، وهارون الرَّشيد وغيرهما، وتبين أنها مُقتنية مِن أماكن مختلفة، وليست مِن تنقيبات مدينة العين. هناك قطع نقود يعود تاريخها إلى القرن السَّابع عشر الميلادي، عُثر عليها في رمال المنطقة، وآثار مِن تنقيبات أم النَّار، وجبل حفيت، وهيلي، ومختلف المناطق الأثرية.

تجد في القسم الآخر مجسمات للحياة الاجتماعية السَّابقة، تشبه كثيراً ما موجود في متحف بغداد، مِن الشُّخوص، وعمليات الختان، والبيع والشِّراء في الأَسواق، إلا أن حياة البداوة وتفاصيلها كانت غير ذلك. مثل قِرب الماء والدِّلاء وأدوات الطِّباخة، والأَسلحة البيض والنَّارية. شاهدت ما نعرفه بالعراق بـ«الكاروك»، وهو المهد

الذي يوضع فيه الطِّفل ويُهز كي يكف عن البكاء أو لينام، فقالوا اسمه «المنز»، مع اختلاف التَّصميم وطريقة التعليق.

لكي نعرف ما هو حجم التَّطور الذي أصاب المكان؛ لا نجد بين الآثار أو المتروكات ما يشير إلى الطِّباعة مثلاً أو الطَّبابة، التي عرفها العديد مِن البلدان في أوائل القرن العشرين، إنما كانت حياةً بدائية بمعنى الكلمة، وتجد الظَّبيانيين يعتزون بطفرتهم الحضارية تلك. حتى إن الشِّيبان (المسنين) قد سخروا مِن ألفريد ثيسجر عندما سمعوا بأنه كان يتمنى لو أن أبو ظبي تُركت مثلما كانت، فلا تعجبه الحياة الجديدة. فهذا ما كتبه في «الرِّمال العربية».

لاحظت قطعة حجرية، مكتوباً عليها: «قطعة مِن سطح القمر»، وكان علم الإمارات مركوزاً فيها، فقيل لي أخذها معهم رواد الفضاء عام 1973 إلى القمر، ولما لم أجد جواباً لسؤالي حول سبب ذلك، توقعت أن الإمارات ساهمت بتمويل، أو أي صلة ما في تلك الرِّحلة الفضائية. فقلت: لتكن الأموال بمساعدة الرِّيادة إلى الفضاء أفضل كثيراً مِن المساهمة في إنتاج قنبلة نووية، أو شراء أسلحة تتحول في ما بعد إلى سكراب يُهرب تهريب الهروين أو الحشيش.

كانت دليلة متحف الشَّيخ زايد، حيث كان يُقيم، وولد له معظم أبنائه، ميثاء النِّيادي، مثل دليلة المتحف الوطني وقلعة

الجاهلي، تحاول إكمال ما لديها مِن معلومات، وأجدها لا تحبذ المداخلة، وهي تنطلق شارحة. ذكّرني هذا المتحف كثيراً بما زرته بصوفيا عاصمة بلغاريا، وبقية البلدان الاشتراكية، والشَّخصيات التَّاريخية، مثل منزل ديمتروف (ت 1949) بصوفيا، ومنزل فكتور هيغو (ت 1885) بباريس، وما يُقال إن التفكير جارٍ بجعل بيت محمد مهدي الجواهري ببغداد مُتحفاً.

يحتفظ المُتحف بالآلات والأَدوات التي كان يستخدمها الشَّيخ زايد، وزوجته الشِّيخة فاطمة بنت مبارك الكتبي. مررنا بقاعة استقبال الزُّوار مِن الرِّجال، وغرف استقبال الضِّيوف مِن النِّساء، وأين ينام الضُّيوف، وأواني الطَّعام والقدور. لاحظت قِدراً عظيماً يُجهّز فيه الطَّعام في الولائم الكبيرة، نسميه بالعراق «الغار»، أما الأصغر منه فالاسم واحد «صِفرية». بحسب معلومات المُتحف، أن الشَّيخ زايد وزوجته الشَّيخة فاطمة كانا يستقبلان ضيوفهما، مِن المسلمين وغير المسلمين، بلا حرج ديني أو فقهي، أو مانع شخصي.

ترى داخل المُتحف الحياة بتفاصيلها الدَّقيقة وبساطتها أيضاً، لكنها حياة الشِّيوخ، ولما سألت ميثاء هل هو هذا طراز حياة أهل العين كافة، وجدتها أُحرجت بعض الشَّيء، لكنها قالت ما أسكتني: نحن في قصر الشَّيخ زايد، وهذه هي تفاصيل حياته عندما كان ممثلاً للحاكم بالعين.

دخلنا إلى غرفة فيها صف مِن الرِّحلات أو المقاعد المدرسية، فشرحت ميثاء: أنها غرفة تعليم أولاد الشُّيوخ، على الطَّريقة الحديثة للتَّدريس، تستوعب نحو ثماني رحلات، وفي الجانب الآخر غرفة التَّعليمِ التقليدية، المقتصرة على التَّعليم الدِّيني، والجلوس فيها على الأرض. لما سألت عن الولادة والحضانة بالنِّسبة إلى أَولاد الشُّيوخ، قيل لي: معظمهم ولد في القصر، إلا أن ما نعرفه أن ولي العهد محمد بن زايد ولد في مستشفى الواحة، وتربى في هذا القصر في طفولته.

هناك أماكن عديدة عَزفت عن زيارتها، وكنتُ راغباً في زيارة بقية الواحات كواحة القطارة، والمنزة الخضراء، وبقية الأَبراج والحصون، لكني اكتفيت في ما رأيت، وعدنا مِن حيث انطلقنا مِن بوابة جامعة الإمارات، وهي أول جامعة إماراتية، تحولت إلى مبناها الحديث، واجهتها عبارة عن جدران زجاجية خضر اللَّون هائلةِ الحجوم، تأخذك الدَّهشة برؤيتها بعد جولة نصف نهار في الأَفلاج والقِلاع، حيث الحياة الأُولى والجدران المشيدة بالصَّاروج.

الفصل الخامس

صِير بني ياس
البُلبل العِراقي واكتشاف دَير

«وأنت على مشارق الجزيرة
ستقول في نفسك»: مَن أوصل
الرُّهبان إلى هذا المكان القصي وكيف؟!

تنطلق الطَّريق مِن العاصمة أبو ظبي إلى المعبر المؤدي إلى جزيرة صِير بنيَ ياس غرباً، حيث المنطقة الغربية وجزر الصَّحراء، وأكبرها الجزيرة المذكورة، ويبلغ طول الطَّريق 230 كيلومتراً، تقطعه السيارة بساعتين وقليل. كانت الطَّريق مزروعةً على الصَّوبين بالنَّخيل، منه ما غُرس بفسائل، وما غُرس بنخل تام النُّمو، بما يصل إلى أنصاف العوانات، وهنَّ النَّخيلات الطِّوال، وما هي إلا أيام وتثبت في مغارسها الجديدة. هناك صفوف مِن النَّخيل تشاهدها في الذِّهاب والإياب، وواحات خضراء تظهر بين الحين والآخر.

مع ذلك تحاول الرِّمالَ فرض وجودها حول أُصول النَّخيل، لكن كثافة الاخضرار، والتقارب بين الجذوع وظلال السَّعف وقصر المسافات بين القُرى والمدن النَّاشئة تنسيك أثر الصَّحراء، بل تظهر أشجار الغويف كأنها تُشكل حاجزاً بين خطوط النَّخيل وكثبان الرِّمال، ويمكن التَّعبير عن كثافة الزُّروع بعبارة: ترويض الصَّحراء.

سألت عبد الجليل محي الدِّين، وهو سائق مِن أهل الهند: هل أنت مِن مدينة كيرلا، تبسم، وقال: نعم. كيف عرفت؟ قلت: أكثر السَّائقين الذين ركبت معهم قالوا إنهم مِن كيرلا، التي تقع في جنوب الهند، فاعتقدت أنت كذلك. قال بالعربية، وتبدو عربيته جيدة إلى حدٍ ما: لأن الصَّحابة مِن عهد الرَّسول عاشوا بكيرلا، وهناك مسجدٌ مالك بن دينار (ت 127 هـ).

كان ابنٍ دينار من أواخر التَّابعين وليس صحابياً، وإنه عاش بالبصرة، وأعجب به أهل كيرلا الهندية، على ما يبدو بصيته الذائع لينشئوا مسجداً باسمه. وزاد عبدالجليل أن أهل كيرلا مِن عصر الإسلام الأول يأتون إلى أبو ظبي، يحملون الأُرُز والقماش ويأخذون التَّمر واللؤلؤ. أعجبت بتخريجات عبدالجليل لكثرة وجود أهل كيرلا بأبو ظبي. قال وأنا أقرأ لوحة تشير إلى الرُّويس: هناك توجد آبار النِّفط.

تقرأ على الطَّريق أسماء: المرفأ، الأريام، طريف، أبو الأبيض، جبل الظَّنة، الجمانيات، الحلوة، ليوا (مزيرعة)، وهي المنطقة التي كثيراً ما يرد اسمها في كتاب ألفريد ثيسجر «الرِّمال

العربية»، قطعها وهو قادم مِن أطراف الجزيرة العربية ونهايات حضرموت، حيث جانب مِن الرُّبع الخالي.

هناك سهم يُشير إلى اسم غريب بعض الشَّيء وهو «غابات حدبة نشوى»، حبشان، السِّلع، رديم، بينونة، الغويفات، وقصر المغيرة، الهرمية، خصبة الرِّيم، قرين العيش، الغياثي، ومِن المؤكد هناك صلة لهذه التَّسمية بالغيوث. ثم تنفلق الطَّريق إلى اتجاهين: الخياطي والرُّويس، ولوحة تشير إلى جريرة دلما.

أشارت لوحة على الطَّريق إلى مصنع الثَّلج، وكم تبدو المفردة جذابة عند المرور بها في شهور الصَّيف الحارقة. وبعد قطع نحو خمسين كيلومتراً يظهر لك اسم صير بني ياس، كل هذه الأسماء تظهر وأنت تتجه إلى الرُّويس، فمِن هناك يكون المعبر إلى الصِّير، ومِن الملاحظ أن أغلب المدن والقُرى تقع على يمين الطَّريق وهي تتجه غرباً.

على هذه الطَّريق مرت مركبات قطرية وأُخرى سعودية، تحمل عائلات وشباباً كانوا يقضون إجازة العيد بالإمارات، وهي الطَّريق الرَّابطة بين الإمارات وهاتين الدَّولتين، فالصَّحراء متصلة، ومن هنا كادت السَّلفية الوهابية أو الإخوان يدخلون إلى أبو ظبي، ويُخضعونها لمذهبهم. أما عُمان فالاتجاه إليها يمرُّ عبر عاصمة المنطقة الشرقية العين. تبدو أبو ظبي صغيرة الحجم وأنت تُغادرها إلى دبي أو العين، مِن جهة الشِّمال والشَّرق، وكم تبدو شاسعة المساحة وأنت تغادرها صوب المنطقة الغربية.

بعدها تصل إلى العَبارة أو القارب، الذي يبحر إلى جزيرة صير بني ياس كلَّ ربع ساعة تقريباً، والانطلاق مِن مرسى مشيد حديثاً، نظيف وخدماته للعابرين تقدم على مدار السَّاعة، وكأنك تبحر مِن مرسى أوروبي لدقة الخدمات ونظافة المكان. كانت الأمواج هائجة وكنت في العبارة بمفردي، فقد سألتني المرشدة السِّياحية، وفاء المحيرمي، هل أنت بمفردِك؟! قلت لها: نعم. فقالت: هناك مسجل لديَّ تحت اسمك أُسرة متكونة مِن ستة أشخاص، لهذا ظنوا هناك سبعة أنفار فحركوا العَبارة، والآن اتصلوا كيف تتحرك العبارة بشخص واحد هو أنت؟! قلت: لا أحدَ معي سوى حقيبتي هذه.

وفاء مواطنة شابة، وهنا لكثرة الوافدين وقلة أهل البلد، للعمل يُشيرون للإماراتي بالمواطن، درست في معهد السِّياحة الكائن بجزيرة دلما، وبدلاً من السَّنتين، وللحاجة إلى الخريجين، أكملت دراستها خلال أحد عشر شهراً، وهي في الأصل تتحدر مِن جزيرة دلما، وما زال أهلها يقيمون هناك، بينما صير بني ياس خالية مِن السُّكان، ولا يُقيم فيها سوى العاملين في شأن تربية الحيوانات والسِّياحة.

قالت وفاء، وهي تؤدي واجبها الإرشادي، إن الأمواج اليوم هائجة، وإذا صار شيء ما اتبعني وأنا أخرج، من باب العَبارة الخلفي، وأشارت إلى الباب. قلت لها: أُريد الوقوف في الخارج. قالت: ممنوع، إن في ذلك خطراً. قلت: أنا أُجيد السباحة، ومِن

بيئة مائية ولا أتذكر متى تعلمتها، لأن الطفل يتعلم هذا الفن مثل تعلمه للمشي. وأخذت أقص عليها عن بيئة الأهوار بجنوب العِراق، لم يتذكر الإنسان فيها كيف ومتى تعلم فن السباحة، لأن حياته مرهونة بها.

حتى قالت فيها الباحثة البريطانية ليدي دراوور: «في سكان البطائح (الأهوار) شيء كثير من طباع طيور الماء. إنهم مرحون، يستمتعون بالنُّكت، ويكلفون بالضحك، ويولعون بالغناء. إن موطنهم اليابسة والماء على حد سواء، وما أن يدرج الصبي إلا وتجده سابحاً في الماء، أنهم كطيور الماء، وسيبقون كذلك، على الراجح أبد الدَّهر». مع ذلك لم تقتنع المرشدة السِّياحية بكلام، فمنعتني مِن الوقوف خارج الكابينة.

رأيت شريطاً أخضر داخل البحر، فقالت: إنها الجزيرة الخضراء، وهي كانت خضراء في الأصل، ووجه الشَّيخ زايد بالحفاظ عليها وديمومة اخضرارها. ومن بعيد تلوح لك طاحونة هواء شاهقة في الفضاء، لإنتاج الطَّاقة الكهربائية، نُصبت على نتوء خارج مِن جزيرة الصِّير، لكنها لا تغذي بالكهرباء سوى البيتين الكائنين حولها، ولو كُثرت هذه الطَّواحين لازداد إنتاج الطاقة الكهربائية، وهي تبدو منصوبة لجمال المنظر أكثر منها للفائدة.

وأنت تمر بجبل الظَّنة تلوح لك محطة تحلية ماء البحر، وهي المحطة التي تزوّد الجزيرة بالماء العذب، يصلها عبر أنابيب

ضخمة مُدت تحت ماء البحر أو تحت قاعه، فلا بد من أنهم حسبوا حساب مرور السُّفن الكبيرة مِن فوقها. أما الآبار فقد جفت ولا يؤمل أن يُنفط منها ماء، وربما تمر بأحواضها يابسة، باقية كأثر مِن الآثار.

رأيت نباتاً مغروساً على شاطئ البحر، يسمى بالقرم، وهو مِن النَّباتات التي تعيش على ماء البحر، وتبقى كما هي مهما اشتدت حرارة الصَّيف، وتكون مكامنَ للطيور، رأيت أحد مشاتله قريباً مِن الفندق، وأراها تغرس بأسلوب غرس الرُّز (الشِّلب) على شتلات متفرقة في الرَّمل تحت الماء، بعد أن تبذر في مغارس خاصة قُبيل نقلها إلى الماء، وعادة تحاط مشاتله بسور حتى تنمو ويشتد عودها، خشية مِن الأمواج.

لاحظت داخل مدينة أبو ظبي لوحة تشير إلى منطقة القرم، وهناك تجد هذا النَّبات على شكل غابات الغرض منها تغيير شكل البيئة الصَّحراوية بأشجار قادرة على مقاومة الظُّروف المناخية، ولا يحتاج إلى الماء العذب، ويتحول إلى مكمن للطيور البرمائية كالنوارس أو الغرانيق وغيرها، ورأيتها مجتمعة في مشاتله.

هناك نظام للحفاظ على نظافة البيئة داخل الجزيرة، وهو استخدام ناقلات للزوار تسير على البطاريات المشحونة، لا تبعث ثاني أوكسيد الكاربون، ومجهزة بالتكييف وبوسائل الرَّاحة مع مظهر أنيق. كذلك النِّظام المائي، أو الإروائي، قائم في الجزيرة،

وهو تجمع ماء الأمطار عند الجبال، ثم ينقل عبر مضخات إلى خزانات متفرقة على أرض الجزيرة، تروى منها الحيوانات وتُسقى النَّباتات.

عند ساحل الجزيرة التقيت بمدير البيئة ماريوس برنسلو، وهو يعتمر قبعة رعاة البقر على رأسه، قَدم مِن جنوب أفريقيا ويعيش هو وزوجته على أرض الجزيرة منذ سنوات، وهو مختص بالبيئة الحيوانية، وله خبرة طويلة في هذا المجال، تزيد على الثَّلاثين عاماً. اصطحبني في جولة بسيارته الخاصة، التي كُتب عاليها عبارة «جزر الصَّحراء»، مع رسمة طير وشريط أخضر، وهو شكل سيارات الجزيرة الرَّسمية بعامة.

قال: ماذا تريد أن ترى؟ قلت: آثار المسجد، وآثار الكنيسة، ثم رؤية المها، التي قيل لي إنها مِن المنقرضات ثم تم تدجينها هنا في هذه المحمية. قال: سأصطحبك في جولة حول الجزيرة، ولعلك ترى أكثر الحيوانات، فبعضها لا يظهر عصراً. نزلت في فندق الجزيرة، وهو مِن الفنادق الجميلة، محاطاً بالنَّخيل والأشجار، ويقع على ساحل الخليج مباشرة، حتى الذي يتمشى في حديقته يشعر برذاذ الأمواج الهائجة في الغالب مِن الأحيان، وعندما تشتد الأمواج تبدو كأنها تبتلعه، هذا الشعور راودني في ساعات الليل هناك.

لاحظت أن الجزيرة غنية بطير البلبل، وهو البلبل العِراقي الغريد فجراً، له خدان أبيضان وطوق أسود في رقبته، مع اصفرار

تحت ذيله، وبالفعل قرأت في كتاب الطُّيور في الإمارات، وهو كتاب موزع على غرف الفندق: إن أصل هذا الطير هو العِراق، وجُلب إلى البحرين فتوطن هناك. ويبدو أنه وصل إلى هذه الأرض حديثاً، وهو الذي قال فيه الشَّاعر العِراقي صاحب العمامة البيضاء والوزير في العهد الملكي علي الشَّرقي (ت 1964) في رباعيته «البلبل السَّجين»، وكانت مِن أروع القصائد، وأبلغها تعبيراً عن حال العراق السِّياسية وعبر الأزمات كافة، ومنها:

أيها البُلبل في السَّجن

كم يوسفٍ في السُّجونِ

بلبلي هل رضيت في الرَّبطة السَّوداء

أم تلك شارة المحزونِ

إنني قد غدوتُ أنعم في الشَّكِ

لأنني منغص باليقينِ

ما رأيت في العِراق ليلى ولكن

في كلِّ آنٍ أمرُ في مجنونِ

رأينا خلال الجولة زرافات أعناقها منصوبة كالأعمدة تظهر مِن بين الأشجار، وهناك إسطبل خاص بها توجد منصة للإطلال عليها مِن قِبل السَّائحين، وهي تتجول أيضاً بحرية داخل الجزيرة. قال ماريوس لا بد مِن رؤية الجيتا، وهو يتحدث بالإنكليزية، مع

كلمات عربية، وسُر كثيراً عندما أعلمته أن الجيتا اسمه الفهد بالعربية، أما الزَّرافة فاسمها واحد بالعربية والإنكليزية لو استبدل حرف الزاء بحرف الجيم، أي الجرافة، وكان يعرف ذلك.

قلت له: كيف يُترك الجيتا حراً والجزيرة مملوءة بالغزلان؟! فعددها ثمانية آلاف ومئة غزال حتى هذه اللحظة. قال: إنها الطَّبيعة، ولا بد مِن ترك الحيوانات تعيش مثل حياتها في الغابة، والجزيرة ليس فيها حيوان مفترس سوى الجيتا والضَّبع، والأخير لا يخرج كثيراً بل منطوٍ في الحفر، والغزلان تتكاثر بسرعة، وأعدادها بتزايد، والصَّيد ممنوع في الجزيرة منعاً باتاً بقانون.

أثناء ذلك ظهر زوج من الفهود، أنثى وذكر، ونزل ماريوس من السَّيارة ودعاني إلى النُّزول قائلاً: لا يهاجمان أحداً، تعال اقترب منهما، كانت إحدى الفهدات ولدت على الجزيرة، وسماهما باسميهما، لكنهما ما أن شعرا بتوقف السَّيارة قربهما دخلا بين الأشجار على مرأى منا واختفيا.

يعيش على الجزيرة خمسة عشر ألف حيوان، مِن عشرات الأنواع، وعلى وجه الخصوص الأيائل، ومنها الأيل الأفريقي الأسود، أما المها العربي، وهو أبيض الجسد وأسود الأرجل وطويل القرون فعددها بالجزيرة أكثر من خمسمائة رأس. مع وجود النَّعام، لا حظنا زوجاً منها يتبعهما أفراخهما، وهناك طيور جلبت مِن مختلف بلدان العالم، مِن طواويس ودواجن، وأنواع لم أحفظ

أسماءها، بل هناك منطقة خضراء خاصة بالطُّيور، لكنها تتجول بحرية من دون أن تحبس نفسها في هذه المنطقة.

قال ماريوس قبل التَّوجه إلى آثار المسجد القديم والكنيسة التَّاريخية، أدعوك إلى رؤية أسد الجزيرة، الذي اكتشفته بنفسي خلال جولاتي سيراً على الأقدام داخل الجزيرة مع اعتراض الآخرين على ذلك، إنه أسد مِن نوع آخر، وظننت أنه أسد بحق وحقيقة، لكنه ظهر تمثالاً مِن نحت الطَّبيعة في الصُّخور الحمر.

كان الليل ينزل رويداً رويداً، وقت الغروب، وفي هذه اللحظات تلاحظ الحيوانات تتسلل إلى زرائبها والطُّيور إلى أعشاشها، وكأنها عائدة مِن العمل. أما الغزالة فهي الوحيدة التي تتقافز وتعبر الطُّرق العامة بسرعة، لهذا حُددت سرعة المركبات بخمسين كيلومتراً فقط، مع أنها خالية. كان ماريوس ملتزماً إلى حد الشعرة بهذا النِّظام، وعندما يرى على حافة الطريق سرباً مِن الغزلان أو غزالة شاردة يخفف السِّرعة أقل مِن النِّظام.

لكن عند عودتي مِن الفندق إلى مرسى العَبارة، أو المركب الصغير، أقلني شاب إيراني الأصل، مع آخرين، ونظرت في ميتر السيارة فرأيته وصل الستين كيلومتراً ويزيد، فقلت له، وسط دهشته والراكبين معي: أليست السِّرعة محددة بخمسين كيلومتراً، وهو يتكلم العربية بصعوبة، قال: وتصل إلى السِّتين، ما في مشكلة أغا. قلت: كم هي السِّرعة المحددة، قال: خمسين منذ أيام الشَّيخ زايد،

وأنا أعمل في الجزيرة منذ اثنتي عشرة سنة ولم يحصل شيء. قصده لم يقتل غزالاً أو أي حيوان. سألته ما هي العقوبة إذا قتلت غزالاً. قال: أدفع عشرة آلاف درهم، وأُبعد عن الإمارات. بعدها لاحظته قد ضبط السُّرعة على الخمسين كيلومتراً، وقفزت أمام السَّيارة غزالة فاستطاع تجنبها.

بعد المرور مِن التِّلال والجبال متنوعة الألوان، بين المائل للحمرة بلون الحديد والأسود والمائل للاخضرار والأبيض، أوقف ماريوس سيارته في فسحة محاطة بالجبال، ولفت نظري إلى قمة منها فرأيتها على شكل أسد تماماً، نحتته عوامل التَّعرية في تلك الصُّخور القاسية، وكأنها يد نحات ماهر. وقريباً منه كان تمثال ببوني، وهو نوع مِن القرود، كأنه يشرئب برأسه مِن بين الصُّخور يراقب ما حوله، وفي الجهة الأخرى ترى صقراً منحوتاً، وعندما تقترب منه تتغير هيئته إلى هيئة طير آخر.

ليس هناك عناية بهذه الأشكال، فربما سقطت حجرةٌ مِن التَّماثيل الطَّبيعيات فتغيرت أشكالها. قال ماريوس: نبهت إلى أهمية هذه المنحوتات ولكن إلى الآن ليس هناك إجراء في المحافظة عليها، وأخشى مِن التَّغير بفعل الرِّياح الشَّديدة والأمطار. فبسبب الرِّياح حصل أكثر مِن مرة توقف العبّارة عن قطع البحر مِن الرُّويس إلى الجزيرة، أو إلى أي مكان آخر، واضطر الزُّوار والسَّائحون إلى البقاء حتى تهدأ. هناك مطار في الجزيرة، تهبط الطَّائرات فيه

بالتنسيق مع شركة طيران الاتحاد، لكن سمعت أنها كلَّ يوم خميس مِن الأُسبوع.

تلاحظ، وأنت تتجول في الجزيرة، نظاماً متقناً مِن ترقيم المناطق وتسميتها، ووضع الإشارات المرشدة إليها، مثل: الوضيحي، وهناك يكثر المها العربي، وهو الحيوان الذي انقرض مِن المنطقة العربية، فأعيد تدجينه على أرض صير بني ياس وأخذ يتكاثر، رأس الخضيرية، روضة العِرجان، الحبارى، ولوحة تشير إلى فندق اليَّم الجديد على ساحل الخليج. دخلنا إلى منطقة واسعة فيها أنواع مِن الحيوان وكانت مسوّرة، وقد وجه ماريوس الريمونت، وفُتحت البوابة الكبيرة وهو جالس وراء المقود، ولم ألاحظ أسلاكاً كهربائية حولها، منها وإليه لتمدها بالكهرباء، لكني لاحظت صفاً مِن صفائح للطاقة الشَّمسية قريباً منها، فظهر أنها تعمل على الشَّمس.

كانت ضالتي هي آثار الكنيسة والمسجد، فعجلت ماريوس إليها، وفي الطريق لاحظت مقبرة تشير شواهدها إلى أنها قديمة، ولم تكن لدى ماريوس معلومات عنها سوى أنها لساكنين قدماء على أرض الجزيرة. بعدها توقفت السَّيارة واتجهنا وسط الرِّمال وأشجار فطرية سيراً على الأقدام إلى المسجد. كان الأثر عبارة عن مصلى تحيط به أحجار مصفوفة كالسُّور. يُقدر تاريخه بثلاثمئة عام، وكان مشيداً على السَّاحل تماماً، يأتيه سُكان الجزر الأُخر، ومَن كان يقطن الجزيرة للصَّلاة فيه يوم الجمعة، لكن السَّاحل

ابتعد الآن كثيراً بمسافة تصل إلى أكثر مِن كيلومتر، ويقع المسجد في منطقة تُعرف بالعرفان.

بعد مسافة أكثر مِن كيلومترين تجد آثار كنيسة، وتبدو أنها كانت ديراً، اكتشف العام 1992، وآثارها محاطة بسور مِن الأغصان أو القصب، يستطيع المتمعن فيها مِن فرز مكان الصَّلاة واتجاه المذبح إلى جهة الشَّرق، وغرف سُكنى الرُّهبان، وقبور أيضاً. يعود تاريخ البناء إلى العام 600 ميلادية، أي قبل الهجرة النَّبوية باثنين وعشرين عاماً، وقبل ظهور الإسلام ونزول القرآن على صدر النَّبي محمد بسنوات.

وأنت في ذلك الفضاء الصَّحراوي، والمحاط بالبحر مِن كل جهاته، والخالي تماماً من إنسان، يأخذك العجب العُجاب، وتقول في نفسك: مَن أوصل الرُّهبان إلى هذا المكان القصي وكيف؟! مع أن التعريف الآثاري بالمكان أشار إلى طريق للتِّجارة تمر مِن هنا. وربما يسأل سائل إنه مَن قال إن هذه الآثار تدل على أن البناء كان كنيسة أو ديراً؟! والجواب يأتي سريعاً: وجود الصُّلبان في المكان، ناهيك مِن تصميم البناء والاتجاه إلى جهة الشَّرق، وآثار أُخر دلالة على أن المكان كان بيعةً أو ديراً.

مَن يدرس تاريخ الكنيسة الشَّرقية، وكنيسة صِير بني ياس، تابعة للكنيسة الشَّرقية بدلالة الصُّلبان المكتشفة، قد لا يستغرب مِن نزوح الرُّهبان إلى هذا المكان، القريب مِن سواحل قطر،

فهناك كنيسة كبيرة، والمكان كان يُعرف ببيث قطرايي، بحسب الآرامية. آنذاك كان النزاع الشَّديد بين الإمبراطوريتين، الرُّومانية والسَّاسانية، يؤثر مباشرة في أتباع الكنيسة الشَّرقية ذات المذهب النَّسطوري، فعند الحرب يؤخذ جاثليق الكنيسة الشَّرقية مع المحاربين السّاسانيين، ومقر كنيستها بالمدائن جنوب بغداد، وعند السِّلم يأخذ السَّاسانيين بملاحقة المسيحيين الشَّرقيين لدوافع دينية، بعد أن يستغلوا خلافهم مع الكاثوليك الرُّومان في أيام الحرب، وكنت أتيت على تلك الملاحقات في كتاب «الأديان والمذاهب بالعِراق» تفصيلاً.

ما دفعني إلى زيارة صير بني ياس، هو وجود ذلك الأثر، فالتَّاريخ المشهود عليه بالآثار يكون عادة محط جذب. أتذكر أن حديثاً طويلاً جرى في خيمة الشَّيخ نهيان بن مبارك الرَّمضانية، مع وزير الطَّاقة والصِّناعة القطري السَّابق، ورئيس الدِّيوان الأميري ونائب رئيس الوزراء عبدالله بن حمد العطية، حول العِراق، وكان الرَّجل ملماً إلى حدٍ كبير في تاريخ بلادنا، وخلال الحديث قلت له: هل تعلم أن اسم قطر في السِّريانية أو الآرامية هو «بيث قطرايي»؟!

فكانت هناك كنيسة أو أبرشية كبرى سريانية، نسطورية المذهب، بقطر، أو ما كان يُطلق على المنطقة ككل. قيل كان أسقف الكنيسة الشَّرقية إسحق النَّينوي، نسبة إلى نينوى، قد ولد بقطر أو بيث (بيت) قطرايي، ما أن أكملت كلامي وإذا بالعطية يتحفني بمعلومة أكدت ما قرأته في كتاب «تاريخ الكنيسة الشَّرقية»

للأب العِراقي البير أبونا ذي الثلاثة أجزاء، بأن آثار كنيسة، بل كتدرائية، اكتُشفت خارج مدينة الدَّوحة العاصمة القطرية. لكن عندما زرت قطر مؤخراً (كانون الأول/ديسمبر 2011) لم أجد مَن يعرف طريقاً إلى هذا الأثر، ووجدت مَن اعترف بوجوده إلا أنه اعتبره أثراً ملفقاً، وأنا أشك بمعلومته.

عقب الشَّيخ نهيان وزير التَّعليم العالي بدولة الإمارات قائلاً: بجزيرة صير بني ياس، التَّابعة لأبو ظبي، اكتُشفت آثار كنيسة قديمة، وحفظت آثارها كمعلم تاريخي لأبو ظبي. ولحظتها تشجعت على زيارة الجزيرة، التي سمعت عنها الكثير، كونها محمية للظباء والغزلان والطُّيور، وما كان على هذه الأرض وانقرض أو مهدد بالانقراض.

بعد ذلك التقيت بأبي رمزي، مهندس عراقي، ما زال محتفظاً بلهجة موصلاوية تماماً على الرَّغم مِن السَّنوات الطَّويلة التي عاشها بالخارج، وهو كان مقيماً بالبصرة، والردح الأكبر من حياته قضاه بأبو ظبي، في جلسة جمعتنا في بيت الصَّديق المهندس جعفر السَّامرائي، وكان الحديث جارياً حول المسيحية وأديان العِراق القديمة، فذكر لي ما أخبره به المنقب الذي عثر على بقايا كنيسة جزيرة صير بني ياس.

يبدو أن المنقبين كانوا تحت ضغط ما يسمعونه ويحسونه مِن الموقف مِن المسيحية؛ فأخبروا السُّلطات بأبو ظبي، ليأخذوا

توجيهاً بطمرها أم إظهارها، فكان التَّوجيه بالحفاظ عليها وتسويرها، كإرث حضاري مِن ميراث هذه الأرض، ولو لم تكن هناك حياة وحضارة بشريه في هذا المكان ما أُسست كنيسة. تقع آثار الكنيسة في الجهة الشَّرقية مِن الجزيرة.

صلة بما يتعلق بآثار المسيحية بالخليج والجزيرة العربية، حضرت العام 1995 محاضرة لأستاذ بريطاني في علم الآثار، لم يحضرني اسمه، كان قد نقب في المنطقة واستخرج عدداً مِن اللُقى الأثرية، ومِن بينها نماذج مِن الصُّلبان. وقد عرضها أمامنا، وكنا لا نزيد على أحد عشر نفراً، كان العشرة مِن طلبة التَّاريخ القديم بجامعة لندن وأنا، في قسم الدِّراسات الشرقية (سواس).

كانت المحاضرة مشفوعة بالسلايدات، فحينها لم يكن برنامج الباور بوينت معروفاً أو شائعاً. عرض صوراً لصلبان مختلفة الأشكال، وجدها فِي أكثر مِن مكان، مثل منطقة فيلكة بالكويت، وعُمان ومناطق أُخر، وأظنه قال: الإمارات، فالذاكرة لا تسعفني، أشارت تلك الصُّلبان إلى أنها تطابق أشكال صلبان الكنائس الشَّرقية.

صادفت في الجزيرة عدداً غير قليل مِن السائحين، ممَن يمتطون العجلات الهوائية، ويتحركون فيها كعائلات، وعائلات إماراتيين وسعوديين، ويكثر موسم السِّياحة إليها في فصل الشَّتاء، مع أن هناك مَن يُسميها بأم الفصول الأربعة، لكن يبقى لفصل الصَّيف وشدة الرُّطوبة أثرهما في قلة السائحين أو المستكشفين.

وأنا أنظر في كائنات الجزيرة الحية، وشواطئها المترامية، وما فيها مِن أحياء مائية وطيور مختلفة الأشكال والألوان، أقول: لو أن تشارلز داروين (ت 1882) عرف طريق الجزيرة لجعلها مختبراً لوضع نظريته «أصل الأنواع»، وكيف تتوزع الكائنات على فصائل قد تختلف مِن مكان إلى آخر لكن النوع واحد. سألت عن عدم وجود أثر للجمل على الجزيرة، فقيل لي إنه كائن إماراتي لا يحتاج إلى تدجين، ولا يلفت النَّظر. كذلك خلت الجزيرة مِن الحمار، والحصان.

عند الصَّباح، وهو يوم العودة إلى أبو ظبي، كتبت رسالة إلى ماريوس، مدير البيئة الحيوانية، بأني فقدت الصور التي التقطتها للكنيسة والمسجد، فهل لك اصطحابي بجولة أخرى، ولعل جولة الصَّباحِ أفضل مِن جولة العصر، فأتى الساعة التاسِعة والنِّصف صباحاً واصطحبني بجولة رأيت فيها ما لم أره في الأُولى، وجاء مع كاميرته ذات المواصفات العالية الجودة. كانت الزِّيارة في يومي التَّاسع والعاشر مِن تشرين الثَّاني (نوفمبر) 2011.

الفصل السَّادس

التَّجاور المُريح
المساجد والكنائس

«كانت بلادنا دائماً وما تزال وهي بلد آمن،
بلد يدين أهله بدين الإسلام الذي
يدعو إلى التَّسامح واحترام معتقدات الآخرين»

(مسؤول كبير في افتتاح كنيسة)

يصر نقلَةُ الحديث النَّبوي على رواية حديث يقضي بإخراج غير المسلمين مِن جزيرة العرب، أو أرض العرب، وتكاد تجمع كتب الحديث على أن ذلك كان آخر ما تكلم به النَّبي، ومنها ما جاء في كتاب «المُوطَأ» لمالك بن أنس (ت 179 هـ)، ومعلوم أن أبو ظبي هي في الفروع على المذهب المالكي. يقول الحديث الذي أتى بعدة صيغ: «كَانَ مِنِ آخِرِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ قَالَ: قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ لَا

يَبْقَيَنَّ دِينَانِ بِأَرْضِ الْعَرَبِ». وفي مسند ابن حنبل - إمارات أُخر من الدَّولة على المذهب الحنبلي - جاء: «آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْرِجُوا يَهُودَ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَأَهْلَ نَجْرَانَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَاعْلَمُوا أَنَّ شِرَارَ النَّاسِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

إن قصة «آخر ما تكلم» يشوبها الغموض، إذا علمنا كم مِن الأثر النَّبوي صُنف على أنه مِن الموضوعات، أي وضعه الرِّجال بعد النَّبي، والطَّبري يقول: «قال في وجعه الذي قبض فيه» (تاريخ الأُمم والملوك): «لَا يَجْمعُن فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ». لكن هناك مَن ينقل عن تلك اللحظة، وهي لحظة الوجع الذي توفي فيه النَّبي: «اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَعُهُ يَوْمَ الْخَمِيسِ فَقَالَ ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا، فَتَنَازَعُوا وَلَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، فَقَالُوا: هَجَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: دَعُونِي فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونِي إِلَيْهِ وَأَوْصَى عِنْدَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ: أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ وَنَسِيتُ الثَّالِثَةَ» (صحيح البخاري). فلماذا هذا الحديث كان خارج الهجر من شدة الوجع، وكيف تُنسى الثَّالثة، فربما فيها أمر خطير؟! ولماذا فُسر المشركون بأنهم أهل الكتاب؟!

عند ممارسة طرد اليهود والنَّصارى مِن أرض العرب، أو جزيرة العرب، لم تؤخذ القصة التي لها حظ مِن الصِّحة والواقعية

أكثر مِن وصايا لحظات الوجع، وهي ما يأتي به المُحدث محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256 هـ) نفسه، وتتعلق بخلاف اليهود مع ابن عمر بن الخطاب (اغتيل 23 هـ) لا بشيء آخر، وانقل الخبر والحديث بإسناده كاملاً مِن «صحيح البخاري» نفسه.

قال: «حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ مَرَّارُ بنُ حَمُّويَهْ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى أَبُو غَسَّانَ الْكِنَانِيُّ أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا فَدَعَ أَهْلُ خَيْبَرَ عَبْدَاللَّه بْنَ عُمَرَ قَامَ عُمَرُ خَطِيبًا فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ كَانَ عَامَلَ يَهُودَ خَيْبَرَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَقَالَ نُقِرُّكُمْ مَا أَقَرَّكُمْ اللَّه. وَإِنَّ عَبْدَاللَّه بْنَ عُمَرَ خَرَجَ إِلَى مَالِه هُنَاكَ فَعُدِيَ عَلَيْه مِنْ اللَّيْلِ فَفُدِعَتْ يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا هُنَاكَ عَدُوٌّ غَيْرَهُمْ هُمْ عَدُوُّنَا وَتُهْمَتُنَا وَقَدْ رَأَيْتُ إِجْلَاءَهُمْ فَلَمَّا أَجْمَعَ عُمَرُ عَلَى ذَلِكَ أَتَاهُ أَحَدُ بَنِي أَبِي الْحُقَيْقِ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتُخْرِجُنَا وَقَدْ أَقَرَّنَا، مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، وَعَامَلَنَا عَلَى الأَمْوَالِ. وَشَرَطَ ذَلِكَ لَنَا فَقَالَ عُمَرُ: أَظَنَنْتَ أَنِّي نَسِيتُ قَوْلَ رَسُولِ اللَّه، صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، كَيْفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ تَعْدُو بِكَ قَلُوصُكَ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ! فَقَالَ: كَانَتْ هَذِه هُزَيْلَةً مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ. قَالَ كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّه فَأَجْلَاهُمْ عُمَرُ وَأَعْطَاهُمْ قِيمَةَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ الثَّمَرِ مَالًا وَإِبِلًا وَعُرُوضًا مِنْ أَقْتَابٍ وَحِبَالٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ» (كتاب الشُّروط).

تراني أطنبتُ في مستهل الحديث عن كنائس أبو ظبي القائمة حالياً، فالغرض هو تأكيد كم مِن المواقف تبنى على روايات

الرِّجال، مهما كانت ضعيفة أو غامضة أو موضوعة، وترجمت كشريعة لدى العديد مِن البلدان، وهذه الرِّواية المانعة للتَّضامن الدولي وفتح الحوار وتأصيل التَّسامح. وإلا فاليهود والنَّصارى هم مِن سكان الجزيرة وأرض العرب، ونعلم ما يَعنيه الجلاء أو التَّشريد! وكم مؤذية إذا ما مورست في الوقت الحاضر.

كانت دولة الكويت، وهي الخالية عملياً مِن سكان غير المسلمين كأُصلاء، سباقة إلى فتح كنيسة للمسيحيين الذين وفدوا إليها في بداية القرن الماضي، وكنت التقيت بالقس غريب، وهو يعتمر العِقال والكوفية وعلى صدره الصَّليب، وحدثني عن عمق صلاته بالدَّواوين الكويتية، وكيف له خدمة المسيحيين الكويتيين، بالتَّجنس قديماً، ومنهم الوافدون للعمل، وهناك مجمع للكنائس على مختلف مذاهبها، كنت دخلت إلى الكنيسة القبطية والكاثوليكية، التي راهبها القس غريب مع مساعديه.

زرت البحرين ووجدت فيها عدداً مِن الكنائس، يديرها قساوسة عرب، من لبنان وسوريا، ومِن الهند وجنوب شرق آسيا، وأبوابها مفتوحة على مصاريعها، فشهد المجتمع انفتاحاً في هذا المجال. فالبحرين مِن أوائل مدن الخليج العربي استيعاباً للوافدين العاملين، مِن المسيحيين، ولم أجد تأثيراً للحملات التبشيرية، بقدر ما كان لها دور في الخدمة الطِّبية، وربما دخلت المسيحية امرأة أو رجل فرادى وتركوا البلاد، كل هذا نقرأه في مذكرات الممرضة والراهبة شريفة، وهي بريطانية عاشت متنقلة

بين البحرين والأحساء للخدمة الطبية. ما زال بالبحرين يهودها مقيمون أيضاً، على الرَّغم مِن قلة العدد، وكانوا وصلوها مِن العراق في نهاية القرن التَّاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد تأثر وجود اليهود بالبحرين، وغيرها مِن الدول وفي مقدمتها العِراق، بظهور دولة إسرائيل وما حدث العام 1948، ثم بالحروب المتعاقبة بين الدُّول العربية وإسرائيل. لكن على ما يبدو أن النَّفسية البحرينية، بشكل عام، تجاوزت تلك المشاعر، وغدا وجود اليهود أمراً عادياً، حتى صار أَحد وجهاء اليهود نائباً في البرلمان البحريني، وأن يهودية عُينت سفيرة لبلادها بواشنطن، وهي هدى عزرا نونو، وكنت التقيت برجل الأعمال وعضو البرلمان ابن عم سفيرة البحرين بواشنطن إبراهيم نونو العام 2005 بالمنامة. كذلك عُينت عضوة في البرلمان البحريني نانسي دينا إيلي خضوري لتحل مكان ابنة ديانتها السفيرة، وعُينت المسيحية هالة رمزي فايز قريصة خلفاً للمسيحية البحرينية أليس سمعان نائبة رئيس مجلس الشورى.

واجهت الرَّحالة ألفريد ثيسجر الثَّقافة التي بنيت على أساس الحديث المذكور سلفاً؛ في إقصاء أهل الكتاب مِن الجزيرة، ففي أكثر مِن موضع مِن كتابه «الرِّمال العربية» يذكر تعرضه إلى موقف محرج بسبب ديانته، ولم ينفعه اسمه العربي «مبارك بن لندن»، ويبدو هو لا يريد تبديل دينه مِن أجل اكتشاف أو رحلة، أو تجده خارج نطاق الاهتمام الدِّيني كليةً. فهو في نظر العديد مِن زعماء

الصَّحراء كان شيطاناً ونجساً وكافراً، وكثيراً ما أسمعوه مثل تلك النُّعوت، لكنه لم يواجه مثل هذا السُّلوك عندما زار العين وأبو ظبي، بل استُقبل بالتَّرحيب الحار، وصار طول مدة مكوثه لصيقاً بالشَّيخ شخبوط حاكم أبو ظبي، والشَّيخ زايد نائب الحاكم بالعين حينها.

كان يدور في خاطري، وأنا اتنقل بين كنائس أبو ظبي، كلُّ ما سبق مِن إقصاء المسيحيين مِن نجران أو الجزيرة العربية، بحسب ما تقدم مِن حديث، وما علمته مِن وجود مسيحي قديم في المكان، وما واجهه ألفريد ثيسجر مِن صعوبات بسبب ديانته، والانفتاح عليه بأبو ظبي بالذات.

يقع مجمع الكنائس، الكاثوليكية والإنجليكانية وبجانبه القبطية، بمحلة المشرف مِن أبو ظبي، لمحت في ساحة المجمع الكنسي راهباً يرتدي ثيابه الدِّينية البيض، وتحدثت معه بالإنكليزية، فظهر أنه مِن (سويس لاند)، وقدم نفسه باسم الأب كاندلفو، وعلى بعد أمتار، مِن وقوفي مع الرَّاهب، كان المتبركون بمُجسم مريم العذراء، الموضوع في فتحة مِن الجدار وحوله الشُّموع، يتكاثرون، وفي هذه الأثناء انتبهت على صوت المؤذن وهو يُرفع مِن منارة مسجد محمد بن زايد، المجاور تماماً لمجمع الكنائس، وكأن الأَمر فيه قصدية التَّعايش والتَّحاور بين الأَديان. هكذا فكرت لحظتها.

كنت أنتظر اللقاء بالرَّاهب، أو القس اللُّبناني الكاثوليكي، وهو كاهن الرَّعية العربية، نضال أبو رجيلي، فقلت أستغل الفرصة

لأرى المسجد المجاور، رأيت عند بوابته رجلين يلبسان اللباس الأفغاني، لحيتهما تصلان إلى صدريهما، وهما يهمان بالدُّخول إلى المسجد، فسلمت عليهما، وبعد رد السَّلام ابتسم أحدهما وقال: «سنلتقي معاً في الجنة»! وأشارا إلى بوابة المسجد، حسبت من العبارة كأنهما يقدمان على تفجيره، خُيل لي هكذا، قدم أحدهم نفسه لي: أزهر محمد، والآخر حسين أحمد.

لقد غدت عبارة اللقاء في الجنَّة، بعد العمليات الإرهابية، مفزعة، فبحسب الانتحاريين، يكون تمني اللقاء قُبيل تفجير الأنفسِ، وله عناوين أُخر مثل: العشاء مع الرَّسول. تلك العبارة التي أَقلقت العراقيين وما زالت تقلقهم، فالعبارة مع هيئة الثِّياب واللحية تشي بمثل تلك الخيالات. لكن أزهر وحسين ظهرا مِن اللَّطافة وخفة الدَّم وهما يتحدثان بالعربية الرَّكيكة. أخذت أميز بينهما وبين الرَّاهب الأب كاندلفو في هيئة اللحية والثياب والأناقة الكاملة، والوعد بالجنة المرتجى والمفزع في الوقت نفسه.

رجعت إلى مكتب الرَّاهب نضال، ولم يعد بعد، فأخذت رقم تلفونه، وظهر أنه بالشَّارقة، زرته في اليوم الثَّاني فوجدته مشغولاً بتعيين موعد لقداس على أحد المتوفين مِن جاليته الكاثوليكية. يبدو راعي الجالية الدِّيني شاباً، أو في مقدمة الكهولة، لا يتجاوز الأَربعين عاماً، يلف الزِّنار على وسط جبته البيضاء. استقبلني بلطافة متناهية، لكنه أخذ يتوجس مني عندما أخذت أسأله عن البناء والجالية وتاريخ الوجود بأبو ظبي.

سألني في غاية الأدب ما معناه: مَن أنت؟! فقلت أنا باحث اهتم في التَّعايش الدِّيني والمذهبي، ولي كتاب في ذلك، وقد لفت نظري هذا التَّجاور المريح بين الكنيسة والمسجد، فبعد حين سيذكر التَّاريخ هذه الإنسانية بين أهل الأديان. مع ذلك شح عليَّ القس بمعلوماته، فقال: لا يوجد لديهم تعريف بالكنيسة. وأظنه أراد التخلص مِن أسئلتي، ومِن حقه ذلك. قاطعنا أحد الجالسين، في غرفته مِن كبار السِّن، والقدماء بأبو ظبي، وهو لبناني أيضاً، قائلاً: وجود هذه الكنيسة قديم بأبو ظبي، منذ العام 1965 أو أقدم مِن ذلك، وكان مقرها على ساحل البحر، قبل وجود كورنيش أبو ظبي بسنوات طويلة.

على جانب مِن ساحة الكنيسة هناك قاعة احتشد أمامها آسيويون، مِن الهنود والفلبينيين وغيرهم، لا وجود لعربي بينهم، وتبدو الكنائس هناك مُيزت على أساس الجنسيات، إضافة إلى تمييزها عل أساس المذاهب. عدت يوم الأحد لأتشبع بمشهد وسماع الأذان مِن مسجد محمد بن زايد وصوت النَّاقوس مِن مجمع الكنائس، وكان لي ذلك، هؤلاء همّوا إلى قاعدة الصَّلاة والتَّوجه إلى المحراب، وأولئك دلفوا إلى قاعات الكنائس حيث يُقام القداس والصَّلاة.

تجد بناء المسجد كأنه أثر معماري مِن العهد السَّلجوقي، حتى لونه لا يدلل على حداثته، بقدر ما يُقدمه كأثر معماري، تعلوه قبة كبيرة رئيسة، وقبتان أصغر منها، وتشهق في فضائه أربع

منائر، ولم أعلم أيهما أسبق في الوجود في هذا المكان: الكنيسة أم المسجد، ومنهما دفع الآخر لهذا التَّجاور! وما لاحظته أن الصَّليب لا يرتفع فوق بناء الكنائس، مثلما الهلال يعلو فوق رؤوس منائر المسجد.

كي لا نضرب أخماساً بأسداس فقد حصل ذلك مداراةً لواقع الحال، على ما يبدو، وربما هو رأي رُهبان الكنائس أنفسهم. فلو اطلعت على أطنان ما كتب على الورق والإلكترون من التعرض بدول الخليج العربي بعامة، وضد الإمارات بخاصة، وبأنهم جهمية، لوجدت لا ضرورة لرفع الصُّلبان على رؤوس الكنائس. مع علمنا اليقين أن الخوف أو القلق على إسلام أهل الإمارات فيه مزايدة ومكايدة في الوقت نفسه، لكنها النُّفوس وما عُبئت مِن كراهية.

تُلخص كلمة الشَّيخ نهيان بن مبارك آل نهيان في حفل افتتاح الكنيسة الإنجيلية (2008) رؤية أبو ظبي الرَّسمية؛ وموقفها مِن أهل الأديان وعنايتها بإسلامها المعتدل، قال: «كانت (أبو ظبي) دائماً ولا تزال وهي بلد آمن، بلد يدين أهله بدين الإسلام الذي يدعو إلى التَّسامح، واحترام معتقدات الآخرين، ولعلَّ هذا من أهم الدَّعائم والمرتكزات التي تنطلق منها بلادنا، التي أدت إلى توفير بيئة صالحة ومناخ طيب ينعم فيه الجميع بالتَّعايش والأمان والسَّلام. إن هذا المبنى الجديد ليس مجرد مبنى عادي، بل إنه رمز روحاني مهم يمثل قوة الانتماء والولاء لدى أعضاء الطائفة الإنجيلية، ويجسد حرصهم على أن يكونوا أعضاء صالحين في

الدَّولة يسهمون بعملهم وجهدهم في تقدم وتطور المجتمع» (عن جريدة الشرق الأوسط).

قيل لي: هناك كنيسة سريانية، أو ما يُعرف بالكنيسة الشَّرقية، وتقع بمنطقة المصفح، وهي بعيدة إلى حدٍ ما عن مجمع الكنائس بالمشرف. سألت صاحبي فازها عما إذاً كانت كنيسة هناك يمكن زيارتها، فاتصل وتحدث بالهندية، فالتفت إليّ قائلاً: «عرفتها»، واتجهنا إليها.

دخلنا إلى باحتها وبدت كأنها مهجورة، خالية مِن حراسة أو أي إنسان، تتطاير العصافير على أغصان أشجار الحديقة المتناسقة الأوراد، وتتزاحم على ناقوط خرطوم الماء، ولم تأبه بوجودنا، فالأمن إذا ما بُسط واستقر يشمل جميع ذوات الأرواح. زينت الحديقة بأوراد جميلة وصفت خطوطها بطريقة أنيقة، لم تؤثر في ألوانها الزَّاهية أشعة الشَّمس وهي تنزل حارقة على الرُّؤوس، ونحن نقترب إلى وقت الظَّهيرة، وسط شهر آب (أغسطس) تماماً.

كانت الأبواب مشرعة، فدلفنا إلى قاعة الصَّلاة، ووقفنا أمام المنصة، حيث يجري القداس، ولا مِن نفر يسألنا، ثم خرجنا إلى الباحة مرة ثانية وطرقنا باباً، تحدث مع نازليه فازها بالهندية، فأتى معنا أحدهم لمقابلة الرَّاهب، الذي اصطلحت عليه بالقس الأصغر، وهو هندي على مذهب الكنيسة السِّريانية، واسمه ساجي توماس أسل فيكار، لأنه قال القس الكبير غير موجود هنا، وهو راعي الكنيسة السِّريانية، واسمه الأب جوهن فيليب أتارايل.

لاحظت أمام القس، على مكتبه، مجسماً زجاجياً شفافاً أنيقاً لخنجر، مِن نوع الذي يشترك في حمله وسط الحزام، كتقليد قبائلي، الإماراتيون واليمنيون والعُمانيون، ويسمى باليمن «جنبية». فعند مغادرتي عدن أُهديت إليّ مِن قِبل الصَّديق اليافعي عبدربه سعد أبو ياسر، وكانت أُعطيت له كهدية مِن قِبل حكومة صنعاء يوم كان أحد المفاوضين على تنفيذ اتفاقات الوحدة اليمنية (22 أيار/مايو 1990)، وعند مطار بيروت، وأنا في الطَّريق إلى لندن يوم 25 حزيران (يونيو) 1992 أخذها مني أمن الطَّائرة، وقاية مِن استخدامها في خطف الطَّائرة، وسلموها لي عند الوصول إلى مطار هيثرو.

سألت القس عمَّا إذا كان هذا مجسم الخنجر، وهو آلة جارحة، يتعارض مع قيمة السَّلام لدى السَّيد المسيح! فأجابني إنه هدية مِن أحد الشِّيوخ. لكن مِن المعلوم أن الجنبية، بحسب ما سمعته باليمن، أنها مجرد أداة تقليدية لزينة الرَّجل وعلامة على الشِّجاعة، لا تُستعمل سلاحاً في حالة الشِّجار أو العِراك. بالفعل لم نسمع بأحد جُرح بها، أو أشخاص تشاجروا بها! مع أن العِقال لدينا بالعراق والكويت والسُّعودية، هو زي اجتماعي له هيبته على الرأس وهو زينة للرِّجال وصار رمزاً للشَّرف والرُّجولة، لكنه كثيراً ما يستخدم في العِراك، وكانت المشاجرة داخل البرلمان الكويتي في أيار(مايو) 2011 شاهداً على ذلك. لم ألحظ ذلك بين الإماراتيين، أو لأني لم أشاهد عراكاً.

طاف بنا القس الأصغر بين قاعات البناء الكنسي وأجنحته، ولاحظت على واجهة كنيسة مار توماس أن البناء تم افتتاحه في آذار(مارس) 2006. بعدها اتصلت بالقس الأكبر، وأبدى الرَّجل استعداده للقاء في الوقت الذي أشاء، واتفقنا على يوم غد صباحاً. استقبلنا بثيابه الكنسية، وهو يشد على وسطه الزِّنار، قال إنه مِن كيرلا الهندية، فقاطعه فازها قائلاً: أنا أيضاً مِن كيرلا! وهي مِن الولايات ذات الطبيعة الجميلة بالهند. فاطمأن راعي الكنيسة أكثر لنا، وأخذ يتحدث عن تاريخ الكنيسة الشَّرقية، وإنها جاءت مِن إيران قبل الإسلام.

أخبرته أنها كنيسة المدائن، طيسفون، جنوب بغداد، وأن التَّبشير مِن هناك بدأ، يوم كان العراق تحت السيطرة الفارسية، قبل الإسلام. وافقني على ذلك لكنه قصد الإمبراطورية الفارسية لا إيران بحدودها الحالية. فالعِراق غير إيران. هذا ربما ما لا يقبله الإيرانيون الفرس، فهم يبالغون إلى درجة يعتبرون اسم العِراق فارسياً أيضاً. وصار لي موقف مع كاتب إيراني في الشَّرق الأوسط، وهو أمير طاهري، عندما ورد حديث عن معنى اسم العِراق، فنبص هو مِن جانبه قائلاً: إنه فارسي. فقلت بعصبية وامتعاض: إن اسم العِراق منحوت مِن أوروك، حيث بلاد سومر وأكاد جنوب العِراق وكفى.

إلى فترة قريبة وراعي الكنيسة السِّريانية، أو الآشورية، النَّسطورية، يُستقدم مِن العراق، حيث المركز هناك، وأن هناك

بالهند ثمانية مليون على مذهبها، وتكفي قراءة كتاب «تاريخ الكنيسة الشَّرقية» للبير أبونا إلماماً بهذا الاتصال، وارتحال المبشرين الأوائل مِن العِراق حتى الهند. وافقني راعي كنيسة القديس مار توماس على هذا العرض، الذي كنت بحثته بتوسع في كتابي «الأديان والمذاهب بالعراق».

إن مار توما، الذي سميت إحدى كنائس أبو ظبي، ومثلها افتتحت بالعين، باسمه هو أحد الآباء المبشرين الأوائل بالمسيحية على المذهب النَّسطوري، ومار معناها السَّيد. ولما اجتاز مار توما، وهناك مَن يعتبره أول مبشري المسيحية بالعراق، إلى الهند قضى شهيداً. كان ذلك أوان أيام مملكة الفرثيين بالعراق، وقد سقطت المدائن بأيدي السَّاسانيين في حدود العام 224 ميلادية. ارتاح كثيراً راعي الكنيسة مِن الحديث حول تاريخ كنيسته وأصولها.

أخبرني أن وجود النَّشاط الكنسي بأبو ظبي بدأ منذ عام 1964 أو 1965، وكانت كنيستهم على الشَّاطئ؛ حيث يمتد الكورنيش الحديث الآن. لاحظت أن للأب الأصغر ساجي فيكار زوجةً وأولاداً، قابلتنا زوجته بتحية وترحاب، ثم حمل الأولاد صينية مِن الحلوى لنا، إلا أن صاحبي فازها أشار لهم بالهندية، ومع ابتسامة كأنها سخرية مِن عدم تقديرهم لرمضان، بأننا صيام، وسكت لأنه تحدث باسمينا معاً، بينما عذري مقبول فأنا على سفر، فالآية تقول: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ (البقرة: 184).

بل هناك فسحة في الدِّين، بعيد عن هذا الإلزام، فالآية تقول: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: 184)، أي يسمح للقادر على الصُّوم أن لا يصوم بشرط إطعام المساكين. هذا ولكم أن تنظروا بين حقيقةِ الدِّين وحقيقة فقه الرِّجال وتحويلهم الدِّين إلى أحجار قاسية. فحق لأبي العلاء المعري (ت 449 هـ) أن يقول في لزومياته:

توهـمت يا مغـرور أنك دَيِّنٌ

علـيَّ يمـين الله ما لك ديـنُ

تسيرُ إلى البيت الحرام تنسكاً

ويشكوك جارٌ بائسٌ وخدِينُ

إن وجود الزَّوجة لدى الرَّاهب معناه أنه ليس كاثوليكياً، فالكنيسة الشَّرقية جوزت للرُّهبان بالزَّواج، بينما ظل الكاثوليك ملتزمين ببتولة السَّيد المسيح. كان اللقاء براعي الكنيسة الشَّرقية داخل بناء آخر، وهو كنيسة القديس أندرو. خرجت مِن لقاء الرَّاهب السِّرياني، مِن ناحية المذهب لا القومية فهو هندي الأصل، وحاولت الاتصال مباشرة براعي الكنيسة القبطية بأبو ظبي الأب إسحق، لضرب موعد معه، إلا أن تلفونه على ما يبدو لا يرد على غير المعروفين لديه، هكذا قلت لمَن وجدته في باحة الكنيسة القبطية.

بحسب أحد العاملين في الكنيسة، أن العمل الكنسي القبطي بأبو ظبي يعود إلى العام 1978، بعد توسع الوجود المصري

المسيحي مِن الوافدين للعمل هنا، والعبادةُ فيها على المذهب الأرثذوكسي، وهم مِن الأقباط وجماعات أُخر، غير المتعبدين بالكاثوليكية. ولوجود أقباط عاملين بالعين كان أول قداس هناك في العام 1979. وكان الحدث الأكبر بالنسبة إلى الأقباط بأبو ظبي هو زيارة البابا شنودة بدعوة مِن الشَّيخ زايد آل نهيان، أسوة بسيد طنطاوي (ت 2010)، مفتي الدِّيار المصرية آنذاك.

سألت عن معبد أو تامبل للهندوس، لكثرتهم، بأبو ظبي والإمارات عموماً، فقيل لي موجود لكنه غير رسمي، بينما وجوده بارز بدبي، وعرفت هناك محفلاً للبهائية، ومكاناً للزَّرادشتية. بمعنى ليس هناك مَن يُمنع مِن ممارسة عبادته على ديانته أو مذهبه، إذ علمنا أن هناك حسينيات للشِّيعة، مع اشتراك المسلمين بالمساجد الكثيرة. أخبرني أحد الشِّيعة الإماراتيين، أن الشَّيخ اللبناني محمد مهدي شمس الدين (ت 2001) سأل رئيس دولة الإمارات الشَّيخ زايد آل نهيان عن وضع الشِّيعة، فرد رئيس الدولة قائلاً: اسألهم هم كيف وضعهم في الدَّولة!

في كل شارع وكل محلة تجد قبة ومنارة شاهقة، منها البيضاء ومنها الذهبية مثل قبة منارة مسجد سلطان آل نهيان، الذي يقع على طريق البطين، حيث قصور الشُّيوخ هناك. ورأيت قريباً منه خيمة عظيمة وطابوراً طويلاً، ولافتة كبيرة مكتوب عليها إفطار الصائم، كلٌّ واحد يأخذ فطوره في علب تحوي ثلاثة أنواع مِن الطَّعام، وهو إفطار رئيس الدَّولة وحاكم إمارة أبو ظبي الشَّيخ

خليفة بن زايد. توقفت قليلاً عند طابور طالبي الإفطار، وتبين أنهم مِن الوافدين الآسيويين والعرب كافة، وليس بينهم إماراتي واحد، وهذا ما أكده لي أيضاً مَن كان معي، وأنا أقطع هذه الطَّريق يومياً تقريباً.

كذلك لفت نظري مسجد نحاسي اللَّون، صُمم على شكل ملوية يحاكي ملوية سامراء شمال بغداد، يقع في مدينة محمد بن زايد، وقفت عنده متأملاً ريازته ورشاقة منارته وشكل الملوية الرَّشيقة، وقيل لي اسمه: مسجد الشَّيخة فاطمة، وكان علامة طريقي إلى الدار التي ألتقي فيها بالسَّيد طالب الرِّفاعي، على مدار أسبوع، أُسجل فيها مذكراته.

لا يقتصر الوجود الكنسي بأبو ظبي على العبادة فحسب، فهناك حرية للنَّشاط الثَّقافي والاجتماعي، عبر المسرحيات والحفلات داخل المجمع الكنسي بالمُشَرف، أو الكنائس الأُخر، بحسب المذاهب والجماعات. سألت أحد الرُّهبان إذا ما كان هناك قلق على الحرية الدِّينية، أو استغلال لها خارج مقاصد ما نشأت عليه الكنائس بأبو ظبي، كحالات تضييق من طرف المسلمين، أو السُّلطة، والأُخرى في حالة الرَّغبة في التَّبشير مِن قبل عناصر مسيحية متدينة! قال: ارتبط وجود حريتنا بالشَّيخ زايد آل نهيان، مِن دون أن ينسى تعظيمه وكلمات الرَّحمة عليه، وأبناؤه حتى هذه اللحظة سائرون على خطاه.

لا يبدو المواطن الظَّبياني والإماراتي بشكل عام ميّالاً للكراهية الدِّينية، بل على العكس نجده منفتحاً ومتعقلاً في التَّعامل مع غير المسلمين. ومِن جانب المسيحيين، الرُّهبان والقساوسة، فليس لديهم أي رغبة أو ميول للتبشير، أو استغلال الحرية الكبيرة الممنوحة لهم. هذا ما فهمت منهم.

يدخل رجال دين إماراتيون الكنائس للتهنئة أو المشاركة في المناسبة، ومِن جانب آخر لم يُمنع المسيحيون، ولا أهل الأديان الأُخر مِن ارتياد المساجد، ومسجد الشَّيخ زايد الكبير شاهد على ذلك. إنه تجاور مريح، فالوافدون مساهمون بنهضة أبو ظبي، مِن خبراء علماء أو أجراء بسطاء، ووجودهم بالآلاف المؤلفة، فكم سيؤثر في أنفسهم وعملهم، لو حرموا مِن ممارسة روحانياتهم! إنه تجاور عقلاني ليس فيه ما يخدش الآخر، ما زال هناك قانون سائد، يخضع له الجميع.

الفصل السَّابع

المَسجد الكبير

اللّٰه واحد فالأَذان واحد!

«كان قبل توحيد الأَذان
يبدو المؤذنون لاختلاف الوقت
ولو لثوانٍ كأنهم الدُّيوك المخربطة»

(أحد المصلين)

أول ما تُغادر مطار أبو ظبي إلى المدينة، تواجهك كتلة مِن قباب بيض ناصعة تعلو في الفضاء متباينة الحجوم، تتوسطها قبة تبدو كأنها الأم؛ وبقية القباب تدور في فلكها كالأبناء. هكذا تراها مِن بعيد، قد تُشغل بحساب عددها وأنت تراقبها، عددتها بخمس وأَربعين قبةً، وتاه عليَّ الحساب. تحسب البناء أثراً معمارياً، لكن مِن أين لأبو ظبي آثارُ عمارة، فكلُّ ما كان فيها برج وحصن، هو قصر الحكم، وأعشاش حوله، هذا حتى أواسط السِّتينيات مِن

القرن الماضي! إنه المسجد الكبير، اختيرت له مساحة شاسعة وسط أبو ظبي، أو سيكون وسط أبو ظبي مع اكتمال العُمران القائم على قدم وساق.

في رحلتي الأخيرة (11 آب/أغسطس 2011) وصلت أبو ظبي مساء الأربعاء، والعطلة الرَّسمية بدولة الإمارات هي الجمعة والسَّبت، أما الخميس فيبدو خاملاً أيضاً، وخصوصاً الوقت كان صياماً، فلا تجد أحداً قبل ساعة الفطور، لذا عزمت على الذِّهاب إلى دبي للقاء بالأخ والصَّديق الإعلامي تركي الدِّخيل، بحسب اقتراحه لي عند الاتصال به ليلة الوصول. تحركنا مِن مكتبه في «مركز المسبار للدِّراسات والبحوث» إلى مدينة دبي الإعلامية، حيث قناة «العربية»، مقترحاً عليَّ حضور تسجيل حلقة مع النَّاشطة السُّعودية في حقوق المرأة منال الشَّريف، وكانت موقوفة لدى الشُّرطة السُّعودية بسبب قيادتها للسَّيارة بمنطقة الدَّمام، حيث مكان عملها.

قال تركي: إنها فرصة ترى الحلقة قبل بثها، فجلست خلف السِّتارة، وكنت مِن قبل ثلاثة أعوام ضيفاً في برنامج «إضاءات» الذي يُقدمه الدِّخيل نفسه، وما حسبت أن كلَّ هذا العدد مِن الفنيين يراقبون اللقاء كلمة كلمة، ويتحدثون في ما بينهم: لو قال هكذا، وأحسن في هذه العبارة! وأخفق في تلك! لفتت نظري لغة الشَّريف السَّليمة، مِن ناحية ضبط مخارج الحروف والنَّحو. كانت تتحدث بلسان فقيه مضبوط، ليس مِن المعاصرين، الذين كثرت

أخطاؤهم النَّحوية مثل أخطاء المذيعين والمذيعات في القنوات الفضائية، الذين لا يميزون بين الوجود والتَّواجد، بل مِن القدماء، الذين لا يبدأون في درس الفقه إلا بعد ختم الأجرومية، والتمكن مِن اللغة.

في منتصف البرنامج قالت الشَّريف، التي أحسبها مِن الاسم مكية الموطن حيث قلعة الأشراف هناك، لمقدم البرنامج: أمسح هذا مِن فضلك. لا أتذكر ما قالت، لكننا كنا مع استمراريتها وتعقيبها أو تصحيحها لما تريد. وحصل حيص وبيص بين الفنّيين، عليهم العودة إلى ما قبل تلك العبارة، التي خشيت الشَّريف مِن المحتسبين ببلدها أن تؤخذ عليها تهمةً.

كان الدِّخيل والآخرون قلقين مِن أن لا تُجاز الحلقة، لأنها تلامس قضية جدالية بالمملكة العربية السُّعودية، وهي قيادة المرأة للسَّيارة. تركنا في مكتبه بقناة العربية ليتباحث بالأمر مع مديرها الكاتب عبدالرَّحمن الرَّاشد. ولا أدري ما حصل في ما بعد، ولم أتابع الحلقة لأني شاهدتها حيَّة عند تسجيلها. بعدها اقترح تركي عليَّ المبيت عنده بدبي، بعد سهرة رمضانية طويلة مع مجموعة مِن فتيان الخليج.

في زاوية مِن زوايا الصَّالة لفت نظري كتاب ضخم، لم تقع عيني على مثل حجمه مِن قبل، أبيض اللون ومغلف بغلاف سميك، عنوانه: مسجد زايد الكبير. كان ذلك الكتاب وراء زيارتي

المتكررة، خلال أيام وجودي بأبو ظبي إلى المسجد. سألت تركي: هل يباع مثل هذا الكتاب في المكتبات، وكم سعره؟! قال: لا يباع إنه طُبع بنسخ محدودة ومرقمة، ليست للبيع، ويمكن للمهدى له اختيار الرَّقم، إذا كان متوافراً. وحصلت عليه لأني كتبت مقالةً عن المسجد قبل اكتماله، فدعيت لاستلام نسختي. ثم أضاف: إذا تحب تحمله معك إلى أبو ظبي لقراءته والنَّظر في صوره، بشرط أن تحافظ عليه وتعيده سالماً بيدك! أعجبتني الفكرة، وبالفعل قبل مغادرتي الإمارات حملته إليه مغلفاً بكيس خاص بحفظ الملابس، خشية مِن إيذائه، فكان لونه أبيض ناصعاً مثل المسجد تماماً.

سألت مدير هيأة الثَّقافة والتُّراث، أبو خلف محمد خلف المزروعي، ومِن عادة الظَّبيانيين، وربما الإماراتيين عموماً، يُكنون باسم الأب لا باسم الابن مثلما هو الحال بالعِراق، عن المسجد وضخامة البناء وفخامة التَّفاصيل، ولماذا كلُّ هذا وأبو ظبي كثيرة المساجد، وصغيرة المساحة، قياساً بالمدن التي شُيِّدت على أرضها مساجدُ شاسعة المساحة! فهناك مَن يعتبره نوعاً مِن التَّبذير، أو التَّرف العمراني، ويطرحون السُّؤال دائماً هل: تحتاج أبو ظبي إلى مسجد بهذه الضَّخامة والفخامة؟ وهو يُعد رابع مسجد في العالم! هذا ما سمعته مِن مسؤول مكتبة المسجد السُّوداني عبدالله أحمد أبو بكر، قال إنه يأتي الرَّابع بعد مسجدي الحرمين، مكة والمدينة، ومسجد استانبول العثماني، الذي كان في الأصل كنيسة أيا صوفيا، ومسجد الحسن الثَّاني بالمغرب.

أجابني المزروعي قائلاً، وكنا بمجلسه على دعوة إفطار: كثيراً ما واجهتنا الأسئلة بخصوص المسجد وتكاليفه وشساعة مساحته، لكن أليس هناك كنائس عظيمة الحجم وراقية وفخمة الزَّخارف! واحتفظت بفن معماري إنساني على طول القرون؟! فلماذا لا يكون لدينا مثل تلك الصُّروح العُمرانية؟ ومِن حق إسلامنا أن نضاهي ونباهي به! كذلك أن أبو ظبي بحاجة لمعلم حضاري يتوسطها، يجذب عيون العالم، وليس في الدِّين ما يمنع، فاذهب إلى المسجد وسترى السَّائحين وحدانا وزرافات.

أتذكر يومها عندما حضر المزروعي لتوقيع كُتبي في معرض أبو ظبي للكتاب، نيسان(أبريل) 2011، وكان مشكوراً على هذه المبادرة، مِن دون أن أقدم إليه دعوة، كي لا أشغله، مع أني في عشية التَّوقيع كنت معه بوجود الصَّديق المشترك الدُّكتور هيثم الزُّبيدي، رئيس تحرير موقع «ميدل أيست أون لاين». وقعت له الكتب بعبارة: «إلى راعي الثَّقافة»، لاحظته غير مرتاح للإهداء، وبالفعل لما نظر فيها قال: «لستُ أنا راعي الثَّقافة إنَّما راعيها محمد بن زايد».

على قاعدة الشَّيء بالشَّيء يُذكر، في عشية ذلك اللقاء، وكنا في دار المزروعي دخل رجل أهيف، تحف به حاشيته، ولم أكن أعرف أنه كان وراء ذلك الفلم الهائل «تيتنيك»، بل لم أكن أعرف اسمه مِن الأساس، على الرَّغم مِن أنني شاهدت الفيلم مرتين، وأعجبت أيما إعجاب به، لكن عيبي أنني لا أحفظ أسماء

المخرجين عند مشاهدة الأفلام، ويبقى اسم الممثل في الفيلم هو الرَّاسخ في الذاكرة، وكم كانت بطلته كيت جذابة! كنا على موعد مع المخرج جيمس كاميرون. ففي لحظة التَّعارف به، قلت: هل سمعت بشعراء عراقيين رثوا السَّفينة وركابها، وفي شهر غرقها؟! فرد قائلاً: هل تُرجم الشَّعر إلى الإنكليزية؟! قلت: لا أعلم، ولكن مِن المرجح ليس مترجماً، والقليل مِن العِراقيين والعرب يعرفون به، فكيف بالأجانب.

لقد رثى تيتنيك النَّجفيان ولادة ونشأة: الشَّيخ علي الشَّرقي (ت 1964)، والشَّيخ محمد رضا الشَّبيبي (ت 1965)، وكلاهما تبوّءا في الدَّولة العِراقية مراكزَ مهمة في الثَّلاثينيات مِن القرن الماضي وما بعدها، والشَّبيبي كان موفد العراقيين إلى الحجاز، للموافقة على تولي الأمير فيصل الأول (ت 1933) عرش العِراق. وبعد حين رثاها جميل صدقِ الزَّهاوي (ت 1936).

أقول: لو كان كاميرون يعلم بالقصيدتين لربَّما استوحى مشهداً وأضافه إلى فلمه، وهو يُعد من الرَّوائع في عالم السِّينما! فبحسب حاشية ديوان الشَّيخ علي الشَّرقي أنه نشر قصيدته «دمعة على مستر سيد» في صحيفة «جبل عامل»، ثم في مجلة «العرفان» الصيداوية (نيسان/أبريل 1912)، مع علمنا أن الباخرة غرقت في 15 نيسان(أبريل) 1912، فربما كان التَّفاوت بين الحادثة والقصيدة أياماً لا أكثر، وليس هناك برق ولا فاكس ولا بريد

إلكتروني، ولا وسيلة سوى الزائرين للضَّريح أو الجنازين أو طلبة العِلم الوافدين على النَّجف بكثرة مِن لبنان.

قال الشَّرقي راثياً داعية السَّلام مستر سيد، وكانت خمسة وخمسين بيتاً (ديوان علي الشَّرقي):

رنت عيني لمبسمه فأثرت ألـم تـرها تلـون بالعـقـودِ

ترفع عِقده فأطحت عِقدي ولوحَ جيده فلويتُ جيـدي

وفي الباخرة قال:

أسيدة البواخر عنك تُفدى لو اكتفت الرَّزية بالمسـودِ

وقلَّ وأنتِ سـيدة الجواري بحزنك أن يطأطأ بالبنـودِ

بعد أربعة شهور مِن غرق تيتنيك نشر الشَّبيبي قصيدة في مجلة «لغة العرب» (آب/أغسطس 1912)، وكانت أربعين بيتاً وبيتاً، ومنها (لغة العرب):

بأبيك أقسم يا ابنة البحر الذي

وأراك كيف رأيت فـتك أبـيك

ما حط ثقلكِ في حشاه إهانة

لكـنـه فـرط احـتـفـال فـيـكِ

وكأنـكِ القـمرُ الذَّي ألقـى به

ليضـيئنا فلك السَّماء أبـوكِ

بعد الشَّرقي والشَّبيبي بحوالى عقدين مِن الزَّمن رثى الشَّاعر المتفلسف الزَّهاوي «تيتنيك»، بمناسبة ذكراها التَّاسعة عشرة، في «نشيد الغرقى» (16 آب/أغسطس 1931)، ومطلعها:

ما بنا خـوفٌ إذا المـوتُ دنا نحن للموتِ كما الموتُ لنا

كانت أمسية عامرة مع مخرج تيتنيك، ووعدته أن أرسل إليه القصائد، لكنها مواعيد تشبه تبادل الكارتات، في هذه الأيام، عليك أن تعرف الشَّخص ولا عليك أن تتصل به، فربما وصلته وسأل ما هذه ومِن أين جاءت، سميتها بصداقات الساندويش تأكلها وأنت سائر وترمي بالورقة، تلك ظنوني وما زالت في هذه العلاقات وهي ضرب من ضروب النِّفاق، ولعل الرَّجل كان غير ذلك. هذه أبو ظبي أخذ العالم يَمك إليها، فمِن غير كاميرون ونائلي جائزة النُّوبل مرَّ كبار في عوالم الفنون والكتابة والعُمران والسَّلام، وما ورد واحدٌ مِن الشَّواهد.

عودة على بدئه، سألت عن مساحة المسجد فقيل تُعادل خمس ساحات لكرة قدم، وفي كتاب المسجد تبلغ المساحة خمسة وأربعين ألفاً وخمسمائة متر مربع. يسع المصلى الرَّئيس، الذي تعلوه القبة الكبيرة، سبعة آلاف ومائة وستة وعشرين مصلياً، يصلون على سجادة، تُعد أكبر سجادة في العالم، مساحتها سبعة آلاف ومئة وتسعة عشر متراً، وحُكيت يدوياً مِن قبل حاكة متخصصين بجمهورية إيران الإسلامية، وعددهم يصل إلى خمسين حائكاً، صُرف فيها ثلاثون طناً مِن الصُّوف، ونصف هذه الكمية مِن

القطن، مزركشة بخمسة وعشرين لوناً طبيعياً، وقاعدتها خضراء اللَّون، وبحسب الكتاب عمل الحائكون في حياكتها مدة سنتين متواصلتين. فهناك مَن يرى أن الإيرانيين بسبب حياكة السِّجاد تعلموا طول البال، حتى قيل عن الإيراني: يذبح الجمل بالقطنة. هذا ما سمعته مِن عالم الدِّين السَّيد طالب الرِّفاعي، فهو الأكثر خبرة وعِشرة معهم.

تعلو المُصلين ثريا، أو نجفة بحسب لغة أهل اليمن، عظيمة الحجم، تخشى الوقوف تحتها، قيل لي: هي الأكبر في العالم أيضاً، قطرها عشرة أمتار، وارتفاعها خمسة عشر متراً. يغلب على الظَّن أن هناك مِن المصلين مَن انشغل فكره بوجودها فوق رأسه، وهي بهذه الضخامة، وربما صار حاله حال الذي قال لانشغاله بغير الصَّلاة: «اثنتين صليت الضحى أم ثماني». أما صحن المسجد فيستوعب اثنين وعشرين ألفاً وسبعمائة وتسعة وعشرين مصلياً.

تتخلل أروقة المسجد غابات مِن الأسطوانات، تنتهي كلٌّ منها بزركشة مِن سعف النَّخيل، فتبدو سقوف المسجد محمولةً على رؤوس النَّخيل، وهو نوع مِن التَّجاذب أو التَّماثل مع البيئة، وربما قصد المصممون محاكاة أول عمارة للمسجد في الإسلام، وهو المسجد الجامع النَّبوي، فكان مِن سعف وجريد النَّخيل.

يبلغ عدد أعمدة قاعة الصَّلاة الرَّئيسة اثنين وثلاثين عموداً، منها البارزة وسط البهو، ومنها المحفورة في الجدران لا تميزها

إلا بعد الاقتراب منها. رأيت المصلين يتكئون عليها، وهم ينتظرون وقت الأذان عند الظَّهيرة. اقتربت مِن الورود المزركشة بها الأعمدة أو الاسطوانات، والمُحلاة بالألوان الطَّبيعية، والمرصعة بالأحجار الكريمة. استخدم فيها: الأزود الدَّاكن، والعقيق الأحمر، والعقيق الطَّحلبي، وبألوان مختلفة. أظنها ستبقى ثابتة على مدى الزَّمن، مثلها مثل ألوان بوابة عشتار ببابل، التي تجدها معروضة في متحف برلين، وكأنها طليت البارحة.

تبدو أرضية الصَّحن مغطاة بسجادة رخامية على طوله وعرضه، مزينة بالورود، وتحيط بها المنائر الأربع، الشاهقة بعلو مائة وسبعة أمتار، وتحيط بها أروقة تحوي ألفاً وستة وتسعين عموداً أو إسطوانة ضخمة. حُليت تفاصيل المسجد بأطياف مِن الزُّجاج الملوّن، والعاكس. صمم المسجد بما يتجاوب مع البيئة الحارة وسطوع الشَّمس، حيث كسيت أرضه بأحجار مرمر لا تمتص الحرارة، عندما تلمسها بيدك تشعر ببرودتها، وأنت قادم مِن الخارج اللاهب في عزِّ القيظ.

يبلغ عدد قباب المسجد، بمختلف أحجامها، خمساً وثمانين قبةً، لا خمساً وأربعين مثلما عددتُها وأنا في الطَّريق المحاذية. منها قُبة عظيمة الحجم، تبدو كأنها الأم بين أبنائها مثلما تقدمت الإشارة، وأحفاد اثنان أصغر حجماً على جهتيها، ثم تأخذ الأحجام بالتَّنازل، وتجدها صفوفاً كلٌّ صف يحضن ما قبله وهكذا. فترى مِن خارجه أربع قباب موزعة على زوايا المسجد الأربع، ثم الصُّفوف

الدَّائرة، تحت أصل القباب الرَّئيسة الثَّلاث، وحولها، لكن مهما حاولتَ عدّها ستخطئ في الحساب، مثلها مثل الأروقة أيضاً.

هناك تراتيبية دقيقة في توزيع القباب بحسب حجومها، تظهر، بحسب وصف كتاب المسجد، كأنها موكب مِن القباب متدرجة الحجوم، وهو على ما يبدو أكثر مساجد العالم بعدد القباب. تعبير دقيق عن مهمة القباب، إضافة إلى الجمالية والظِّل وهيبة العُمران، يقول: إنها تسكب الضَّوء داخل المسجد سكباً، حيث الانعكاس على البياض والحجوم الكروية. هناك حرص على حضور الماء، في أحواض واسعة تحيط بالمسجد، يُزيّنها فناء شاسع مِن الحدائق، واستخدام الرُّخام الأخضر بارزٌ في تزيين عمارته.

مثلما أثرت زيارة الشَّيخ زايد لأوروبا، العام 1953، على ذائقته في العُمران والتمدن، وكان لا يزال والياً على العين، وليس أمامه سوى أفلاج الماء الشَّحيح والكثبان الرَّملية، كانت زيارته إلى بلاد المغرب ورؤيته للجامع الكبير، جامع الملك الحسن بالدَّار البيضاء، العام 1989، تأثيراً في تشييد هذا الصَّرح. فبعد أن حُدد المكان، في قلب أبو ظبي، ليكون محورها العُمراني، طُرحت مناقصة التَّصميم، على معماريين مِن: العراق، والأردن، وسوريا، ومصر، وحضر خمسة وخمسون معمارياً مِن أنحاء العالم، واختير منهم ثمانية عشر معمارياً لتنفيذ المهمة، فأنجز، وما زال غير

مكتمل في العديد مِن تفاصيله الدَّقيقة، فقد شهدت العمل جارياً في تفاصيله الصَّغيرة.

أقمت في فندق يُقابل المسجد تماماً، اسمه شنكَريلا. سألت عن معنى شنكَريلا فقيل لي: اسم يُطلق بالهند عادة على الهندوس. يفصل بين الشنكَريلا والمسجد الكبير مسطح بحري، يُطل عليه مِن غرف الفندق، ومع الغبار والضُّباب، يتغير لون القباب، وعلى الخصوص عند الغروب، فتبدو كأنها مظللة، ما يضفي هذا المشهد جمالية على عِمارة المسجد بشكل عام. كم يكون المشهد جميلاً عند ساعات الفجر، وأول شروق الشَّمس، فيبدو الفضاء الذي يملأه بياض المسجد مضيئاً قبل ولوج النَّهار.

قبل الدُّخول مِن البوابة الرَّئيسة لمسجد زايد الكبير، وكان وقت الظَّهيرة، سألني أحد الآسيويين العاملين في الحراسة على ما يبدو، بالعربية والإنكليزية الرَّكيكتين، الآن وقت الصَّلاة الدُّخول للمسلمين فقط. فتركته ودخلت، ولم يعترضني أحد بسؤال مثل هذا داخل المسجد. فما فهمته أن المسجد مفتوح للجميع، ربما ما عدا بهو الصَّلاة في وقت الصَّلاة، وكم صادفت مِن الأوروبيين يجولون في أروقته. إن لمنع غير المسلمين قاعدة فقهية عند المذاهب، ومنها المذهب المالكي، الذي عليه عبادة أهل أبو ظبي، تقول بالمنع أو عدم التَّحبيذ، إلا المذهب الحنفي فهو يُجيز دخول غير المسلمين حتى إلى الكعبة.

استفاد الإمام أبو حنيفة النُّعمان (ت 150 هـ) مِن رواية عن عصر النَّبي أجازت الاختلاط الدِّيني داخل المسجد النَّبوي، وهو المسجد الأم فكيف بالمساجد الأُخر، وهو بمفهومي ونظرتي إمام التَّسامح والسُّهولة، وفقهه قادر على التَّعايش مع أهل الأديان بلا منغصات، مثل تحريم دخول المساجد على غير المسلمين، أو لا تجوز الصَّلاة داخل الكنائس إلى غير ذلك.

جاء في الرِّواية، التي استشهدتُ بها في أكثر مِن كتاب ومقالة، عن صلاة الرُّهبان بالمسجد النَّبوي عن ابن هشام: «لما قدموا على رسول الله (ص) المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات (برود من اليمن - المحقق) جبب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب. قال: يقول بعضهم لما رآهم من أصحاب النبي، صلى الله عليه وسلم، يومئذٍ: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله، يصلون، فقال الرسول، صلى الله عليه وسلم، دعوهم! فصلوا إلى المشرق» (السِّيرة النَّبوية).

كان وجود مسجد زايد الكبير، وأَحياناً يُسمَّى بمسجد أبو ظبي الكبير، بالأساس، لتَّعظيم الله أولاً، ولتأهيل أبو ظبي أن تكون عالمية بعمرانها وتمدنها، ومضاهاة ما لدى أهل الأَديان الأُخر مِن تُراث، بحسب ما سمعته مِن رئيس هيأة الثَّقافة والتُّراث، فكيف يمنع أهل الأديان مِن دخول المسجد، بهذه الحجة أو تلك؟!

قيل لي: إن الأَذان الرَّئيس يُرفع مِن منارة المسجد الكبير، فأبوظبي مِن المدن، أو الإمارات، القلائل التي وحّدت الأَذان، فحين رفعه مِن مئذنة المسجد يُرفع عبر الرِّسيفر مِن مآذن المساجد الأُخر في وقت واحد، وهي خطوة صحيحة، فلو وقفت وسط مدينة مكتظة بالمساجد، مثل مدينة الفلوجة بغرب العِراق، أو جدة بغرب المملكة العربية السِّعودية، لتهت بين الأَصوات، مِن ناحية التَّوقيت والتَّصادم في الأَصوات، ومِن النَّاحية الجمالية أَيضاً. فما أن رفع هذا الشَّهادة الأُولى إلا تجد الآخر قد بدأ بالتَّكبير.

بمعنى تصبح هناك فوضى في النِّداء إلى الله، مع أن الصَّلاة نظام وخشوع. سمعت أحد الظُّرفاء الإماراتيين معلقاً: «كان قبل توحيد الأَذان، يبدو المؤذنون، لاختلاف الوقت ولو لثوانٍ، كأنهم الدُّيوك (المخربطة)، يملأون الفضاء صياحاً غير منتظمٍ، بالتقديم والتَّأخير. فالمؤذن واحد ينادي إلى عبادة الله الواحد».

سألت داخل المسجد عمَّا إذا كان المؤذن، الذي يعم صوته أبو ظبي كافة، مختاراً صاحب صوت شجي خشوع، فأُخبرت أن اسمه محمد ألياس، يتحدر مِن باكستان، ويمتاز بصوت جميل، وهذا ما جعل ولي عهد أبو ظبي ورئيس مجلسها التنفيذي الشَّيخ محمد بن زايد يأمر بتعميم صوته في صلاتي الفِجر والعصر، أو العكس، فلم أتذكر ما قيل لي، لكن في أوقات أُخر يرفع الأذان مؤذن آخر.

كان مدير مكتبة المسجد عبدالله أحمد أبو بكر لطيفاً للغاية كبقية السُّودانيين، المبتلين بدعاية الكسل وحب النُّوم، مثلما ابتلينا نحن العِراقيين بدعاية ممارسة العنف والثورات، فلما حدثني عن الأذان، وصوت المؤذن، قلت له ملاطفاً: أظن، بحسب ما نسمع مِن دعاية على السُّودانيين، لا ينفعكم أذان السُّنة ولا الشِّيعة: فالأذان الذي يُرفع مِن هذا المسجد فيه: الصَّلاة خير مِن النُّوم عند الفجر، وفي أذان الشِّيعة: حي على خير العمل، في كل أذان للصَّلاة! ضحك مكذباً الدِّعاية. يعمل في المكتبة موظف اسمه إسلام أزهر، مصري الجنسية، فلما سألته عن اسمه قال: إسلام. فقلت: وهل الآخرين كفار؟! قال: هكذا سمّاني أبي.

كنت عملت لفترة طويلة، تصل إلى عشرة أعوام مع أصدقاء سودانيين بعدن، ونحن نُدرّس في المدارس الثَّانوية، ونشاركهم ويشاركوننا بنشاطات حزبية سياسية، ولم أجد فيهم سوى الحرص على العمل، والإخلاص في الصَّداقات والرُّوح الرِّفاقية، إلا أنهم كانوا يميلون إلى اللامبالاة عند الظُّروف غير الحَرجة، أو يميلون إلى تسهيل الحياة، وأجد في سلوكهم هذا فلسفة، فالحياة مِن الشِّدة لا تُغلب إلا بالسُّخرية منها.

ما زالت مكتبة المسجد قيد التَّكوين، وهي ليست خاصة بما كُتب عن المسجد، مثلما ظننت في أول الأمر، وجلبت إليها مخطوطات مصورة مِن المكتبة البريطانية وسواها مِن المكتبات

الكانزة للمخطوطات العربية والإسلامية، وعلى أمل أن تتطور لتصبح عامرة مفتوحة أمام الباحثين.

في نهاية زيارة المسجد توجهت صوب ضريح الشَّيخ زايد آل نهيان، مؤسس أبو ظبي الحديثة ومنشئ مسجدها الكبير، وكان ضريحه عبارة عن نموذج مصغر مِن المسجد نفسه، مكتوب هناك بخط واضح ممنوع التَّصوير، ولما حاولت التَّصوير منعني الحارس الآسيوي، ثم صار لي كالظل، ولم أستطع إقناعه بأي وسيلة.

تعلو الضَّريح ثلاث قباب منخفضة قياساً بارتفاع المسجد، ناصعات البياض، قبة كبيرة وإلى جانبيها قبتان أصغر منها، محاكاةً لتراتيبية قباب المسجد، مثلما تقدم. نُقشت على واجهة الضَّريح العبارة الآتية: «ضريح المغفور له الشَّيخ زايد بن سلطان آل نهيان، مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة، لبى نداء ربَّه عزَّ وجلَّ ليلة العشرين مِن شهر رمضان 1425 هـ الموافق الثَّاني مِن تشرين الثاني (نوفمبر) 2004. تغمده الله بواسع رحمته وأدخله فسيح جناته».

جُعل قبر الشَّيخ زايد خارج القباب، مسوّراً بشبك حديد منخفض، رأيت سائحين وقفوا لقراءة الفاتحة، مِن نساء ورجال أندونيسيين. أخبرني أحد الظَّبيانيين، إنه قبل الشُّروع بدفن الشَّيخ زايد اجتمع حكام الإمارات السَّبع، وانتخبوا نجله الأكبر الشَّيخ خليفة بن زايد رئيساً للدَّولة، مِن دون تأخير، ثم تمت المراسم

واستقبلت التَّعازي به. بدأ العمل في تشييد المسجد العام 1996، وأُقيمت أول صلاة فيه العام 2007، وتم العمران بهيئته القائمة العام 2008.

الفصل الثَّامن

مدينة مصدر
حلم البيئة النَّظيفة

«بوسعنا تأهيل أبو ظبي
لاستغلال شمسها ورياحها
تدريجياً تتحول الفكرة إلى واقع عملي»

(مدير مدينة مصدر)

ليس أسطع مِن الشَّمس وأشد مِن الرِّيح ببلدان مثل بلدان الشَّرق عموماً، ومنهما يمكن توليد طاقة خالية مِن ثاني أوكسيد الكاربون، وهو مادة التَّلوث، لكن لآلاف السِّنين والعنصرين المهمين يذهبان هباءً، الشَّمس تحرق الأَرض وتصيب البشر بضربتها وتغيب، والرِّيح تعصف حتى تهدأ لتصول في موسم قادم. بسلطان العلم يمكن صنع الأشياء مِن أضدادها، بعد ترويضها بالعِلم، كالحصول على البرد مِن الشَّمس الحارقة، ولا ننسى

القول الشَّهير: «وداوها بالتي كانت هي الدَّاء»، فبحرارة الشَّمس تُشغل مبردات الهواء، وأن تدور المكائن بالرِّياح العاصفة، التي تحمل التُّراب وتعصف بالشَّجر والأبنية فتُعادل ما تتركه مِن خراب وراءها بفائدة للإنسان، وهو تخزين الطَّاقة.

أتذكر أن أحد العراقيين ضاق بشمس عدن عاصمة اليمن الدِّيمقراطية، وحرارة المكان اللاهبة، فتمنى الظِّل ولو في اللَّيل، وهو تعبير عميق وفيه بلاغة الشَّاعر عن شدة الحرارة وقسوة الشَّمس. كذلك كانت جزيرة سُقطرى، في عرض المحيط الهندي، تُعطل لثلاثة شهور ويزيد، في موسم الرِّياح، فلا سفينة تجري ولا طائرة تطير، عواصف تجعل أهل الجزيرة يسبتون في منازلهم لشهور، ولم تسلم مِن الخراب.

لكن تلك الرِّياح المتجددة، في مواسم محددة، لا دور لها سوى الإيذاء، بينما طواحين الهواء استخدمت منذ زمن ليس بالقريب في إنتاج الطَّاقة الكهربائية، وتدوير ما سميت بالطَّواحين إلا نحتاً مِن الطَّحين (الدَّقيق)، فمعنى الطَّاحونة الرَّحى (الفيروزآبادي، القاموس المحيط). قرأت في «مروج الذَّهب ومعادن الجوهر» لأبي الحسن المسعودي (ت 346 هـ) أن الخليفة عمر بن الخطاب (اغتيل 23 هـ) قال لقاتله أبي لؤلؤة فيروز (قُتل 23 هـ): «ألم أُحدث عنك أنك تقول: لو شئتُ أن تصنع رحى تطحن بالرِّيح لفعلت! فقال أبو لؤلؤة: والله لأصنعنَ رحى يتحدث بها النَّاس»(مروج الذَّهب)

إلى آخر الرِّواية، التي وردت في اغتيال الخليفة. ولنفترض أن الخليفة عمر لم يقلها، وأنه لم يسل أبا لؤلؤة، لكن ألا يكفي أن المسعودي، في النصف الأول مِن القرن الرَّابع الهجري، أنه تحدث في صناعة رحى تعمل بالرِّيح! مع أن الرَّواية بالمعنى نفسه وردت لدى محمد بن جرير الطَّبري (ت 310 هـ)، ومؤرخين آخرين. وأرجو التركيز على العبارة: «رحى تطحن بالرِّيح»!

لا أعلم إذا ما كان موضع الطَّاحونة بالقسطنطينية، بحسب ما ذَكره ياقوت الحموي (ت 626 هـ) في «معجم البلدان» مِن وجود طواحين الهواء فيه، أو الاسم يوحي بهذا المعنى! أو موضع الطَّواحين مِن أعمال فلسطين، بحسب ما ذكره أبو الحسن المسعودي (ت 346 هـ)، وهو يتحدث عن معركة وقعت بين خمارويه بن أحمد بن طولون وجيش الخلافة العباسية القادم مِن بغداد السنة 271 هـ.

يروي الرَّحالة ناصر خسرو المرزوي (ت 481 هـ) عن القرامطة في الأَحساء، في كتابه «سَفر نامة» الآتي: «وفي الحسا مطاحن مملوكة للسُّلطان، تطحنِ الحبوب للرَّعية مجاناً، ويدفع فيها السُّلطان نفقات إصلاحها، وأُجور الطَّحانين». والله أعلم هل كانت طواحين تعمل بالرِّيح أم طواحين يدوية؟! في كلِّ الأحوال لا بد من أن تكون طواحين ضخمة، أما إذا كانت على شكل الرُّحى المنزلية فلا عبرة في أن تكون مملوكةً للسُّلطان.

نعم استُخدم الماء الجاري قديماً في تحريك النَّواعير، وابن الأثير (639 هـ) يذكر في «الكامل في التَّاريخ» نواعير هيت، القائمة حتى هذه اللحظة بغربي العِراق، ووقفت عليها وهي تدور بلا توقف، العام 1975، وحذارِ حذارِ أن تقف إلى جانبها وتتمعن بدورانها، فيصيبك الدَّوار وقد تهوي داخل الماء بعد تهشم جسدك بأخشابها.

كذلك استخدمت الرِّيح، ومنذ القِدم، في تسيير القوارب والسُّفن الشِّراعية، وكم يكون إبحارها سريعاً إذا صادف اتفاق بين اتجاه الرِّيح وجريان النَّهر. استُخدم ذلك النُّوع مِن الحركة في وقت كان النِّفط فيه مادةً خسيسة ونحسة، ويستخدم في إشعال النِّيران ورميها على العدو في الحرب، إلى درجة أن المنام أو الرُّؤيا بالنِّفط يعني «مال حرام وقيل امرأة فاسدة ومَن صب عليه نفطاً أصابه مكروه من جهة السُّلطان» (ابن سيرين، تفسير الأحلام الكبير). ويُغلب على الظَّن أن كتاب تفسير الأحلام مِن الكتب المنسوبة.

كذلك جاء في كتاب «المحاسن والمساوئ» لإبراهيم بن محمد البيهقي (ت بعد 320 هـ): أن الشَّاعر العباسي عبدالصَّمد بن المُعذَّل (ت 240 هـ) كتب إلى والي النَّفاطات (فريق من الجيش يرمي بأدوات فيها نفط ونار عند الحرب) أيام الخليفة المعتصم بالله (ت 227 هـ)، ووزيره الفضل بن مروان (ت 250 هـ)، على اعتبار أنها مِن مساوئ الولايات:

لعمري لقد أظهرت تيهاً كأنما

توليت للفضل بن مروان منبرا

وما كنت أخشى لو وليت مكانه

عليَّ أبا العباس أن تتغيرا

بحفظ عيون النِّفط أحدثت نخوةً

فكيف به لو كان مسكاً وعنبرا

دَعِ الكبرَ واستبق التَّواضع أنه

قبيح بوالي النِّفط أن يتكبرا

كان سبب تلقيب النَّحوي إبراهيم بن محمد الواسطي (ت323هـ) بنفطويه «لدمامته وأدمته (سواده) تشبيهاً له بالنِّفط» (ابن خلّكان، وفيات الأعيان). وقال الشَّاعر هاجياً:

مَن سرَّه أن لا يرى فاسقاً

فليجتهد أن لا يرى نفطويه

أَحرقه الله بنصفه

وصيرَّ الباقي صراخاً عليه

فتأمل كيف كان العرب ينظرون إلى النِّفط بأنه مادة نحسة، قاسوا ذلك على اللَّون والرَّائحة، حتى إن اللُّغوي والرَّاوية أبا سعيد عبدالملك الأصمعي (ت 216 هـ) قال هاجياً إحداهنَّ:

كأن بـيـن إبـطـهـا والإبـط ثوباً مِن الثُّوم ثَوى في نِفط

أقول: انظروا كيف كان يُنظر إلى مادة النِّفط وكيف غدت مادة استراتيجية، بفضل العِلم الغربي، فالغربيون هم الَّذين اكتشفوه، وهم علّمونا كيفية تصفيته، وكيفية استعماله، ولم يتم لهم هذا إلا بعد التخلص مِن النِّزاع الدِّيني، والمسيحية السِّياسية إن صحت العبارة، ليتفرغوا للعِلم، وما زال إذا لم يُبَع لهم يعود مادة نِحسة علينا، والحلم به يُبشر بسلطان جائر أو امرأة فاسدة.

تعتمد على مادة النِّفط الآن ومستقبلاً كلَّ مكائن الحضارة الحديثة، وبسببها شُنت الحروب وقام الاستعمار، ورفعت بلدان وشيدت ما شيدت مِن عُمران ورفاه، وأبو ظبي تأتي في مقدمها. ذلك عندما تصالح العقل مع الثَّروة، أما خلاف ذلك فالشَّواهد كثيرة عندما ننظر في السِّياسات المدمرة، والعراق يأتي في المقدمة.

كيف كانت أبو ظبي قبل النِّفط وما صارت بعده بفضله، عاصمة بلاد يُحسب لها حسابها في ميزان الطَّاقة الدُّولية، بما تمتلكه مِن احتياطات وقدرة على الإنتاج. في المقابل انظروا أيضاً ماذا فعلت ببلادنا العِراق، هذه المادة، بعد أن بدأت تساهم في العُمران، عبر مجلس الإعمار، في بداية الخمسينيات، وكيف استخدمت بمردودها الهائل للعسكرة، تركت البلاد تخرج مِن حرب لتدخل أخرى، حتى صار النِّفط الهائل الثَّمن يوزع على

الشَّعب، عن طريق الأمم المتحدة، صابوناً ودقيقاً وعدساً، تُقطع منه حصة لشراء ذمم المثقفين مِن الأعارب والأعاجم، ولسداد تعويضات غزو الكويت وتكاليف حرب تحريرها.

تلك مقدمة رأيت لا بد منها وأنا أتحدث عن مشاهدتي لمدينة «مصدر» بأبو ظبي، وهي قائمة على فكرة التَّحضر، أو الاستعداد ليوم سينضب فيه النِّفط، أو أن العِلم سيكتشف مادة بديلة، أو أسباباً جديدة للطَّاقة، فالطَّاقة المنتجة مِن النِّفط طاقة مُلوّثة، والتَّلوث الآن يغطي عواصم العالم الكبرى، وهو يزحف إلى القرى والأرياف أو البيئات النَّظيفة، النَّقية الهواء والماء.

كنت قد سمعت عن «مصدر»، وخُيّل إليّ أنها مدينة تحت الأرض، وفيها مِن العجائب والغرائب، مثل التي قرأتها لدى شهاب الدِّين النُّويري (ت 733 هـ) في «نهاية الأرب في فنون الأَدب»، آلات وأدوات خيالية، منها: مرآة كنيسة بمدينة قيسارية الرُّومية، استخدمت لكشف خيانة الأزواج فإذا «اتهم رجل امرأته بزنا نظر في تلك المرآة، فيرى وجه المتهم فيها، وأن بعض الناس اتُّهم فرأوه فيها، فقتله الملك، فجاء أهله إلى المرآة حميةً فكسروها». وببابل كانت مرآة يُرى فيها الغائب عن أهله. و«مرآة آدم» التي حملها المسلمون إلى معاوية بن أبي سفيان من أرض القيقان، وشاع عنها أن آدم «نظر أولاده بعد كثرتهم، وانتشارهم في الأرض»، وأنها بقيت مع ذخائر الأمويين حتى الخلافة العباسية، فضاع خبرها.

تمثال يشير «بسبابته اليمنى نحو الشَّمس، أينما كانت مِن الفلك، يدور معها حيثما دارت»، وتمثالٌ «وجهه في البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة سُمع له صوت هائل، يعلم أهل المدينة طروق العدو»، وآخر «كلما مضى مِن اللَّيل ساعة صوت صوتاً مطرباً». وإن وزة نحاسية «إذا دخل المدينة غريب صفرت»، وشجرة «لا تظل إلا ساقها، فإذا جلس تحتها واحد أظلته إلى الألف، فإن زاد على الألف واحد قعدوا كلهم في الشَّمس» وسوى هذا كثير.

حسبت كلَّ ذلك وأنا أتطلع لرؤية «مصدر»، فما دار في ذهني إنها مدينة سِرية تحت الأرض وفيها العجائب، فسألت عن إمكانية زيارتها، أخذت رقم التَّلفون مِن استعلامات الفندق، واتصلت، ولما قُلت الغرض مِن الزِّيارة هو الاطلاع! قيل لي: ما العمل وما التَّخصص؟! قلت: باحث في التَّاريخ والدِّين وكاتب لمقالة أسبوعية في صحيفة «الاتحاد الإماراتية». فاستغرب المتحدث من طلبي، معتبراً لا شأن لي في «مصدر»، فهي تستقبل أهل الاختصاص في الطَّاقة أو الشَّركات ذات الصِّلة، مثلما قالها بأدب، واكتفى بأخذ نمرة التَّلفون، وانتظرت ولم يرد عليَّ أحد.

بعدها فهمت أنه لا طريق لزيارة مصدر، فلم يحصل أن طافوا بنا ونحن ضيوف جائزة الشِّيخ زايد، ومعرض الكتاب مثلما طافوا بنا حول معالم أبو ظبي، مثل القرية التُّراثية ومسجد زايد الكبير. مِن باب الاستفسار اتصلت بالأخ علي الحوسني، مِن مكتب ولي العهد، فقال لي: سأحاول ترتيب زيارة لك. في اليوم الآخر

اتصل بيَّ طالباً السِّيرة الذَّاتية، كي يرسلها إلى مكتب مدينة مصدر، فأوضحت له: إني أريد زيارة المدينة وليس التَّعيين فيها! فأجابني بأنهم يريدون السِّيرة الذَّاتية كي يعرفوا مِن خلالها تقديم الخدمة لك.

فقلت: فشلت المحاولة أيضاً، ففي سيرتي الذَّاتية تدريس الفلسفة والتَّاريخ، وعناوين كتب في موضوعات علم الكلام ونقد الفقه والإشادة بفصل الدِّين عن الدَّولة، وليس بينها ما يخص الفيزياء أو الطَّاقة أو أي مادة في علم الطَّبيعة والمناخ. على أي حال، اتصل بيَّ الأخ الحوسني وحدد السَّاعة الواحدة والنِّصف لأكون عند بوابة المدينة، مع وصيته لي: أحرص على الوصول في الوقت، فالمدير العام سيكون في انتظارك! انشرحت للفكرة كثيراً وشكرته معتذراً عمَّا إذا كنت كلفته بأمر خارج عمله.

تبعد مصدر عن مركز أبو ظبي سبعة عشر كيلومتراً، هذا ما أشارت إليه علامات الطَّريق، وصاحبي يعرفها، وقدر الوصول إليها بأقل مِن نصف ساعة. قبل الوصول، أو عند الدوَّار، المؤدي إليها، هناك نصب كبير عبارة عن صفائح شمسية. سألني بواب المدينة، ذو البشرة السَّمراء الغامقة، أنت فلان! قال: السَّيارة لا تدخل، تبقى هنا! وأشار إلى موقف خارج المدينة.

استقبلني أحد الموظفين مرحباً، ومعتذراً عن انشغال المدير العام خارج المدينة، لكنه سيعود. جلست في صالة وجلس

حولي الموظفون، ومِن بينهم عميد معهد مصدر، ومدير إدارة الخدمات، والمديرة المساعدة لشؤون الاستدامة، ومحرر المحتوى العربي. فظننت أنهم أخطأوا بتحديد مهمتي، فربما فهموا بأنني صاحب شركة وأريد الاستثمار، أو مختص في الطَّاقة، فبادرتهم بالقول: ليس لديَّ أي معلومات في ما أنتم مختصون فيه، إنما أتيت مستطلعاً حب الفضول لا أكثر، والرَّغبة في المعرفة العامة عنها، لقد سمعت عن المدينة قبل أن أصل أبو ظبي، وبالفعل كان ذلك.

تقدم أحدهم، وقال: سنشرح لك عبر جهاز الكمبيوتر وبرنامج الباور بوينت، بعد أن عرّفني بزملائه. فحدقت في الشَّاشة وأخذت الدُّكتورة نوال الحوسني في الشَّرح، عن الرؤية لأبو ظبي العام 2030، وتحقيق الأرباح عبر بيع وإنتاج الطَّاقة الشَّمسية والرِّيح، فهي أي الحوسني مديرة الاستدامة المساعدة، وكيف ستوفر هذه المدينة الطَّاقة التي تعوض عن البترول، وكيفية التَّقليل مِن الكاربون، أو معاملة الكاربون لإيجاد بيئة نظيفة، مثلما فهمت.

ثم شرح لي الدُّكتور مروان كمال خريشة ما يختص فيه معهد مصدر، فهو عميده، وخريشة أمريكي مِن أصل لبناني، على ما أذكر، ويجيد العربية، وكان يتداخل كلما ورد شيء يخص معهده خلال الجلسة. عندها سمعت لأول مرة بمفردة الطَّاقة النَّظيفة، أو المتجددة أو البديلة باستغلال الشَّمس والرِّيح، وكيفية دعم هذا المشروع الكبير لاقتصاد أبو ظبي في المستقبل.

تبين أن معهد مصدر للعلوم والتِّكنولوجيا بدأ باستقبال دفعاته الدِّراسية منذ العام 2009، وتأسس بالتَّعاون مع الجامعة الأمريكية الشَّهيرة (MIT)، ويستقبل الطَّلبة على مستوى الماجستير والدُّكتوراه، مع مرحلة تأسيسية لمدة عام، ومجالات الدِّراسة فيه: الهندسة الكهربائية، وهندسة المياه والبيئة، والهندسة الكيماوية. عادة يتكفل المعهد بالمصاريف الدِّراسية كافة مع السَّكن بالمدينة نفسها، للطَّالبات والطُّلاب وللعائلات أيضاً، في حال الطَّلبة المتزوجين. ثم تحدث خالد الظَّاهري، وهو قائد فريق التَّسويق، عن الطَّاقة وتسويقها، وكثر الشَّرح، وبين الحين والآخر أُوقف المتحدث للتَّوضيح، وربما كانت مداخلاتي وأسئلتي لديهم مِن البساطة والسَّذاجة، وبين الحين والآخر أُذكرهم بأن ما لديَّ يكاد يكون صفراً في هذه المجالات.

جرى الحديث أيضاً عن جائزة الشَّيخ زايد لطاقة المستقبل، وأنها أُعطيت في موسمها الأول العام 2009 لديبال باروا ومؤسسته برايت غرين اينيرجي، التي قدّمت خدمات تقنية لشعب بنغلادش، ومساهمة المرأة في تقنيات الطَّاقة. وفاز بموسمها الثَّاني العام 2010 مؤسسة تويوتا موتور كوربويشين، التي طرحت سيارات عاملة بالوقود الهجين، ولم أفهم ما يعني الوقود الهجين حتى هذه اللحظة، لكن ما فهمت أنه وقود يساهم في التَّقليل مِن التَّلوث، وهذا مقصد مدينة مصدر الأول.

خصص للجائزة المذكورة، وهي سنوية، مبلغٌ ضخمٌ، قياساً بمستوى الجوائز المحلية والدُّولية، وقدرها مليون ونصف المليون دولار للجائزة الأولى، وثلاثمائة وخمسون ألفاً للفائزين الآخرين. وبحسب ما سمعت مِن المتحدثين أن الجائزة تخضع لفحص علمي وتقني دقيق، ومن بين الحُكام مَن حصل على جائزة نوبل العالمية في مجال الطَّاقة، وعندما تُقدم الترشيحات، وهي تكون عادة بالمئات، تُختزل إلى عدد معيّن، ثم يتم التَّحكيم بينها، حتى فرز الفائز الأول، ومَن وصل إلى مرحلة التَّرشيح النِّهائية.

حُدد الوقت لي ساعة ونصف السَّاعة على ما أظن، بضمنها الجولة بين مرافق المدينة، وانتهى مِن الوقت أكثر مِن ثلاثة أرباع السَّاعة، فقالوا: الآن نطوف بك داخل المدينة، وفي هذه الأثناء حضر المدير العام الدُّكتور سلطان أحمد الجابر، فرحب بيَّ معتذراً عن انشغاله، وسأل عمَّا قُدم إليّ مِن معلومات وشروح كافية، ودعاني إلى مكتبه. سألته كيف بدأت شرارة المشروع؟! قال: بدأ من فكرة وتساؤل، مِن قِبل الجهات العليا في حكومة أبو ظبي، حول ماذا نضمن للأجيال القادمة بعد نضوب النِّفط؟! هل بوسعنا تأهيل أبو ظبي لاستغلال شمسها ورياحها! وتدريجياً تحولت الفكرة إلى واقع عملي.

كتب مدير مدينة مصدر العام بحوثاً ومقالات عدة في الصُّحف المحلية والأجنبية، عن أمور الطَّاقة، وما يخص مؤسسته، وهو كثيراً ما يمثل بلاده في المؤتمرات الدُّولية الخاصة بالطَّاقة.

قال: جرى الحديث عن فوز البلدان أو العواصم، أن تكون محلاً لسباقات رياضية، أو أن تستضيف مؤسسة مِن المؤسسات الدُّولية، لكن الإعلام نراه لا يهتم في الحديث عن فوز أبو ظبي في أن تكون مقراً دائماً للوكالة الدُّولية للطَّاقة المتجددة (أرينا)، وأشار إلى داخل مدينة مصدر قائلاً: هنا هو المقر. كان المدير العام، وهو شاب تزوج حديثاً مِن كريمة وزير النِّفط الإماراتي السَّابق مانع العتيبة، هذا ما لاحظته وأنا أتصفح المجلات العربية التي كانت معي في السَّيارة، كي انشغل بها ونحن نتوجه إلى مدينة العين.

كان سلطان مزهواً إلى حدٍ كبير بفوز أبو ظبي كمقر لأرينا، واضعاً مستقبل الطَّاقة وخلق التِّقنيات النَّظيفة مِن تلوث عنصر الكاربون رهاناً لمدينة مصدر، ويعتبر الخطوات الأولى قد قُطعت صوب خلق تلك التِّقنيات، وأن ذلك سيرسخ دور دولة الإمارات المتحدة دولياً.

سألته، مع تحفظي وتنويهي لجهلي بالطَّاقة، هل تنوي أبو ظبي تصدير الطَّاقة، مثلما تُصدر اليوم النِّفط، وكيف يتم هذا؟! فالنِّفط، كما هو معروف، يُصدر عبر حاملات عملاقة، أو عبر أنابيب، فكيف تصدر الشَّموس والرِّياح؟! قال: نعم كلُّ شيء قابل للتَّصدير، وهو يُصدر عبر وسائل خاصة، نسيت ماذا سمّاها لي.

ثم أردفتُ بسؤال، أنت تعلم أن النِّفط مادة استراتيجية، وكثيراً ما سببت الحروب، والصِّراع الدُّولي، فماذا عن الطَّاقة التي تنوي «مصدر» في المستقبل تصديرها؟! عندها شعرتُ أن زيارتي

لمصدر لم تكن للاطّلاع والفضول مثلما حددت لها، إنما للحوار أيضاً. قال: الطَّاقة بكلِّ أشكالها وأنواعها ومصادرها هي ذات اهتمام أمني دولي، والنِّزاع الذي جرى حول النِّفط ويجري لا نظنه ينتهي، فما زال هناك طاقة مطلوبة، هناك تصادم بين مصالح الدِّول. لكن لا بد لبلداننا مِن البداية بخطوة نحو إنتاج الطَّاقة، وأن نكون منافسين لا مستهلكين فقط مثلما كنا وما زلنا، فإذا أخرج الغرب لنا النِّفط، وهو الذي يقوم بتصفيته، وتستهلكه آلاته التي نستخدمها، فلا بد لنا مِن المبادرة لنكون منتجين، ونستغل خبرة الغرب، وأموالنا قبل نضوب النِّفط لدينا.

ودّعتُ المدير العام، لكنه قال: جولتك لم تتم بعد، فكان عميد معهد مصدر مروان، ويامين محمد غالي، وهو مواطن إماراتي على ما يبدو -أقول هذا لأن الاسم قد يوهم القارئ- بانتظاري، وبدأت الجولة بركوب السِّيارة الكهربائية، فسيارات مصدر كهربائية كافة، لا صوت للمحرك ولا دخان مِن الوقود، وهي تسير بسرعة أربعين كيلومتراً في السَّاعة.

تحركنا وسط ساحة شاسعة، إلى حدٍ ما، فمدينة مصدر شُيدت على مساحة قدرها ستة كيلومترات، وما زالت غير مكتملة البناء، وتوقفنا عند حقل كبير مِن الصَّفائح الضوئية، أو الكهروضوئية، وهي التي تمتص أشعة الشّمس وتخزنها، تراها مِن على منصة عُدت لهذا الغرض، وترتبط بها أسلاك متشابكة. سألت عن عدد المسطحات الشَّرائح قالوا: ولم أتذكر الرقم، لكنها

تُعد بعشرات الآلاف على ما أظن، وتؤخذ لتفرغ منها الطَّاقة عبر عملية شُرحت لي لم ترسخ المعلومات في ذهني، فلا تسجيل لديَّ ولا دفتر ملاحظات، كتبتها على ورقة وفقدتها.

بعد رؤية الحقول، التي يعتمد عليها عمل مدينة مصدر، فعن طريقها سيتم التزود بالطَّاقة، وما سيتم مِن مشاريع استغلال الرِّياح في توليد الطَّاقة، دلفنا إلى بناء المدينة، وهو ما زال قيد الإنشاء، لكنه مستغل للمعهد والمختبرات.

قال مدير المعهد: قبل رؤية المختبرات، سنعرج إلى محطات وقوف السَّيارات. لكن للأسف وجدناها في العمل، وهي سيارات تعمل على الطَّاقة الكهربائية وتسير بلا سائقين، تختلف عن التي ركبناها مِن بوابة المدينة، مثلها مثل قطار دبي، لكن ذاك يسير على سكة حديدية واضحة، أما السَّيارات فتسير مثل غيرها على الطَّريق العادية، ومِن دون سائق، قُلت: إنها على ما يبدو مأمورة! فضحك الجميع، فكنت أعني ما قرأناه عن ناقة الرَّسول، عندما وصل وهو على ظهرها إلى يثرب، بلا تشبيه مثلما يُقال. يتجدد شحن بطاريات مركبات مصدر تلقائياً خلال فترة وقوفها في محطاتها، بلا أسلاك أو تدخل إنسان.

ترى الظِّلال متعامدة بين جدران البنايات، ورأيت إسطوانة كبيرة تنزل مِن الأعلى داخل السَّاحة، ويحتضنها الظِّلال، فسألت عن هذا الجهاز، قالوا: إنه مكيف للهواء، أي مجرى هوائي خالٍ مِن ماكنة دفع أو توليد الهواء. فقلت: هل هو البادكير، قال يامين: نعم

هو بعينه. فرحت أتحدث عن بادكَيرات بغداد، ومرور الهواء عبر المجرى إلى السِّرداب ليكون في النِّهاية بارداً، وهو على الغالب مِن أُصول فارسية.

اقتربتُ مِن البادكَير، وكأني غير مصدق ما قيل لي، فلا سرداب يمرر فيه الهواء ليبرد، لكن نزول الهواء عبر هذا الممر الواسع على الظِّل، وهو يُعامد الأرض تشعر بحركة النَّسيم، وبتلطيفه للأجواء لا ببرودته، فنحن في عزِّ القيظ بأبو ظبي، والحرراة تتراوح بين الخمسين والتَّاسعة والأربعين، لكنه بالتأكيد سيكون أكثر فائدة في الشُّهور الأُخر، عند نهاية الصَّيف أو في بدايته، فالرَّبيع والخريف معدومان في بيئة مثل بيئة أبو ظبي، فهي مِن ذوات الفصلين لا الأربعة فصول.

استُعمل في البناء مواد خاصة، وهناك استيعاب لخردة الأخشاب أو نفايات البناء، كي تتحول إلى مواد نافعة في حفظ البرودة، والتَّقليل مِن استخدام الطَّاقة. بحسب ما علمت أن مدينة الطَّاقة المتجددة أَو النَّظيفة، أو البديلة عن الطَّاقة التقليدية مثل النِّفط، لا تتوقف مهتمها على إنتاج الطَّاقة، التي يُراد أو يُعتقد أنها ستوفي بطاقة تحلية ماء البحر وإضاءة أبو ظبي، على الأمد البعيد.

فمن المخطط له أن يبلغ عدد سكانها الأربعين ألف نسمة، إنما ترشيد المياه مِن مهامها أيضاً، وذلك بالتَّقليل مِن التَّبخر، مِن خلال استخدام مواد خاصة تمنع، أو تحد مِن تبخر الماء،

وكذلك طرق الزِّراعة والرَّي المثالية. وبالجملة أن مدينة مصدر تُعد نموذجاً أولياً لمدينة المستقبل، وربما لأبو ظبي بالكامل، وهي نموذج مصغر للمدينة الفاضلة الموعودة بطاقة نظيفة واقتصاد في الاستهلاك، إذا حالفها النَّجاح وصدقت الخطط.

بحسب تقليد المدينة أن عمارتها لا تعلو أكثر مِن أربعة أو خمسة طوابق، أي ارتفاع أربعين متراً لا أكثر، وقد سرني ذلك نفسياً، فأنا ممَن يخافون العلو، بل لديَّ فوبيا منه. أتذكر عندما اصطحبني تركي الدِّخيل لشراء شقته بدبي، العام 2009، صعدنا وكأن المصعد الكهربائي يُحلق كالطائرة فلا أراه سيتوقف، وأخيراً وقف في الأدوار الأخيرة، وكانت الشِّقة خالية تماماً مِن الأثاث، ومحاطة بأبواب وشبابيك زجاجية والرِّيح يعصف من حولها، كأنها قمة جبل.

تحاشيت الوقوف بجوار النَّافذة، ونصحت تركي ألا يشتريها، فكأنه سيعيش داخل طائرة، فضحك قائلاً: إذا كان هذا السَّبب فلا يعنيني. ولما أمسيت عنده لصعوبة عودتي إلى أبو ظبي، بعد أن أقام في الشِّقة، صرفت الوقت بالتَّفكر بارتفاعها الشَّاهق، وكيف لو مال البناء، أو اهتز الرَّمل المشيدة عليه العِمارة وبقية الشَّواهق مِن العمائر والأبراج، أو انكسر الزِّجاج إلى غير ذلك، ولم أصل إلى بلكونتها. وعندها قال تركي: كم لديك مِن الفوبيات! قلت: كثيرات.

كان تحديد ارتفاع أو علو البناء له علاقة، على ما يبدو، باستخدام أو ترشيد الطَّاقة، وتكريس نموذجية المدينة، فالصُّعود

يتم عبر السَّلالم، وهي رياضة يومية لا يستغنى عنها، وما لاحظته، وما تفضل به الأخوة، أن السَّلالم، وهي المغلفة بالأخشاب، وضعت وسط البناء، أي عند الواجهات، كي يتيسر استعمالها، بينما المصاعد وضعت في أماكن مخفية، تحتاج إلى بحث وسؤال عنها.

هذا ما كان عكس الموجود في الفنادق والعمارات خارج مدينة مصدر، تكون السَّلالم مخفية جداً، وتكاد تكون معدومة، لولا عبارة أشارت إليها تقول: مخرج اضطراري، أو لا تستخدم المصاعد عند نشوب الحريق، وربما لا يصل طالبها إلا بعد عناء، وإذا نزلت عبرها رغبة بالحركة تجدها مهجورة، فتعود أدراجك. أما المصاعد الكهربائية فتجدها في الواجهة، ووضعت في أمكنة رئيسة مِن طوابق العمارات.

تجد عمائر مدينة مصدر متقاربة، ومصابيح طرقها وساحاتها مضاءة بالطَّاقة الشَّمسية الهادئة النُّور، وطرقها حُددت بقياس معين، تكون عادة مظللة بالبناء نفسه، فهي مساكن وظلال في الوقت نفسه، وشيدت بطريقة لا يفارقها الظِّل في معظم أوقات النَّهار، ومسافاتها متقاربة، أي يمكن الاستغناء عن وسيلة النَّقل، أو استخدام الدَّراجة الهوائية. عندما تمر داخل بناء معهد المدينة تجد المختبرات زجاجية ومتداخلة مع قاعات الدُّروس، ولا يعزلها عازل عِن مكاتب الأساتذة، كي لا يجد الطَّالب حاجزاً نفسياً بينه وبين الأُستاذ.

تعتبر نظافة المدينة وظيفة مقدسة، كيف لا وهي تحاول تنظيف البيئة مِن الكاربون. خرجت مِن المدينة بفكرة المؤاخاة بين العقل والثَّروة، عسى ينجح نموذج مدينة المستقبل، وتنزل الشَّمس وتهبط الرِّيح فتستحيل إلى طاقة نظيفة، ويكبر الحلم. عدا هذا فأنا لستُ مِن أهل الاختصاص، وعذري مِن أهله إذا أخطأت في مصطلح، أو أخطأت في نقل معلومة أو تكهن وتفسير وتأويل، فأنا مجرد مشاهد أنظر في الظَّواهر مِن خارجها.

عندما انتهينا مِن الجولة، التي يصعب عليَّ التَّعبير عمَّا سمعته ورأيته لأنه شأن علمي لا أفقهه، كانت السَّيارة الكهربائية بانتظارنا مقابل الباب الرَّئيس، وهو ما زال قيد الإنجاز أو في مراحله الأخيرة، لتعود بنا إلى المكتب الذي انطلقنا منه. التفت إلى صاحبي، وكان ينتظر داخل السِّيارة فمع تكييفها وجدته نائماً. قلت له: متى نزور مستشفى الصُّقور، فكان كثير التردد في السُّؤال عن مكانه، أو أنه لم يجد حاجة لزيارته؟! ولم يبق لي سوى يوم واحد بأبو ظبي. قال: إن شاء الله «يروح» بكره!

الفصل التَّاسع

مستشفى الصُّقور

طَبابةٌ ونَقاهةٌ

«للحبارى خِزانةٌ بين دبره وأمعائه
له فيها أبداً سَلحٌ رقيقٌ
فمتى ألح عليها الصَّقر
وقد علمتُ أن سُلاحه مِن أجود سِلاحها»

(ابن بحر الحاجظ)

ذهبنا إلى مستشفى الصُّقور، في أَطراف أبو ظبي، وكانت البوابة مغلقة، وكأن المكان مهجور، وعلامة مكتوبة تقول للحارس الباكستاني لا لغيره: «دروازه بند ردهيه»، وتحتها مكتوب بالعربية: «اترك الباب مفتوحاً»، وعندها شككت في أن يكون المستشفى قد أُغلق أو نُقل إلى مكان آخر. سألنا أحد الدَّاخلين إلى البناية، وتحدث بالهندية مع صاحبي وأشار إلى مكان آخر، ليس بعيداً، فالبنايتان تقعان في برِّ أبو ظبي، خارج المدينة، وبالفعل توحي القفراء بوجود الصُّقور.

سألت حارس البوابة، الذي طُرز على صدر قميصه رسمة صقر، ممكن الدخول إلى المستشفى؟ قال: بخصوص أي شيء؟! قلت: لديَّ صقر وأريد أسأل الأطباء عن دواء له؟! فقال: وأين الصَّقر؟! قلت: لم أجلبه معي، وأخذ يُحقق معي وطلب أن آخذ موعداً مسبقاً مِن العيادة، وأن أجلب الصَّقر معي في مرة أخرى.

قلت: الصَّقر المريض بالعراق فماذا أعمل؟! قال: لا أدري، ولكن لا أفتح البوابة إلا لمَن لديه موعد مسبق، هكذا التَّعليمات. بعدها اقتنع أن يتصل بالإدارة، وخلال الانتظار سألت عن اسمه، فلهجته واضحة أنه مِن بلاد المغرب، قال: سفيان. الاسم بطبيعة الحال بدا غريباً عليَّ، فنحن بالعراق لا نسمي بهذه الأسماء، سُنَّة وشيعة، إلا ما ندر بين أهل السُّنَّة، ممَن ليس لديهم عقدة مِن الأسماء، حتى وإن كانت مِن مثل أبي سفيان حرب بن صخر والد معاوية وجد يزيد قاتل الحسين بن علي بن أبي طالب (قُتل 61 هـ).

هنا أتوقف بعض الشَّيء عند الموقف مِن الأسماء، وأحسب أني لستُ الأول ولا الوحيد، الذَّي يتحدث عن طير أو حيوان، ويذهب مفصلاً في التَّاريخ والمذاهب، فهذه المدرسة قديمة، مثلما قلت، جنح إليها الدِّميري (ت 808 هـ)، في كتابه «حياة الحيوان الكبرى». يأتي باسم الحيوان وأوصافه، ثم يتعقب ما قيل به مِن أشعار وما ضُرب فيه مِن أمثال، ومنها يدخل إلى التَّاريخ والأَدب. بطبيعة الحال يعتبر الجاحظ (ت 255 هـ) السَّباق إليها، وعليكم قراءة

كتابه «الحيوان»، لكن لا تقرأوه إلا بتحقيق أحد أعظم المحققين في التُّراث المصري عبدالسَّلام محمد هارون (ت 1988).

بالفعل، بلا أدنى إضافة، إن اسم حارس البوابة سفيان المغربي، وبحكم ما أحمله مِن ذاكرة ما كنت أسمعه في المجالس الحُسينية ومنذ الطُّفولة، إلى درجة أن كلب جيراننا كان اسمه سفيان، والآخر معاوية، وكثيراً ما كانا يتشاجران، أوقفني للحظة وأعادني إلى ذلك الماضي، مع أن الحقيقة، بحسب ما استخلصته مِن التَّاريخ، أن ابن أخ الإمام علي بن أبي طالب عبدالله بن جعفر بن أبي طالب سمَّى ولده معاوية (ت 110 هـ)، وكان والده صديقاً لمعاوية بن أبي سفيان (ت 60 هـ)، وكان جالساً في مجلسه عندما ولد له ولدٌ جعله سميّه (الزِّرَكلي، الأعلام).

هذا أولاً، وثانياً أرى بأبي سفيان أنه أراد الخلافة لعلي بن أبي طالب، فعلاً لا قولاً، فعندما توفي النَّبي ذهب إلى علي وأراد بيعته، وقال له: «أمدد يدك أبايعك» (اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي)، والمفروض أن هذا الموقف يُهون مِن حدَّة الكراهية، فإذا كانت هناك وصية، بحسب الاعتقاد الشِّيعي، فأبو سفيان أول مَن أراد تلبيتها، وهو قادر على تنفيذها فلهو العير والنَّفير، وأعني الجاه والقوة بين قريش. وقال حينها أبو سفيان لعلي:

أبا حسَن، فاشدد بها كف حازمٍ

فإنك بالأَمرِ الذي يُرتجى مَلي

على أية حال، أعطاني سفيان تلفون أحد المسؤولين في المستشفى، وكان على ما أظن مِن الفلسطينيين أو اللبنانيين الوافدين، وهو طبيب بيطري. قلت له: لستُ مِن أصحاب الصُّقور، ولا مِن أهل الصَّيد، لكن استرعى التفاتي وجود مثل هذا المستشفى، وبهذا الاسم فوددت زيارته، ليس لغرض آخر. بعدها قال: سأرتب لك مع أحد الإخوة كي يكون معك في الجولة.

بالفعل فتح سفيان البوابة وأشار إلى طريق العيادة الخارجية، فكان بانتظاري حسن السَّرحان، وهو مواطن إماراتي شاب، لا يزيد على ولادات أواسط الثَّمانينيات، كان هاوياً ومغرماً في الصُّقور وليس مِن أهل الاختصاص، لم يدرس البيطرة ولا علم الطِّيور، فوجد له عمل في المستشفى لهوايته بعد أخذ دورات تدريبية خاصة.

قال: هل أنت صقار، أي مِن أصحاب الصُّقور؟! قلت أبداً. فقال: إذاً سنبدأ مِن غرفة المُتحف أو المعرض، تعرض فيها وسائل إيضاح عن عالم الصُّقور، وبعدها سنذهب إلى الرَّدهات، وما تريد رؤيته مِن المستشفى. بدأ شارحاً: أن الصُّقور المعروفة في صحارى أبو ظبي، أو الإمارات عموماً، هي ثلاثة أنواع: الشَّاهين، والجيري، والحر. ويختلف بعضها عن بعض بالسُّرعة والحجم، ومنها ما يجمع بين الصِّفتين، وأن الشَّاهين أَسرع في الصَّيد، والاختلاف أيضاً في حجم الصَّدر وطول المخالب والصَّبر على العطش.

أشار إلى مخالب الصِّقور التي تطول وتنثني فتسبب جروحاً في راحة الرِّجل، ولا بد مِن تهذيبها. شاهدت نماذج عدة محنّطة مِن أنواع الصِّقور الثلاثة، تقف على ما يُسمى بالأَوكار، وأن مِن أصحاب الصُّقور المعتزين بها يأتون لتحنيطها، كي يحتفظوا بذكراها، وهذا يحصل بعد موتها عادة، فلا حرام إلا في تحنيط الإنسان.

كانت غرفة المُتحف ملأى بآلات الصَّيد والأَوكار، التي توكر عليها الصُّقور، ووسائل صيدها باستخدام الحَمام طعماً لها، كذلك هناك رسوم ومحنطات للحبارى، وهو الطَّائر الصَّحراوي، الذي تُستخدم الصِّقور في اقتناصه. هناك معروضات لآلات الجراحة والفحص ورسوم توضيحية لعمل المستشفى.

بعدها دعاني السَّرحان إلى العيادة الخارجية، وإذا بعدد مِن الصَّقارين ينتظرون، منهم الواقف ومنهم الجالس، حاملين صقورهم المرضى مقنعين، وينتظرون معها الدَّور. لم يحملوها بأقفاص أو شباك إنما توكر على أيديهم المغطاة بكيس جلدي يحمي الكف والسَّاعد مِن مخالبها، والصِّقور واقفة تنتظر مع انتظار الصَّقارين بسَكينة واستسلام تامين.

لاحظت أن أغلب المنتظرين هم مِن الوافدين الباكستانيين وجنسيات أُخر، فسألت: لمَن تعود هذه الصِّقور؟! قال السَّرحان: تعود لأصحابها، فهؤلاء مربّون أو معتنون بها، وترى لكلّ صقر جوازاً شبيهاً بجواز السَّفر، فيه اسم مالكه الأصلي، وعمر الصَّقر ونوعه، وكل ما يتعلق بهويته. لأن الصَّيد عادة لا يكون داخل أبو ظبي، ففيها

الصَّيد ممنوع، بقرار مِن حكومة أبو ظبي مِن أيام الشَّيخ زايد، فأكثر الصَّيادين يصيدون بالمغرب العربي أو باكستان وبراري العِراق، فلا بد مِن جواز سفر للصَّقر.

ففي أوائل شهر كانون الأول (ديسمبر) 2010 انشغلت وسائل الإعلام بالصَّيادين الإماراتيين، وقيل كانوا مِن أبناء الشِّيوخ، دخلوا عبر منطقة الرِّطبة إلى برِّ الأنبار غرب العراق لأجل الصَّيد، بالتَّنسيق مع أحد شيوخ العشائر العِراقية، وأضاعوا الطَّريق، وقيل اختطفوا، وقيل اعتقلوا لدخولهم بطريقة غير رسمية، بعدها عادوا سالمين. قلّبت جواز سفر أحد الصُّقور، واطلعت على تفاصيله، وكان موكراً على يد أحد الوافدين مُحجب الرَّأس، كأنه امرأة مبرقعة، مكتوب على غلافه: «دولة الإمارات العربية المتحدة، جواز صقر».

كانت خارج العيادة قاعات فضائية مشبكة كبيرة، هي بمثابة ردهات للصُّقور خلال فترة العلاج أو النَّقاهة، ترى فيها العشرات مِن الصُّقور، وعلى اختلاف الأنواع والألوان، وقفت أمامها لدقائق فشدة الحَرِّ لا تسمح أكثر مِن ذلك. توضع الصقور بعد العلاج، مِن إجراء العمليات أو الطَّبابة، في تلك الرَّدهات كي تمارس حياتها الطَّبيعية في الهواء الطَّلق، وتراقب أحوالها مِن قبل الأطباء.

سألت عن تاريخ المستشفى وأهمية وجوده، قيل لي: إنه أول مستشفى بهذا الحجم، تأسس العام 1999. تأتي أهميته مِن أهمية

رياضة الصَّيد أو القنص، في مواسم ظهور الحبارى، بل تعتبر تربية الصُّقور لدى العديد مِن الأسر الإماراتية عادة مألوفة، فلم يبق الأمر مجرد هواية بل يدخل في حياة الدَّار، ويصبح جزءاً منها، شأنه شأن الكلب أو القطة، يعيش مع العائلة كفرد مِن أفرادها، وأن المستشفى يستقبل الصُّقور المحتاجة إلى العلاج مِن دول أُخر، كذلك أصبح مَعلماً مِن معالم أبو ظبي السِّياحية، وهو يتبع إدارياً هيأة بيئة أبو ظبي.

منذ العام 2006 أخذ مستشفى الصُّقور يستقبل أنواع أُخر مِن الطِّيور وحتى الحيوانات، ككلاب الصَّيد أو البيتية، والقطط أَيضاً، وعلى حد مشاهدتي في شوارع ومحال أبو ظبي لا توجد كلاب سائبة، لكن قد تعثر على قطط سائبة قريبة مِن المطاعم ومحال البقالة، ليس هناك مَن يؤذيها مِن الصِّغار والكبار. بأبو ظبي نظام للنَّظافة، وإدامة نظافتها جارية على طول اللَّيل والنَّهار. فعند مفارق الطُّرق تجد لافتات كبيرة تلفت النَّظر إلى عدم رمي القمامة، حتى وإن كانت ورقة صغيرة، في الشَّارع، مسنودة بعقوبات وغرامات على المخالفين. هناك نصب كبير، إلى حدٍ ما، يُزين ساحة المستشفى، عبارة عن صقر يقف على مجموعةٍ مِن البيض، وضع على وكر كأنه رأس جبل.

لم يكن مستشفى الصُّقور بأبو ظبي هو الوحيد بالمنطقة، لكن ربَّما هو الأَكبر والأَكثر في مجالات العلاج، فأكثر دول الخليج، حيث البيئة الصَّحراوية وهواية وحياة الصَّيد، فإمارة دبي وجد

فيها مستشفى، أو غرفة عناية، بالصِّقور العام 1983، وبالكويت يعود تاريخ افتتاحه إلى العام 2006، وبقطر افتتح العام 2008، وكذلك هناك مستشفيات أو عيادات خاصة بالصِّقور بسلطنة عُمان والمملكة العربية السُّعودية.

قدم ألفريد ثيسجر في كتابه «الرِّمال العربية» عن رحلته إلى الصَّيد مع الشَّيخ زايد، عندما كان حاكماً بالعين العام 1948، وصفاً وافياً عن التَّعلق بالصِّقور، قال: «بعد العشاء، كانت الغرفة مزدحمة بأتباع الشِّيخ زايد، وبعضهم يحمل صقوراً على معاصمهم. كنت أعلم أن تدريب الصَّقر البري في إنكلترا يستغرق خمسين يوماً، لكن العرب يدرّبونه في غضون أسبوعين أو ثلاثة، وذلك لأنهم لا يفارقونه على الإطلاق. إن الرَّجل الذي يُدرب صقراً يحمله معه في كلِّ مكان، إلى درجة أنه يتناول معه الطَّعام، وهو يجثم على معصمه الأيسر، وينام معه وهو جاثم على وتد (الوكر) إلى جانب رأسه، وكان يتلمسه دائماً ويحادثه، ويضع الغطاء على رأسه ثم يكشفه».

قرأت في كتاب ثيسجر، ما قال له الشَّيخ زايد، وهما في رحلة الصَّيد بأطراف العين الصَّحراوية، مشيراً إلى بقع زيتية على الأَرض، بعد اصطياد الصَّقر لواحدة مِن الحبارى: «هل ترى هذا الوسخ؟ إن الحبارى تزرقه على مهاجمها فإذا دخل عين الصَّقر فإنه يُصاب بالعمى موقتاً، وإذا وقع على ريشه فإنه يوسخه تماماً، ولا يمكن استخدام الصَّقر مرة أخرى في ذلك اليوم».

كنت اطلعت، مِن قبل، على ما كتبه الجاحظ، في أكثر مِن مكان مِن كتابه «الحيوان» على كلام مطابق لهذا، وتحت عنوان «سلاح الحبارى وغيرها مِن الحيوان»، فعدت إلى ما قرأته، وهو هكذا: «للحبارى خِزانةٌ بين دبره وأمعائه، له فيها أبداً سَلحٌ رقيقٌ (لزج) فمتى ألح عليها الصَّقر، وقد علمتُ أن سُلاحها (السَّائل) مِن أجود سِلاحها (ما يُدفع به العدو)، وأنها إذا ما ذرقته بقي كالمكتوف، أو المُدبق المقيد، فعند ذلك تجتمع الحباريات على الصَّقر فينتفنَ ريشه كلَّه طاقةً طاقةً، وفي ذلك هلاك الصَّقر» (كتاب الحيوان). لا الشَّيخ زايد، ولا ألفريد ثيسجر، قد تصفحا كتاب الجاحظ هذا آنذاك، ونظرا في تلك المعلومة، لكنها الخبرة والتجربة المتوارثة مِن دون حاجة إلى كتاب.

تحدث زكريا القزويني (ت 682 هـ) في «عجائب المخلوقات» وكمال الدِّين الدَّميري في «حياة الحيوان الكبرى» مفصلاً عن حياة الصِّقور، والأخير ذكر قصصاً أسطورية عنها، فهي التي ظللت على جنازة النَّبي داوود ومشيّعيه بأمر مِن ولده النَّبي سُليمان. وتفسر الرُّؤيا أو المنام بالصقر على أنه: عزَّة وسُلطان، وبلوغ الآمال وتفريغ الهموم، وربَّما دلَّ على الموت أيضاً لاقتناصه. ومثلما يصفون الأسد بالأبخر، أي رائحة فمه كريهة، كذلك يعدون فم الصَّقر، لأكلهما اللُّحوم فقط. فالمثل يقول: «أخلف مِن صَقر»، والخلوف الرَّائحة الكريهة. قيل إن دماغ الصَّقر مِن مقويات النِّكاح: «إذا دُلك به القضيب هيج الباه»!

كان للمحدث والقاضي والتَّاجر بالشَّاهين والبازاة، وكلاهما مِن جنس الصَّقر، عبدالله بن المبارك الحنظلي (ت181 هـ) المتزهد، نقد بليغ لأحد المتلاعبين بالدِّين ومستخدميه وسيلة لكسب المال، مثلما يحصل اليوم، في اللِّعب على الخير والثَّواب مِن أجل العمل الحزبي والسِّياسي (ابن خِلكان، وفيات الأعيان):

قد يفتح المرءُ حانوتاً لمتجره

وقد فتحت لك الحانوت بالدِّينِ

بين الأَساطين حانوتٌ بلا غلقٍ

تبتاع بالدِّين أموال المساكينِ

صيرتَ دينك شاهيناً تحيد به

وليس يفلحُ أصحابُ الشَّياهينِ

قال أيضاً (حياة الحيوان الكبرى):

يا جاعل العِلم له بازياً   يصطاد أموال المساكينِ

احتلتَ للدُّنيا ولذَّاتها   بحيلةٍ تذهب بالدِّينِ

يُغرم المؤرخون العرب دائماً بفكرة الأول أو الأوائل، وقد صنف في هذا أبو الهلال العسكري (ت 382 هـ) كتاباً سمّاه «الأوائل»، جعل فيه أَولوية أو بداية لكل حدث أو ممارسة أو قول، وهاهم جعلوا لتربية الصَّقور، واستخدامها في الصَّيد، بداية بشخص يُدعى الحارث بن معاوية بن ثور.

قصة ذلك: إن الحارث شاهد صقراً ينقضّ على عصفور ويأكله، فوضعه في بيته وأخذ يطعمه ويعلمه الصَّيد، وصاد له أرنباً فذاع صيته واتخذه العرب مِن بعده (حياة الحيوان الكبرى). وهذا بعيد. فمثل تلك الممارسات ليس لها مبدعٌ واحدٌ، ولا أظن أن الأَقوام الذَّين سبقوا ابن ثور كانوا غافلين عن فوائد الصَّقور في الصَّيد، وقد جاء في الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ، وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ، تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ (سورة المائدة، آية 4)، وما تعليم الجوارح إلا تدريب الصُّقور.

الفصل العاشر

المرأة
قاضية ومحققة ووزيرة

«وشذ ابن جرير الطَّبَري
فجوَّز قضاءها في جميع الأحكام
ولا اعتبار بقول يرده الإجماع...»

(أبو الحسن الماوردي)

ظلت المرأة الظَّبيانية، والإماراتية عموماً، متقيّدة بلباسها التَّقليدي عباءة وشيلة سوداوين، ولم ترتدِ ثياب الإسلام السِّياسي الموحدة، الجلباب الأَفغاني أو الشَّادور الإيراني. لقد حاول الحراك الإسلامي السِّياسي مع أبو ظبي، لكنه لم يُعط الفرصة، وإلا ليس هناك أَخصب، مِن ناحية الثَّروة، مكاناً للإخوانِ المسلمين منها، ومعلوم أن كسب إخوان بالخليج يعني الرَّفد بالأَموال، ولو هيمن الإِخوان هنا ما كانت المرأة قاضية وما كان يحصل تعايش ديني

بأبو ظبي للوافدين على مختلف أديانهم ومذاهبهم، ولا تقدم، وما كُتب دستور مدني، ربما حُرقت أبو ظبي بنفطها، فمشروع الإسلام السِّياسي أكبر منها، وسيُستغل الخير عبر الجمعيات الخيرية للشَّأن السِّياسي.

وبما أن المرأة هي هدف الإسلام السِّياسي وثيابها ستشغله لتطبيق حُكم الشَّريعة فيها، لا بد مِن إضاءة مختصرة على النَّشاط الإخواني بأبو ظبي. قرأت مؤخراً بحثاً موثقاً للباحث السُّعودي منصور النَّقيدان تحت عنوان «الإخوان المسلمون في الإمارات التَّمدد والانحسار»، نُشر ضمن كتاب المسبار الشَّهري «الإخوان المسلمون والسَّلفيون في الخليج»، الصَّادر عن «مركز المسبار للدِّراسات والبحوث» (تموز/يوليو 2010)، ثم صدر في كتاب تحت عنوان «الإخوان المسلمون في الخليج»، ولأهمية الكتاب وموضوعه طبع أربع طبعات، ويغلب على الظَّن سيُطبع بعدها طبعات، فالمصادر عن نشاط الإسلام السِّياسي بالإمارات خصوصاً، وبدول الخليج عموماً، تكاد تكون معدومة.

خلاصة القول: دأب الإخوان المسلمون على العمل مِن خلف ستائر، فهم لا يقرون علناً التَّنظيم الحزبي ظاهرياً، لكنهم يؤسسون جمعيات خير وأخرى إصلاح، وبالإمارات كانت لهم جمعية الإصلاح، حاولت الحؤول دون نهضة الإمارات، فكان حلها العام 1994، بعد أن تمكن الإخوان مِن الهيمنة على المناهج التَّعليمية.

فوزارة التَّربية والتَّعليم هي الوسيلة لنشر الثَّقافة التي تعتقدها الجماعة، التي تعتبر الموسيقى غزواً فكرياً وفساداً أخلاقياً، وأن الانفتاح الذي دأب بالإمارات هو عبارة عن فساد في الأرض، وصرحت عبر مجلتها «الإصلاح» ضد الزَّي الموحد للطلبة، وضد دروس الموسيقى للبنات، وضد الاختلاط، وعمل المتنفذون من الإخوان في التَّربية والتَّعليم على إغراق الوزارة بأصحابهم مِن الوافدين، وأن يكون مقاس قبول طلبات العمل هو التَّقوى والتَّدين، والدَّعوة إلى الحِجاب، على الرَّغم مِن أن المرأة الإماراتية لم تترك لباسها التَّقليدي، لكن ليس بالفرض الذي يبحث عنه الإخوان.

مما سمعته مِن وافدين عراقيين ولبنانيين وفلسطينيين أن أحد المحسوبين على جماعة الإخوان كان وزيراً للتربية والتَّعليم؛ ثم صار رئيساً لجامعة الإمارات حتى العام 1983، وعمل على رفض طلبات أساتذة مِن الوافدين، لأنهم ليسوا مِن الإخوان، أو مِن غير المتدينين، مع ما كانوا يحملونه مِن شهادات عليا وخبرات في مجال التَّدريس.

لا أريد الزِّيادة في ذكر الإخوان المسلمين أو السَّلفيين، وما قاموا به مِن دور في تحويل أموال أو ثروات الإمارات إلى مشاريع جهادية تعبوية، وعندها ستيأس المرأة في أن تكون قاضية أو وزيرة أو نائبة نيابة، ربما يوافقون على التوزير لكن بشرط أن تكون مِن الأخوات المنتظمات!

هناك اختلاف بين المذاهب في شأن جواز تعيين المرأة قاضيةً، وإن أول دولة خليجية خرقت هذا الجدار، وتطلعت إلى الحاضر، وما وصلته النِّساء مِن تطور فكري واجتماعي هي البحرين، ففي العام 2006 صدر مرسوم بتعيين منى جاسم محمد الكوارى قاضيةً في المحكمة الكبرى المَدنية.

بعدها بسنتين، أي عام 2008، صدر مرسوم بأبو ظبي بتعيين خلود أحمد الظَّاهري قاضيةً في المحكمة البدائية، وفي العام نفسه صدر مرسوم بدبي بتعيين ابتسام راشد البدواوي قاضيةً. وتم تعيين فاطمة سعيد عبيد العواني مأذونة شرعية، وهي الحِرفة أو المنصب الذي ظل حكراً على الرِّجال. ومع القاضيات هناك أربع نساء وزيرات، ونائبات في الجمعية الوطنية، ودوائر أبو ظبي ملأى بالنِّساء، المديرات والنَّائبات، ناهيك عن المجال الثَّقافي وما فيه مِن شاعرات وكاتبات وفنانات.

لعلَّ تعيين وزيرة أو مديرة في دائرة لا يجلب اعتراض الإسلاميين المتشددين، مثلما يجلبه تعيين امرأة قاضيةً، لأنها ستلامس الشَّرع، فهي لديهم وإن لم يفصحوا ذات نصف عقل ونصف دين. لا نريد الإتيان بأمثلة عبر التَّاريخ، ممَن تحملنَ في ظل حكم الخلفاء المسلمين مهام الحُسبة والجلوس للمظالم، كي لا يتحول كتابنا إلى بحث تراثي يثقل على القارئ، لكني اضطر إلى التعرض لمنصب القضاء، لِما عرضته قناة أبو ظبي الأولى، عبر برنامج «مثير الجدل»، وما إشكالية ذلك بالبلدان العربية، وكان الضَّيف أحد وزراء العدل الكويتيين السَّابقين، وقاضية مصرية.

نفى الوزير أن يكون الإمام أبو حنيفة النَّعمان (ت 150هـ) قد أفتى بصلاح المرأة، محتجاً بطالب سوداني قدم رسالة جامعية، نافياً فيها وجود رأي لأبي حنيفة، بهذا الخصوص. لا ندري مَن هو الأَقرب من عصر إمام التَّسامح والسُّهولة، مثلما يطيب لي تسمية أبي حنيفة، أهو الطَّالب السُّوداني أم قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي (ت 450 هـ)! ومَن هو الأكثر علماً في هذا الشَّأن قاضي القضاة أم الطَّالب؟!

كتب الماوردي في «الأَحكام السُّلطانية» في الباب السَّادس «في ولاية القضاء» قائلاً: «قال أبو حنيفة: يجوز أن تقضي المرأة في ما تصح فيه شهادتها». ثم أردف قائلاً: «وشذ ابن جرير الطَّبَري فجوَّز قضاءها في جميع الأحكام، ولا اعتبار بقول يرده الإجماع...». يقصد أبو حنيفة في ما تصح فيه شهادتها أن المرأة لها القضاء في كلِّ القضايا والمنازعات باستثناء الحدود والقصاص، وما تبقى من منازعات وقضايا ليست بالقليل. أما أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبَري (ت 310 هـ) فتجاوز ليكون قضاء المرأة شأن قضاء الرَّجل، وهو المؤرخ والمفسر الشَّهير «كان مِن الأئمة المجتهدين، لم يُقلد أحداً» (ابن خِلِّكان، وفيات الأعيان). وبالفعل هناك مَنْ عدَّه صاحب مذهب.

يغلب على الظَّن أن الأَخير نفى، بصورة غير مباشرة، وجود حديث عجز المرأة عن الولاية: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُم امرَأَةً» (جامع التِّرمذي، باب الفتن). والمرأة المقصودة هي الملكة

بوران بنت كسرى أبرويز، التي قال الطَّبري في عدلِها وتدبيرها لمُلك أبيها، وقد ملكت قُبيل استيلاء العرب المسلمين على العِراق:

«فذكر أنها قالت يوم مَلكت: البرَّ أنوي وبالعدل آمر. وصيرت مرتبة شهر براز لفسفروخ، وقلدته وزارتها، وأحسنت السِّيرة في رعيتها، وبسطت العدل فيهم، وأمرت بضرب الورق (النُّقود) ورم القناطر والجسور، ووضعت بقايا بقيت من الخراج على الناس عنهم، وكتبت إلى الناس بعامة كتباً أعلمتهم ما هي عليه من الإحسان إليهم، وذَكرت حال مَنْ هلك من أهل بيت المملكة، وإنها ترجو أن يريهم الله من الرَّفاهة والاستقامة بمكانها ما يعرفون به أنه ليس ببطش الرِّجال تُدوَّخ البلاد، ولا ببأسهم تستباح العساكر، ولا بمكايدهم ينال الظفر وتُطفأ النوائر، ولكن كذلك يكون بالله عزَّ وجلَّ، وأمرتهم بالطَّاعة وحضتهم على المناصحة، وكانت كتبها جمَّاعة لكلِّ ما تحتاج إليه، وإنها ردت خشبة الصليب على ملك الروم مع جاثليق يُقال له إيشوعهب» (تاريخ الأمم والملوك).

تعني العبارة الأخيرة إصلاح سياستها الخارجية مع إصلاح داخل دولتها. فكيف يمكن الرُّكون لرواية ذلك الحديث، القامع للنِّساء والمميز فيه بين عقول البشر على أساس الجنس بعنصرية مفضوحة، على أن الرِّواية صحيحة أو حسنة! وللطبري كلام مثل هذا في أختها وخليفتها آزَرمِيدخت، التي تآمر عليها القائد رستم وسمَّل عينيها (المصدر نفسه).

أقول: لأي علَّةٍ يُحاول إيجاد ما يمنع عناصر التَّقدم، ومسايرة العصر، وهي موجودة في الدِّين لا مقحمة فيه! فلماذا يُراد تغييب رأي الإمام أبي حنيفة في قضاء النِّساء، وهو منقول عن قضاة وفقهاء لهم اعتبارهم في دولتهم، مثل قاضي القضاة الماوردي، وهل الأخير أراد الافتراء على أبي حنيفة، مع أنه كان يقول: «يجوز لمن اعتقد مذهب الشَّافعي، رحمه الله، أن يقلد القضاء مَن اعتقد مذهب أبي حنيفة» (الأحكام السُّلطانية)؟! وهل أتى الطَّبري برأيه أو فتواه في جواز قضاء المرأة من دون عِلم؟! وهل تراه أسهب في الحديث عن مناقب بوران بنت كسرى وهو واثق من الحديث المذكور فيها؟!

ليس من صالح المسلمين، ولا المنطقة برمتها، أن تغيب تلك المآثر، ونحن في عصرٍ غدت فيه النِّساء أكثر من الرِّجال تعلماً، بل في العديد من البلدان زدنَ على الرِّجال عدداً وعلماً. فإلى متى تبقى المرأة تُعامل كقاصرة، وأهل زماننا دخلوا الألفية الثَّالثة، والزَّمن ما بين المانعين للرُّكون إلى عقل المرأة، في أن تكون قاضية، وزمن أبي حنيفة يبلغ اثني عشر قرناً وثمانين عاماً، ولكم حلَّ لغز تقدم الإمام وتقهقر هؤلاء، الذين يكثرون الحديث عن التآلف بين الشَّريعة والحياة! حتى بعد كل هذا الزَّمن لنبحث في عدمِ صحة قول أبي حنيفة، مع أن الرَّجل قال أكثر من ذلك وفي أمور أُخر، بها ينفتح العالم علينا وننفتح عليه.

إن نفي ما خص به الإمام أبو حنيفة، والتَّغاضي عمَّا أفتى به الإمام ابن جرير الطَّبري، في شأن الاعتراف بعقل المرأة وعدالتها، لا يقلُّ خطورة عن ترسيخ فكرة نسخ آيات التَّراحم والمسامحة بآية السَّيف. أرى أن هناك نوعاً من التَّقوقع وتكريس مفاهيم من صنع الرِّجال، من دون مراعاة التَّغرب عن عجلة التَّقدم الهائل، الذي ينجز يومياً من الآلات والأدوات. أما مجتمعاتنا فما زالت تفترش موائد الحوار لتناقش قضية: هل يجوز للمرأة أن تكون قاضية أم لا؟ رحم الله أبا حنيفة لقد قاسها وقدرها، وهاهم فقهاء التخلف والعنصرية يردّونها عليه.

إن إصرارَ دولة الإمارات، متمثلةً بإمارتي أبو ظبي ودبي، على منح المرأة حقها في المساواة يتناسب مع نهضتها العُمرانية والاجتماعية، فتطور المجتمعات والبلدان يُقاسان بمعاملة النِّساء في المساواة على قَدم وساق في العمل والمعاش. لكن المشكلة أنه عندما تخطئ المرأة تتهم لجنسها وعندما يُخطئ الرَّجل يُعذر لشخصه.

لذا يُخيل إليّ أن القاضيتين خلود الظَّاهري وابتسام البدواوي وزميلتهما القاضية الأخرى، والمأذونة الشَّرعية، والوزيرات وكل المسؤولات في دوائر الدَّولة، عليهنَّ المهمة مضاعفة، ألا يخطئنَ في تطبيق مادة قانونية، وأن يكون لهنَّ أعناق كأعناق الأباعر والزَّرافات، أو كعنق صاحب المعتزلة واصل بن عطاء الغزال (ت 131 هـ)، الموصوف بطوله، كي لا تخرج الكلمة مِن صدورهنَّ إلا

بعد فحصها وتقليبها ونضجها، ويبدو أن العبارة الشَّهيرة: «لا عصمة إلا لله» لا تجري عليهنَّ، لأن المتشددين، الخالطين بين الدِّين والقبيلة، لهنَّ بالمرصاد.

وعن عنق ابن عطاء قال خصمه بشار بن بُرد (قُتِل 167هـ) فيه هاجياً (الجاحظ، البيان والتَّبيين):

مالي أشايع غـزَالاً له عـنقٌ

كنقنق الدَّوِّ إن ولى وإن مثلا

عنْق الزَّرافة ما بالي وبالكم

أتكفرون رجالا اكفروا رجُلاً

بحسب أحد العاملين بأبو ظبي آنذاك، كان هناك تمييز بين المرأة والرَّجل في العطاء، وهو أمر طبيعي على ما يبدو وسط تلك البداوة، فلما أخذت عوائد النَّفط ترد إلى أبو ظبي كان الدِّيوان الأميري يمنح عطايات للرِّجال والأولاد أكثر مِن النِّساء والبنات، فأخذ النَّاس بالتَّحايل وهو إلباس الفتيات الصَّغيرات ملابس الأولاد، كي يحصلوا مِن قصر الحصن، وهو قصر الإمارة آنذاك، عطاء الأولاد «وحينما كانوا يتعاركون بطفولتهم خلف جدار الحصن فإن العقال كثيراً ما يسقط فتبدو ملامح الأنوثة عبر الشَّعر» (أبو ظبي، سيرة مدينة). لكن الأمر اختلف بعد ذلك وتغير بشكل سريع لصالح المرأة في كل شيء، هو المساواة في الأجر والوظيفة.

سمعت مِن أحد المحامين العِراقيين، وأكد إماراتيون، أن الأراضي والعقارات عندما وزِّعت على المواطنين في أبو ظبي

سُجلت باسم الزَّوج والزوجة؛ وقيل إن الشَّيخ زايد قصد ذلك كي لا تُهضم حقوق المرأة في بيتها، فربما طلقها الزَّوج أو تزوج عليها وتركها فليس لها أي حق إذا لم يثبت ذلك قانونياً، وإلا سيعتمد حق الزَّوجة على مروءة الرَّجل وأخلاقه، فجعلها القانون قوية بما تشارك الرَّجل بملكية العقار، وبالفعل قيل لي حمى هذا الإجراء العديد مِن النِّساء، بل ربما قلل مِن هوى الرَّجل في التَّلاعب بالحياة الزَّوجية وفق مزاجه.

هنا يأتي تحقيق نص قرآني يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطَّلاق: 1). فقال: «بُيُوتِهِنَّ»، فإذا كان العقار ملكاً صرفاً للرَّجل فلا يشير الكتاب بمفردة «بُيُوتِهِنَّ».

أما الفاحشة وهي الزِّنا، كذلك حمى القرآن المرأة مما قد يرتبه الرَّجل مِن شهادة زور أو اتهام عابر بشهادة أربعة شهود ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: 4)، والميل في المكحلة، ناهيك عن الملاعنة في حال الشَّك. هذا ما علا به صوت الشَّاعر اليمني عبدالله البردوني (ت 1999)، في مقابلة كنت أجريتها معه العام 1991 في داره

بصنعاء، وكانت حقوق المرأة محاصرة هناك، وجرى التفاف على ما حصلتها بعدن في ظل حكم الحزب الاشتراكي اليمني (1969- 1990)، قائلاً: «إنها بيوتهنَّ لا بيوت الرِّجال»!

أخبرني المحامي العراقي صلاح إبراهيم، هناك دور لإمرأة، تدفع، وهي في الظِّل، إمارةَ أبو ظبي إلى منح النِّساء الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والسِّياسية، بحصولهنّ على المكاسب، وهي الشِّيخة فاطمة، زوجة الشَّيخ زايد ووالدةِ ولي العهد، فقد أسست الكثير مِن الجمعيات التي اهتمت بالأسرة والمرأة، مثل: «مؤسة التَّنمية الأسرية»، وترعى مؤسسات عدة تأتي في مقدمها: «هيأة الهلال الأحمر الإماراتي»، و«دار زايد للرِّعاية الشَّاملة»، و«جمعية مرشدات الإمارات»، و«مجلس سيدات الأعمال بأبو ظبي». وتدخلت في الكثير من القضايا التي انتصرت فيها للمرأة، وأطلقت حملة شاملة لمحو الأمية العام 1973، وهي رئيسة «الاتحاد النِّسائي العام»، الذي تأسس العام 1975.

عندما نسلّط الضوء على المرأة القاضية بأبو ظبي، فنحن ندرك أنها كانت مِن قبل قاضيةً بالعراق ومصر وأندونيسيا والبحرين وغيرها مِن البلدان ذات التَّشريع الإسلامي، فكلها بلدان دخلها التَّطور مبكراً، واتصلت بأوروبا لفترات طويلة، لكننا ننده‍ش حقاً مِن أبو ظبي ودبي، فإن مرَّ بها البريطانيون عبرها فهو مرور عابر، كانت لهم قوات عسكرية ولا يتدخلون في شؤون الإدارة العشائرية أو المشيخة، ولم يهمّوا بإيجاد قانون أحوال

شخصية مثلما حصل بعدن مثلاً، عندما كانوا يحكمونها حكماً مباشراً (1839-1967).

مَن يقرأ «الرِّمال العربية» للرَّحالة ألفريد ثيسجر، و«أبو ظبي ذاكرة مدينة» للروائي البحريني بدر عبدالملك، الذَّي عاش بأبو ظبي في نهاية السِّتينيات وبداية السَّبعينيات، مِن القرن الماضي، لا يجد فوق هذه الرِّمال سوى مجتمع ذكوري قبائلي تغلب عليه طبائع البداوة، ولا وجود للمرأة في العمل أو أي نشاط، وهذه أخلاق القبائل على العموم، وفي المجتمعات العربية كافة، لذا كم نحذر مِن غلبة القبائلية في المجتمع، مثلما يجري الآن عندنا بالعراق، مِن أجل الكسب السِّياسي.

فكيف تنهض أبو ظبي ودبي وتتعدى السَّائد القبلي والفقهي أيضاً بتعيين قاضيات؟! وكيف تطبع الإماراتيون على القبول برئاسة المرأة كوزيرة أو مديرة ومأذونة شرعية، بينما، بحسب ما ذكره عبدالملك في روايته، إنه عندما تسلم الظَّبيانيون البيوت الحديثة، عمد بعضهم إلى رش أرضيتها، المكسوة بالكاشي أو المرمر، بالرَّمل مِن أجل البقاء على التَّواصل مع البيئة، وكسب البرودة بطريقتهم!

هذا ما مارسه عراقيون أيضاً، عندما وزعت عليهم بيوت مدينة الثَّورة، شرق بغداد، أيام الزَّعيم عبدالكريم قاسم (ت 1963)، وأغلبهم كانوا يتحدرون مِن عشائر الجنوب، فحسب ما

نقل إليّ طبيب العيون غازي جميل، المعاصر للحدث، أن امرأة اشترطت على ولدها أن يوفر لها صريفة مِن القصب داخل الدَّار الجديدة، وإلا هي ليس لها النُّزول فيها. كذلك أن السِّيكَان، وهم مِن سكَان بلغاريا ذوي الأُصول الغجرية الهندية، كم حاولت الدَّولة إنزالهم في شقق حديثة، إلا أن منهم مَن أخذ يصر على هدم الجدران بين الغرف لتبقى قاعة مفتوحة شبيه بالخيمة الأولى أو الفضاء غير المقيد بجدران.

لكن في حال العِراق ليس عامة النَّاس كانوا هكذا، لما فيه مِن التَّمدن الطّاغي والنَّاهض منذ العشرينيات، مِن القرن الماضي، فكانت أول امرأة أسفرت في العام 1923، وأن نساءً شوهدنَ ببغداد، أوان الثَّلاثينيات، عراقيات، ركبنَ الدَّراجة الهوائية، وأول معهد للموسيقى فتح آنذاك، وأول إذاعة كانت آنذاك، وأول تلفزيون بث قبل بلدان الشَّرق الأوسط كافة العام 1956.

أما أبوظبي، فحتى نهاية السِّتينيات كان السَّاكنون والقادمون الجدد مِن عرض الصَّحراء، لا يتعاملون بالمواعيد، ولا يدركون أهمية جواز السَّفر، الوجوه كالحة ما زال عليها أثر العطش ويبس الرِّمال، فكيف خلال أعوام قليلة يتبنون منزلة المرأة ومساواتها بالرَّجل؟! انظر إلى الوجوه الآن تجدها مشعة بنور مِن التَّحضر والتَّمدن، وهي فترة قصيرة، قياساً بما تحتاج إليه الطَّفرات أو القفزات الحضارية!

إنه أمر يحتاج إلى دراسة ونظر في دور الشَّخص في المجتمع، كان وراء هذا أشخاص لا جماعات كأحزاب أو منظمات مثلاً، وبدأ بشخص واحد! إنها قضية ومفارقة أن تعمد أبو ظبي ودبي لتجاوز العشائرية والتَّخلف الفقهي وتساوي عقل المرأة ودينها بعقل ودين الرَّجل؛ فتكون قاضية. بينما حُرمت امرأة محامية لمدة خمسة وعشرين عاماً بالعراق، في أن تكون قاضية لأن الفقه الشِّيعي لا يسمح.

كان ذلك العام 2003 بالنَّجف، بعد سقوط النِّظام السَّابق، في الوقت الذي عيّنت المرأة في السابق قاضية، وأول وزيرة في الشَّرق الأوسط كانت عراقية، هي الطَّبيبة والسياسية المعروفة نزيهة الدِّليمي (ت 2007)! لكن، بعد كلِّ ذلك النُّهوض انظر في التَّراجع المريع بسبب الهيمنة الدِّينية السياسية والممزوجة بالعشائرية، ولم يبرز منقذٌ مؤسسٌ.

كان المستوى العِراقي آنذاك، كما يبدو، شبيهاً بأجواء تعيين أول حقوقية عراقية، وهي صبيحة الشَّيخ داوود قاضيةً (1956)، ورئيسةً لمحكمة الأَحداث، وتعيين الحقوقية واثبة السَّعدي عضوة في المحكمة، ومحاضرة في المعهد القانوني، وكم من الرِّجال القضاة تعلموا على يدها.

إذا تفهمنا رفض النَّجف، في أن تكون فيها امرأة قاضية! لكن أليس الفقه المالكي، وهو السَّائد بأبو ظبي، مثله في هذه القضية،

الفرق هو أن الفقه هناك يتحكم بينما هنا المدنية تتحكم، مع أن المفروض إن المدنية تفجرت هناك وليس في رمال أبو ظبي. إن عدد القاضيات العِراقيات، وببغداد، حالات قليلة جداً، قياساً بتاريخ البلاد وتطورها الحضاري، والغالب مِن الحالات محصورة في قضاء الأحداث لا غيره.

الفصل الحادي عشر

التُّراث المحجوب

مجلس محمد بن زايد

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا
فلا ديننا يبقى ولا ما نُرقع

زيد بن عدي (ت 587 ميلادية)

لم يخطر على البال يوماً مِن الأيام بأنني سأتحدث في مجلس سُلطة عُليا، مثل مجلس ولي عهد إمارة أبو ظبي، أو أي موقع يماثله، لا لشيء إلا لما حملته الذَّاكرة، عِبر السِّماع والقراءة، لا المشاهدة، من اعتبار منطقة الخليج محسوبة على التَّشدد الدِّيني والقبلي كاملةً، وأبو ظبي جزء منها، أعني على المستوى الرَّسمي، وإلا لنا صلات مع شخصيات تقدمية واشتراكية في مختلف منطقة الخليج، وأشرت إلى ذلك في «عمائم سُود بقصر آل سُعود» (دار مدارك 2011).

لكن الأَمر يختلف مع رجالات تلك الدُّول وحكّامها، فهم، بحسب ما حفظته ذاكرتي، لا يعدون سوى جامعين بين القبيلة والدِّين في ثقافتهم، وما بينهما مِن تعصب المذاهب، وأنا بعيد عن هذا الثُّلاثي كلَّ البعد، وما كتبته، في كتبي ومقالاتي لا أظنه يعجب مجلساً مثل مجلس ولي عهد إمارة أبو ظبي، أي الرَّجل الثَّاني فيها، فماذا سأقول وماذا أحدث، وكيف أتصرف في مستهل النَّدوة؟ أليس هناك فقهاء سيرمقونني شزراً أولاً ثم بالكلام والرُّدود؟! وربما يصل الأمر إلى إسكاتي وإخراجي مِن القاعة. كلُّ هذا كنت أحسبه قبل زيارة أبو ظبي أول مرة (شباط/فبراير 2007)!

صحيح أني قرأتُ كثيراً عن تقدم وتحضر المكان وسُكانه، وانفتاح حُكامه، لكن الصُّورة عن الرُّؤساء ظلت كما هي، ربما صاحبتني حتى عتبة مجلس ولي العهد الشَّيخ محمد بن زايد مساء يوم الاثنين 26 تشرين الأول (أكتوبر) 2009. لذا عندما تشرفت بالدَّعوة لإحياء واحد مِن المجالس ضقت وسررت في الوقت نفسه، ومِن دواعي الضِّيق، إضافة إلى ما تقدم، هو أني أجهل طبيعة المجلس، ظاناً لا يُرقي منبره إلا بشروط قريبة مِن منابر المساجد.

أما دواعي السُّرور فهي اكتشاف جمهور غير جمهوري المعتاد، ويمكن القول إنه الجمهور التَّقليدي المؤيد لكلِّ ما أقول لتجاذب الأفكار، ويوافقني دائماً، بل ويشجعني في المضي أكثر مما تجرأت في نقد الحالة الدِّينية والاجتماعية، وأحياناً يُشعرني بأنني متهاون مجامل، مع أن التَّهاون والمجاملة مطلوبان إذا رغبنا

في الوصول إلى مخالفينا، أقصد الفكر، ولا شأن لي بالخلاف الحزبي، فهذا أمر انتصرت عليه عِقب الزِّلزال الأكبر الذي هزَّ العِراق في نيسان(أبريل) 2003، فالمهام والأفكار صارت كيف نخفف مِن الخلاف الطَّاغي في كلِّ المجالات.

جرى الحديث عن احتمال قيام النَّدوة في شهر رمضان، مِن العام 2009، وانقطعت الصِّلة ولم أرَ مِن اللائق بيَّ الاستفسار عن ذلك، أو حتى التَّذكير به، فربما حصل تراجع أو عدم موافقة أن يتحدث مثلي في مجلس سام مثل هذا المجلس، لنقل عدم وجود المستوى العِلمي، أو لاختلاف نمط التَّفكير والتَّوجه، وهاهي المنطقة تغلي بالمتناقضات، وتملأ سماءها الرَّايات الدِّينية، وهي طَّائفية قطعاً فلا إسلام سياسي بريئاً مِن لوثة الطَّائفية، أياً كان مذهبه.

كان موضوع النَّدوة المقترح هو التَّسامح في الإسلام، فالمطلوب موضوع فيه شمولية، والتَّسامح في ما يُمارس مِن تزمت في ما نسمع ونرى ونقرأ، نجده محجوباً، فالأمر وصل إلى حدِ الدِّماء، وربما أنا أكثر المحتاجين إلى مثل هذا الحديث كوني عراقياً، وما زالت المقاتل جارية باسم الدِّين تارةً، وباسم الوطنية تارةً أخرى. كان تحديد الموضوع مريحاً لي، وأزال عنّي القلق مِن الحديث في مجلس مثل هذا، وإذا كان صاحب المجلس، وهو ولي العهد، يطلب التَّسامح الدِّيني والمذهبي فمعناه ما زالت الدُّنيا بخير.

لكن وقت النّدوة تقدم إلى ما قبل رمضان، وهذا ما سرّني كثيراً، فلرمضان طقوسه وشروطه، وربما تعذر عليَّ الحديث في صلب الدِّين والمذاهب في هذا الشَّهر. مع أن التَّبليغ كان مفاجئاً لي، فقبل ثلاثة أيام يصعب جمع مادة في مستوى المجلس والموضوع نفسه، وأنا خلال عملي أبحث عمَّا يفيد الألفة بين أكوام مِن الكتب، مثلها مثل ذرّات ذهب في الرِّمال، وخلال البحث وجدت العنوان «التُّراث المحجوب» مناسباً ومعبراً عما يُعلن مِن كراهية وعمَّا يُخفى مِن تسامح.

كنت بدبي في ذلك اليوم، وعليَّ الحضور إلى أبو ظبي قبل ساعة مِن بدأ النَّدوة، لذا لا بد مِن الانطلاق قبل ساعتين بحكم المسافة بين دبي وأبو ظبي، ووجودي بدبي يتعلق بوجود «مركز المسبار للدِّراسات والبحوث»، وثلة مِن الأصدقاء القربين إلى النَّفس. فما أن أُدعى للمشاركة في ندوة أو مناسبة ثقافية إلى دولة الإمارات إلا ومكثتُ بينهم لأسبوع أو أسبوعين. يتكرر هذا عادة في السَّنة مرتين أو ثلاث مرات.

كان الزَّميل الباحث ورئيس وحدة البحوث في المركز، منصور النِّقيدان، معي في الطَّريق إلى النَّدوة، ما شد في ساعدي وقوى مِن معنوياتي لما قد أواجهه داخل المجلس لعدم إعجابٍ بالحديث من فقيه أو متشدد ما، لأني لم أحضر المجلس مِن قبل متحدثاً، ولا مستمعاً، وهو مجلس ولي العهد فلا بد للمؤسسة الدِّينية مِن حضور فيه مثلاً، هذا ما كنت أفكر به.

دخلنا أنا والنِّقيدان إلى قاعة المجلس الشَّاسعة المساحة، وعند الباب فُرق بيننا، أنا أُخذتِ إلى المنصة مباشرة، التي لا تعلو على بقية المجلس، ومنصور أُخذ إلى الطَّرف المقابل، ولوسع المجلس لم أتمكن مِن تشخيص محل جلوسه، لكنها دقائق وأتى لي أحد المنظمين قائلاً: هل مَن ترغب في من يجلس إلى جانبك، مِن غير رئيس الجلسة؟ وهو الرئيس التنفيذي لدائرة اتصال علي الأحمد، قُلت بلا تردد: نادي على منصور! فقال: مَن هو وأين يجلس الآن؟! فأشرت إلى الجهة التي يجلس فيها، وأتى منصور بلباسه الخليجي. شعرت حينها أن إلى جانبي نصيراً في ما سأطرح مِن قضايا الإسلام السِّياسي والمرأة، وكم أعرف صاحبي يوافقني فيها، وربما نصرني برد على سؤال مِن الأسئلة، فلديه إطلاع أكثر مني في هذا الشَّأن.

أخذ المدعوون يتوافدون إلى قاعة النَّدوة، ولاحظت الحضور يقفون ويستمرون واقفين لأشخاص معينين حتى يأخذوا أماكنهم في المجلس؛ ومعنى هذا أن أشخاصاً مهمين في الدَّولة، ومِن أعالي القوم، يحضرون، وكنت أسمع همساً مِن الصَّف الذي في خلفي، بأسماء الدَّاخلين، منهم الشَّيخ سرور آل نهيان، والشَّيخ هِزاع بن زايد، ووزير الخارجية الشَّيخ عبدالله بن زايد، وأسماء أُخر لا أتذكرها.

أخذ العدد بالتَّزايد والمجلس غص بالحضور، بينما كنت متوقعاً مِن معنى «المجلس» في ذهني، أنه قد لا يزيد على العشرين

شخصاً، ففرق كبير بين التحدث لعشرين مستمعاً في جلسة حول طاولة مستديرة مثلاً، والتحدث لثلاثمائة شخص ويزيد مثلاً، ومِن رؤساء الدَّولة والدِّبلوماسية، ووجهاء الثَّقافة ورجال الدِّين، مَن اختفى عن عيني وراء العِقال والشماغ، ومَن دخل معتمراً العِمامة، وأظنهم ليسوا مِن الإماراتيين نسباً.

لاحظت أن ركن النِّساء، وكان عددهنَّ ليس بالقليل إلى يسار المنصة وكلهنَّ يرتدينَّ اللباس الإماراتي التَّقليدي، لذا جاءت الفكرة أن يكون لهنَّ حصة مِن النَّدوة، وما يتعلق بمعاملتهنَّ مِن التَّسامح، أو ما اصطلحتُ عليه بالتُّراث المحجوب.

كنت سألت قبل النَّدوة، أحد المقربين مِن المجلس، ومِن الحاضرين لأكثر مِن مرة، عن تقاليد المجلس: هل بالضرورة الالتزام باللازمة التي يتقيد بها معظم المتحدثين، حتى ولو كان تعليقاً بسيطاً، وهو البسملة وما يتبعها! لكن تلك الهواجس انتهت حينما قيل لي: ليس لازماً ولا مطلوباً منك، استهل حديثك بما يُعجبك، وهل طلبوا منك نص الحديث؟! قلت: لا، طلبوا العنوان فقط لموجبات الإعلان عن النَّدوة.

لا أحبذ الالتزام بالمستهلات المعروفة، لاعتقادي بأن البسملة واجبة في مستهل سور القرآن الكريم، ومع ذلك هناك سورة بلا بسملة وهي سورة «التَّوبة» أو «براءة»، وما دخل مِن تقليد في صدر الرَّسائل ومستهلات الكلام غير الدِّيني ما هو إلا نفاق في الغالب مِن الأحوال، أو محاولة لفتح الحديث واجتذاب الأفكار

في حالات أُخر، حتى إن رسائل النَّبي إلى إمبراطور الرُّوم وكسرى الفرس ونجاشي الحبشة وغيرهم كانت خالية مِن البسملة، وأن رسائل الخلفاء الرَّاشدين كانت خالية من البسملة والصَّلاة على النَّبي، وقد قرأت في أحد المصادر التَّاريخية أن الخليفة هارون الرَّشيد (ت 193 هـ) هو الذي أدخل الصَّلوات على الرَّسائل الرَّسمية، لهذا لا أُريد الظُّهور بمظهر المنافق مع احترامي واعتزازي بالبسملة، وما يُستهل به مِن الصَّلوات والتَّحايا.

أتذكر أنه في يوم مِن الأيام، وفي الذِّكرى الثَّانية لاغتيال السَّيد عبدالمجيد الخوئي (10 نيسان/أبريل 2003) بالنَّجف، عِقب سقوط النِّظام العِراقي بيوم واحد، واجهني مثل هذا الموقف، عندما دُعيت لإلقاء كلمة في الحفل، فعبدالمجيد كان صديقاً، وكانت القاعة غاصة بعمائم سُود وبيض، والحضور جميعهم مِن الرَّافعين للصلوات بين آن وآخر، فليس لي الهروب مِن البسملة والصَّلوات، بطبيعة الحال، إذا كان المجلس سُنياً بالغالب ستكون العبارة: الصَّلاة على آل النَّبي وصحبه الميامين، أما إذا كان شيعياً فالتَّركيز عادة يجري على آله.

قُبيل دعوتي إلى منبر الخطابة أتتني فكرة، وهي أن أقف لحظة صمت ثم أقول: السَّادة والشُّيوخ الفقهاء، بقية الحضور مساء الخير. ومعلوم أن العِمامة السّوداء تعني أن معتمرها مِن نسل النَّبي، فيُنادى عادة بالسيَّد، أما العِمامة البيضاء فتعني أن معتمرها مِن العامة فيُنادى بالشَّيخ. بهذا التَّفريق نلت لطف

الحاضرين وتناسوا البسملة والسَّلام عليكم، والعبارة الأخيرة هي الأخرى ليست رسمية أيضاً، إنما دخلت مِن ضمن ما دخل مِن عُرف وتقليد، وربما قالها اليهود «شالوم»، وقد أصبحت لازمة عند المتدينين، كعلامة فارقة، عندما يردون على التَّلفون أو عندما يبادرون بالتَّحية، فعندما تحييه بعبارة: صباح الخير، المبشرة بالخير يرد بعبارة: السَّلام عليكم، التي تعني لستُ في حرب معك! لذا ورد في الشُّروط أو العهدة العُمرية أنه إذا حياك ذميٌّ بالسَّلام عليكم، قل عليكم فقط، لأن بينك وبينه حرباً. مع أن القرآن لم يُحدد صيغة للتَّحية، ولم يُحدد دين ولا مذهب مَن يجوز تحيته أو مَن لا يجوز. إنما قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ (النِّساء: 86).

بهذه الفكرة بدأت الحديث في مجلس ولي العهد، وهو الاستهلال بكلمات الشُّكر لصاحب المجلس للتَّفضل بدعوتي. وبما أنه لم يُطلب مني نص الحديث، ما عدا عنوانه ونقاطه كي تطبع وتوزع ضمن الدَّعوة، قلت: عندما تفضل الإخوة المنظمون بمقترح النَّدوة سألتهم: هل لي قول ما شئت، تحت عنوان الكلام «التُّراث المحجوب» والمجلس مجلس سُلطة، وأنا نشأت وتغربت وتمرنتُ على مخاصمة السُّلطة؟! فقالوا لي: صاحب المجلس لا يُكمم الأفواه!

هنا تذكرت موقفاً للخليفة عبدالله المأمون (ت 218 هـ) -حرصت على ذِكر وفاته كعادتي في الكتابة أو الكلام- وقصة

ذلك: «كان للمأمون مجلس مناظرة يُعقد كلَّ يوم ثلاثاء مِن أيام الأسبوع، فحضر، من أجل المناظرة، رئيس المانوية يزدان بخت مِن أهل الرَّي «فقطعه المتكلمون» (أي انتصروا عليه بالجدل). فقال له المأمون: أسلمِ (أشهر إسلامك) يا يزدان بخت، فلولا ما أعطيناك إياه مِن الأمان لكان لنا ولك شأن. فقال له يزدان بخت: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممَن لا تجبر النَّاس على ترك مذاهبهم. فقال المأمون: أجل. وكان أنزله بناحية المحرم، ووكَلَّ به حفظةً، خوفاً عليه مِن الغوغاء، وكان فصيحاً لسُّناً» (النَّديم، الفهرست).

يبدو أن هذه العبارة أعجبت الإعلاميين والصَّحفيين فوجدتها في اليوم الثَّاني عنواناً أو مانشيتاً لخبر عن النَّدوة وتغطيتها في الصَّحافة؛ وأنا بالفعل كنت أقصدها، فيا ليت أن يُعاد شيء مما فعله الخليفة المأمون، وكان نفسه مثقفاً، لكني كنت أرمي إلى أبعد مِن هذا وهو الاستهلال بحدث ظل وما زال محجوباً عنا تماماً، وهو في عمق التَّسامح الإسلامي، فالخليفة كان رأس المسلمين، وهو إمام الدِّين والدُّنيا، رضينا أم أبينا فهذا هو واقع الحال، ويزدان كان رأس المانوية. مع علمنا أن جد المأمون الخليفة محمد بن عبدالله المهدي (ت 169 هـ) كان يقتل المانويين بتهمة الزَّندقة، وأخبار هؤلاء معروفة في تاريخ الدَّولة العباسية.

كانت القاعة مضاءة، وكأن الشَّمس داخلها ونحن في اللَّيل، والضِّياء يزداد سطوعاً مع وجود مرتدي الثِّياب البيض، موزعين

على صفوف منتظمة، يبدو الجلوس فيها بحسب الأهمية، فهناك مقاعد محجوزة، لم يُكتب عليها، لكن المستقبلين يرشدون كلَّ شخص إلى محله مِن المجلس، ولا يُسمح الدُّخول والبدء بالمصافحة، لأن مَن يبدأ بمصافحة شخص ما لا ينتهي إلا بعد ساعة، ولا تبدأ المحاضرة إلا بعد دخول ولي العهد، وهو آخر الدَّاخلين، وكأن القاعة تُغلق بعده، ولا أحد يخرج منها حتى ختام النَّدوة وخروجه.

عندما يدخل ولي العهد يهب الحضور بالوقوف جميعاً، ويتقدم صف كبار الشَّخصيات لمصافحته، وهناك مَن يُقبل كتفه، ومِن يكتفي بالمصافحة والانحناء، ومَن يحييه بالموايه، أي مس الأنوف، ولا أتذكر هل النِّساء قمنَ بالمصافحة أم لا. بعد الانتهاء مِن مصافحة مَن تقدم لها، في وسط المجلس، يتقدم ولي العهد إلى المنصة ويصافح المحاضر، ثم يجلس وتبدأ المحاضرة مباشرة، والحضور سكوت كأن على رأسهم الطَّير، والعيون شاخصة نحو المنصة، وهو ما يسر ويُقلق المتحدث في الوقت نفسه.

في رمضان الماضي (آب/أغسطس 2011)، وبعد سنتين مرتا على تلك النَّدوة، حضرت مجالس ولي العهد الرَّمضانية، والتَّقاليد نفسها في الحضور، ولم يكن صاحب الدِّيوان حاضراً في اثنين منها، وخمنت ذلك قبل الدُّخول، فالعلامة هو التَّساهل في التَّفتيش، وحركة المجلس نفسه. استمعت لمحاضرة البروفسور السِّنغافوري كيشو محبوباني، ويومها دخلت حاسر الرَّأس، على

غير ما أظهر في الصُّورة التي تنشرها جريدة «الاتحاد» الإماراتية مع مقالتي الأربعائية، فوجهني مَن كان عند الباب إلى حيث يجلس الفنيون وكأنها خلف الستارة، ولما أَبديت اعتراضاً خفيفاً قيل لي: ستستأنس بالمكان! وسكتُّ. وبعد لحظة دخل الصَّديق الباحث عبدالله بن بجاد فصحت عليه بصوت مسموع للجميع أكثر مِن مرة: عبدالله! التفت نحوي وقال: تعال معي، وجسلت مع الحضور في الصَّف الثاني، أقرب إلى وسط المجلس، بعد أن كنت في الصَّف الخلفي.

انشغلت طوال الجلسة بمترجم الخرسان والبكمان، وبإشاراته ونظراتهم الشَّاخصة إليه، فكأن ليس في المجلس سواه، وهو صحيح، فلولاه لكان المجلس عليهم مثل الجدار. لم ينظروا إلى الشَّاشات العملاقة الموزعة على جدران القاعة، ولا إلى منصة المحاضر، عيونهم إلى مترجمهم، وهو يحرك يديه وأصابعه إلى الأعلى والأسفل، وبحركات تثير الضِّحك أحياناً للذي لا يفهمها، ولديه آذان يسمع بها، ويجمع بين الكلمات والإشارات.

كلما أراد أحد الخرسان النَّظر إلى جهة أُخرى أعاده الجالس بقربه إلى التركيز على حركات المترجم؛ وكأنه يريد مشاركته في كلام الإشارات، فإذا نطق المحاضر لفظة التَّزايد أو الارتفاع ارتفعت يد المترجم إلى الأعلى، وأصابعه تتحرك بحسب الكلمات والأرقام، فهو يتحدث عن التَّجربة السِّنغافورية وتطورها الاقتصادي والاجتماعي، وكيف تجاوزت الفقر وهي لا تمتلك موارد سوى البشر.

أرى أحد الخرسان ينبه المترجم، بين الحين والآخر، عندما يحاول الأخير الاستراحة، فرفع اليدين وتحريك الأصابع لساعة كاملة يولد شيئاً مِن الإرهاق، وعلى الخصوص إذا حدث وضحك المحاضر أو وشوش الجمهور.

كنت أظن هناك مَن يعرفني لدى مسؤولي هذا المجلس، بحكم محاضرتي السَّابقة وصورتي التي تنشر كل أربعاء مِن الأسبوع مع مقالتي في جريدة «الاتحاد» الظَّبيانية! لم ينته الأمر عند جلوسي في آخر الصُّفوف، فخلال الازدحام، عند انتهاء النَّدوة ضيعت عبدالله بن بجاد، وأخذت انتظر مَن يعود بيَّ إلى الفندق، فتفرق النَّاس ولم يبق إلا أنا والعسس في ساحة القصر، وإذا بأحدهم يأتي مستجوباً وبنترة وشك وكأنه اكتشف أمراً خطيراً: ماذا تفعل هنا! أين بطاقتك! تنتظر مَن! واتصل مباشرة منبهاً مِن وجود شخص غريب في حديقة القصر، فهيئة شعري قد توحي بشيء غير اعتيادي! ولما عرفتُ أن البين قد جدَّ جده، قلت رافعاً صوتي: أنا ضيف وأعرف علي الحوسني، والأخير كان أحد المسؤولين هناك وهو الذي اتصل بيَّ لحضور النَّدوة، وانتهى الأمر بتدبير سيارة لنقلي إلى الفندق.

حرصت على حضور آخر محاضرة، خلال وجودي بأبو ظبي، مِن موسم المجلس الثَّقافي الرَّمضاني، وكانت للبروفسور الأمريكي تشارلز العشي حول الفضاء والصُّعود إلى الكواكب، لكن على ما يبدو الأمر صار مختلفاً، فكان الحضور يمرون عبر جهاز

تفتيش وإبراز بطاقة، إلى غير ذلك، وتجد وأنت تتوجه إلى القاعة صفاً مِن الرِّجال يشيرون لك بأدب إلى طريق أخرى تمرُّ عبر التَّفتيش، ولما سألت أحدهم لماذا اليوم، ولم يحصل بالأمس، ولماذا عبر البعض بلا تفتيش، بدا متضايقاً مِن استفساري، وقال: مجرد إجراءات بسيطة، ونحن نعرف واجبنا، وأشاح بوجهه عني. فعندها أيقنت أن صاحب المجلس كان حاضراً النَّدوة.

دخلت القاعة وإذا أرى السَّيد علي الأمين جالساً وسط المجلس بعمامته السَّوداء؛ فتقدمت للسَّلام عليه ومصافحته، لكن أحد الرِّجال منعني وقال لو سمحنا بهذا ما انتظم انعقاد المجلس، ورأيته تصرفاً محموداً مِن أجل التَّنظيم، وإلا سينتهي الوقت بالمصافحة وما يصاحبها مِن فوضى وكلام مجاملات.

جلست هذه المرة في محلٍ مناسب، لأن أحد المنظمين عرفني بالاسم، وكنت معتمراً قبعتي، فأجلسني في الصَّف الثَّاني بمقابلة منصة النَّدوة. في كل النَّدوات التي حضرتها كانت رئيسة الجلسة امرأة، ما عدا النَّدوة التي عقدتها أنا فكان المُقدم رجلاً طويل القامة عريض المنكبين، وهو الأخ علي الأحمد. اتضح لي أن أغلب الحاضرين يفقهون الإنكليزية، وهم مِن الإماراتيين، قست ذلك على عدم استخدام سماعات التَّرجمة.

كان رئيس وزراء لبنان السَّابق، فؤاد السَّنيورة أحد الحاضرين، وحاكم إمارة أم القيوين، ثم حضر ولي العهد، وبدأت

المحاضرة. جلس إلى جانبي صحفي أُردني، جاء لتغطية النَّدوة لجريدته، وسمعت زميله يُعرف له الحاضرين، ولما قال: فؤاد السَّنيورة رئيس وزراء لبنان الأسبق، اعترضت، بلا رخصة، وقلت: السَّابق وليس الأسبق، على طريقة اللغوي العراقي مصطفى جواد (ت 1969): «قُل ولا تَقل»! فرد مكفهراً بوجهي قائلاً: وما الفرق! قلت: نعم هناك فرق، السَّابق يكون المباشر للحالي، والأسبق يكون تولى الرَّئاسة بعده أكثر مِن واحد. وأن الأخ يبدو ينوي كتابة تقرير إخباري عن النَّدوة فمِن المفروض أن يكون دقيقاً في لغته! فهزَّ يده، وفهمت مِن حركته أنه كان يسخر مني.

إلا أن الصَّحفي أخذ يطمئن لي، فلما تداخل فؤاد السَّنيورة مرتجلاً بلا ورقة، وأخذ يخطأ في النَّحو أخطاءً فادحة، قال لي: أصحيح أن يقول: لدينا في الإسلام علماء سابقين، قلت: لا: الصحيح سابقون، وأخطاء أُخر. كان مِن تقليد المجلس أن تُقدم الأسئلة أو المداخلات عبر الأوراق، وأثناء المحاضرة توزع أوراق بيضاء على الحاضرين فرداً فرداً، ثم تُجمع وتُسلم إلى رئاسة الجلسة، إلا أن الرئيس السَّنيورة لم يلتزم، وحذا حذوه آخرون في هذه المحاضرة بالذات.

عندما جلسنا إلى العشاء، وكان يجلس بمواجهتي أحد القريبين لرئيس وزراء لبنان الأسبق، والأخير يجلس قريباً منا في صدر الدِّيوان، من دون أن يسمعنا، فقلت: اليوم الرَّئيس أخطأ في النَّحو كثيراً وهو يُعقب على المحاضر، فأجابني: لأنه يصرُ على

التحدث بالفصحى فيفتضح، فلو تحدث باللبنانية لستر الحال! كانت محاضرة البروفسور العشي، وهو على ما أظن لبناني الأصل، بالنِّسبة إليّ عادية، فكثيراً ما شاهدت برامج حول ذلك وقرأت مقالات. بينما ظلت محاضرة السنغافوري حيةً في ذاكرتي، لبلاغتها وما حوته مِن معلومات، إضافة إلى إسلوب المتحدث المشوّق.

مِن العادة في ندوات رمضان أن يُدعى الحاضرون إلى تناول العشاء أو السُّحور، فالمحاضرة تبدأ في التَّاسعة والنِّصف مساءً، وتنتهي حوالى الحادية عشرة، فدخلت مع الدَّاخلين، وإذا ألتقي بتركي الدِّخيل عند عتبة باب قاعة الطَّعام، فقال لي: خليك مع السيَّد، ويقصد علي الأمين. فالدِّخيل مِن خلال مصاحبة الشِّيعة صار يميز بين السيَّد والشَّيخ، وإلا غيره يدعون الأمين بالشِّيخ، مع أنه يعتمر العِمامة السَّوداء.

أتذكر في واحدة مِن محاضرات ديوان الكوفة (لعلها في شتاء 1996) تقدم الأديب الشَّاعر صلاح نيازي مِن السيَّد محمد بحر العلوم قائلاً له: كيف الحال يا شيخ! فقفز فوزي حمزة، وهو مِن المحسوبين على حزب الدَّعوة وسلمته الأردن إلى العِراق وكاد يُعدم وبتدخل أُطلق سراحه، قائلاً وبحدة: هذا السيَّد محمد! قالها بتأنيب وعصبية. فصلاح نيازي وإن كان مِن محافظتي محافظة النَّاصرية بجنوب العِراق وغالبيتها، إن لم تكن كافتها، على المذهب الشِّيعي، لكنه بعيد عن تلك الاعتبارات.

تبعتُ السيِّد علي الأمين وجلست حيث جلس، وكان ولي العهد في صدر الدِّيوان، محاطاً بالشِّيوخ وكبار الموظفين، ويجلس محاذاته رئيس وزراء لبنانٍ الأسبقِ السَّنيورة، وكان النِّقاش امتداداً للمحاضرة، كيف الأُمم الأُوروبية تهم بالصُّعود إلى الفضاء الخارجي وسبر غور الكون، ونحن ما زلنا في ما نحن فيه مِن تراجع فكري. لم أتقدم لمصافحته، فكان على الطَّعام أولاً ومشغولاً بالحديث، إلا أنه التفت فحياني مِن بعيد.

كان صوت أحد الحاضرين مرتفعاً ومقاطعاً، وولي العهد يتبسم ويناديه يا أخ إبراهيم، وبدا لي مِن مشايخ نجد الفقهاء فهو يعتمر الشماغ الأحمر بلا عِقال، فقلت للدكتور رضوان السيَّد، وكان يجلس في الصَّف المواجه لي: وأيم الله لولا يستبعد وجوده لقلتُ إنه إبراهيم البليهي! فضحك وقال: نعم هو البليهي بدمه ولحمه، مع أني لم ألتق به مِن قبل، لكن كنت قد شاهدته في إحدى الفضائيات وسمعت صوته، وقرأت له.

فالشَّيخ البليهي تسيطر عليه فكرة علاج ما نعاني منه بترك الماضي بكل تفاصيله، لأنه خالٍ مِن نسائم التَّقدم، وصار كابوساً علينا، وأن الغرب ما تقدم إلا بتركِ الماضي أو التَّاريخ، وأن العرب ليس لديهم ما يُفتخر به، وكلُّ ما جاء في كتبهم هو مِن أفضال غيرهم، وكان البليهي، في تلك الجلسة، يتحدث بمثل هذا. فصحت مِن جانبي مازحاً: يا أستاذ إبراهيم، لو أُخذ بكلامك سيُقطع عيش الكثيرين، ومنهم رضوان وأنا، فضحك الحاضرون، ورد البليهي

مسرعاً: أنتما غير، وتبحثان كناقدين المفيد مِن التُّراث، وأنا سعيد برؤيتكما. كذلك علق السيِّد علي الأمين قائلاً: لا يجوز إلغاء التُّراث كاملاً إنما هناك ما يُعتشى به، بمعنى التُّراث بحاجة إلى غربلة وتصفية وتقديم.

جرى النِّقاش مطولاً حول التَّشدد الدِّيني والإرهاب، وبين الحين والآخر يحاول الآخرون قطع حديث إبراهيم البليهي المتواصل وبحماسة: أخ إبراهيم، أخ إبراهيم، وهو مسترسل في حديثه.

سمعت في المجلس أن هناك مئة وثمانية وخمسين إماراتياً محسوبين على القاعدة، ومنهم مَن شارك في ضرب الأبراج بنيويورك (11 سبتمبر 2001). وجرى السُّؤال حول دوافع هؤلاء، مع أن المجتمع الإماراتي يعيش في رخاء قياساً بالدُّول الأُخر، وعلى وجه الخصوص المجتمع الظَّبياني، فقد قرأت في قانون الأحوال الشَّخصية أن مِن حق المرأة طلب توفير الخدمة لها في بيتها، إذا كانت مخدومة في بيت أهلها، وأغلب البيوت مخدومة بأكثر مِن خادم! وهذه إشارة واضحة إلى الرَّخاء.

ظهر للدَّولة، مِن خلال دراسة موثقة وعلمية، على المستوى الرَّسمي، أن السَّبب ليس المجتمع، أي ليس عائلات هؤلاء، إنما المدارس. ويبدو لي أن هذا الأمر يتعلق بالعمل الحزبي السَّابق للإسلاميين والسَّلفيين منهم، وهم غايتهم دائماً المدرسة، وما يُقدمه المعلمون والمعلمات للتَّلاميذ مِن مفاهيم. فما ذنب الطِّفلة -هذا ما سمعته- التي تستيقظ مذعورة في آخر الليل لأن الله

سيصب العذاب عليها إذا ما لبست كذا، وطفلة مسؤول في الدَّولة تستيقظ قائلةً لأبيها: «ليش عدنا كهرباء وغزة ما فيها كهرباء، حرام علينا لازم نطفي الكهرباء»!

لا ندري ما ذنب طفلة عمرها ستٌّ أو سبعَ سنوات تتحمل مثل هذه الأفكار، لتكون مشروعاً للكراهية، وتعرضها للرهاب! وعندما يسألها والدها مِن أين سمعت هذا تقول: «المعلمة قالت لنا». كان الحديث يجري كيف يمكن تحاشي مخاطر الإرهاب والتَّشدد، هل الأمر ثقافي، أم اقتصادي، وما سُبل المواجهة العملية والعلمية؟! صحيح أن الإمارات، أفضل حالاً مِن أي بلد آخر، لكن هناك مخاوف جدية، فالمحيط غير مأمون، والتَّعليم قد يُهدد بالتَّسييس الدِّيني.

رأيت صاحب المجلس مرات عدة، منها خاطفة بالمصادفة، ومنها عبر جلسات جماعية، هكذا سمعت البعض يُناديه باسمه، أو عندما يجري الحديث عن مجلسه الثَّقافي، فالأوائل كانوا يدخلون إلى والده عندما كان ممثلاً للحاكم في المنطقة الشَّرقية، وعاصمتها العين، أو بعد أن أصبح حاكم أبو ظبي، وينادونه: «يا زايد»!

وجدت محمد بن زايد شاباً طموحاً ممتلئاً بالحيوية والنَّشاط، ومستمعاً جيداً لا يُقاطع المتحدث معه، مع تواضع جم يشعرك إنه يتعلم منك، وعلى ما يبدو كان موازناً بين حياته العسكرية، بما فيها مِن الشِّدة، وهو الآن فريق أول ويُعد قائداً للجيش، ووظيفته المدنية كرئيس لمجلس أبو ظبي التَّنفيذي. فبعد المحاضرة بأيام

تسلمتُ منه عبر مكتبه رسالةً بخط يده أثنى فيها على المحاضرة، ولم أشعر وأنا أقرأها أنها جاءت مِن جهة عليا مثل جهته، وكأنها جاءت مِن شخص بسيط.

كان اللقاء الأَول مع ولي العهد في دار تركي الدّخيل (آذار/مارس 2007) بأبو ظبي، وكنت من المدعوين إلى العاصمة الإماراتية لحضور توزيع جائزة الشَّيخ زايد الثَّقافية ومعرض الكتاب. كنت الوحيد مِن الحضور خارج ضيوف تركي السُّعوديين والإماراتيين، والوحيد يرتدي السِّترة والبنطلون، فبقية الحضور كانوا بلباسهم الرَّسمي مثلما يسمونه بالسُّعودية والإمارات، لكن مِن غير (بشوت)، فقد فهمت أن البشت، ببلدان الخليج والجزيرة كافة، لا يُرتدى إلا بمناسبة رسمية جداً، بينما عندنا بالعراق يُرتدى في كلِّ الأوقات، فلم أرَ والدي يوماً مِن الأَيام يخرج بعقاله وزبونه أو دشداشته، وهي مِن القماش الذي كان يُسمى بالأشعري، بلا البشت في الصَّيف، ولا العباءة في الشِّتاء.

أتذكر كنا جلوساً بمقهى على ساحل البحر قريباً مِن فندق الرَّويل مرديان، واتصل تركي بأحد الأصدقاء لإبلاغنا بالدَّعوة، فهمس بأذني الصَّديق الكاتب مشاري الذايدي بموعد الدَّعوة، ولم أعرف لماذا جرى الأمر بهذا الشَّكل، إلا أنه بدا لي تحاشياً للخائضين في كلِّ معرفة، مِن الكتابة إلى النِّجارة.

في بداية الجلسة ضقت بممثل جريدة «الرِّياض» السُّعودية بالإمارات الصَّحافي الصَّديق، في ما بعد، علي الكحيص، إنه لما

سألني الصَّحافي والشَّخصية المعروفة تركي السِّديري، وكنت أجلس بمحاذاته، عن سبب خروجي مِن العراق 1979، قُلت له: كان الموت ينتظرني لقضية يطول شرحها، وكنت معارضاً وليس في حزب البعث، وعند الاعتقال حينها يُخير المعتقل بين خيارين صعبين: إما تسليم كلَّ المعلومات الخاصة بعلاقتك الحزبية وتصبح بعدها مخبراً عمَّا يحصل، وإما تموت تحت التَّعذيب، وأن شقيقي الضَّابط أُعدم بعد خروجي مِن العراق بشهور!

تدخل علي الكحيص من جانبه، بلا سابق معرفة، ممتعضاً مما قلته، وكأنه يُكذب أن تكون هناك عذابات بالعِراق أيام النِّظام السَّابق، قائلاً: إذا كنتم رجالاً أخرجوا الأمريكان مِن بلدكم! فرددته عليه بأنه لا يعرف بما جرى، ومَن تراه يُدافع عن صدام حسين كي لا يسقط على يد أمريكان أو سواهم؟! على أية حال، بعدها اصطلحنا وصار يتفقدني واتفقده في كلِّ مناسبة، أخذت أسميه بالمقاومة الشَّريفة، وهو يسمينا بالعملاء على سبيل المزاح، وأقول له: لولا العملاء ما صارت مقاومة شريفة!

في مساء اليوم التَّالي حضر المدعوون كافة إلى ديوان ولي العهد، وأدخلنا إلى قاعة شاسعة المساحة، بالقصر الذي يقع بمنطقة البطين، كنا مِن مختلف البلدان، ومِن العراقيين كان الخطاط والشَّاعر محمد سعيد الصَّكَار وأنا، وكنت جالساً بين تركي السِّديري وعلي الكَحيص، صار صاحبي وأخذ يحدثني عن روايته القادمة «الكليچا»، والاسم معروف لدى العراقيين فهو نوع

مِن المعجنات أو حلويات الأَعياد ومتاع المسافرين، ونتمازح بالقول، ونحن ننتظر وصول ولي العهد: ماذا لو قمنا معاً إلى وسط القاعة وغنينا الأبو ذية، طور داخل حسن مثلاً، فهو يعرف تلك الأسماء تماماً، ونضحك فالقاعة كانت غاصة بالحضور مع صمت مطبق.

وُضعت أمامنا على الطَّاولات علبٌ مِن التَّمر الفاخر ومكسرات وحلويات فاخرة أيضاً، كنا متناولين الغداء قبل قليل، فلا أظن أن أحداً يحتاج للطعم منها، وبعد مصافحتنا مِن قِبل ولي العهد، فرداً فرداً، وعند خروجنا نبهني الكَحيص باستغراب قائلاً: أنظر ماذا يحمل الجماعة، ونظرت أمامي وإذا عدد مِن المثقفين والمعدودين مِن الكبار ببلادهم، ومِن دولة بعينها، خرجوا يتأبطون عُلب التَّمر والمكسرات تأبطهم للكتب! وكان المشهد غريباً عجيباً حقاً، وجرى الهمس بين بقية المدعوين واللغط يكثر، قلنا إن حاملي العلب والأطباق كانوا مِن اللاامعين في مجال الثَّقافة، ومِن الميسورين لا الجائعين.

ندوة «التُّراث المحجوب»

في الحديث عن التَّسامح الإسلامي، ومحاولة إبراز تراثه، هناك درجة من التَّغييب بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، إن صحت العبارة ، بين إسلامي متشدد، لم يترك فسحة للتَّعايش خارج منطقه، وآخر قادته ردة فعله إلى التَّجاوز على ثوابت الدِّين، وجدها فرصة للتَّهور، وبطبيعة الحال سيكون انفعال المتشددين

أعظم، وأنا لست مع هذا ولا ذاك، فللدِّين جلالته بعيداً عن الحزبية واستغلاله سلاحاً في القتل والإرهاب.

قد يبدو مصطلح التَّسامح (Forgiveness) مصطلحاً ملتبساً، فإذا ما فهم خارج سياق التَّعايش عبر عن تعالٍ يمارسه القوي، أو حالة من التَّغاضي تتبادلها الأطراف، كالعبارة: «العفو عند المقدرة». فإذا جرى التَّسامح بهذا المعنى سيشي بارتكاب ذنب أو تنازل عن حق أو إعفاء مِن عقوبة، لما يتكرر على ألسنة النَّاس من عبارة «سامحك الله»، أي غفر الله ذنبك.

غير أن المصطلح المقصود، في التَّعايش، واسع الفضاء، ليس بهذا التَّحديد، ففي اللغة تأتي السَماحَة (بفتح السِّين والحاء)، وهي جانب من التَّعايش، بمعنى الجود والعطاء، وشعبياً يُقال للكريم وطيب النَّفس أنه «سَمح». وتفيد المُسامحة (بضم الميم) المساهلة، وتسامحوا: تساهلوا. وهذا هو المقصود في عنوان كلمتنا: «التسامح الإسلامي... التُّراث المحجوب».

بعد هذا المستهل جعلت الحديث ثلاثة محاور، والوقت لا يَزيد على ثلاثة أرباع الساعة وبقيتها للأسئلة والمداخلات على ما أذكر، إلا أن الالتزام به كان دقيقاً، وهي: التَّسامح والإتيان بنصوص قرآنية مبينة، وأحاديث نبوية، وممارسات لخلفاء وفقهاء، ثم الحديث عن الإسلام السِّياسي وتقديم الأدلة على وجود الطَّائفية والصِّراع على السُّلطة، وأن الله لا ينزل ويحكم إنما زعماء الأحزاب الدِّينية هم الحاكمون في حالة تسلم السُّلطة،

وأخيراً الحديث عن المرأة وعزلها بتحالف غير مقدس بين فقهاء الدِّين ورجال القبيلة.

بدأتُ بنصوص السَّماء قبل الأرض الدَّالة والواضحة على أحقية التَّسامح مع الإيمان وليس الكراهية ونبذ الآخر:

- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (النساء: 63).

- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99)!

- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: 96).

- ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (النمل: 92).

- ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (لقمان: 23).

- ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر: 15).

- ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: 89).

- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 256).

- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: 1- 6)

- ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: 46).

- ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: 5).

- ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: 82).

لكن يأتي فقيه وينسخ كل تلك الآيات الكريمات البارقات بالودِّ والتسامح بآية واحدة، عُرفت بآية «السَّيف»، وهي وردت في

أكثر من صيغة، لكن هذه هي الأقرب: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (التوبة: 5).

قال هبة الله البغدادي الشَّهرستاني (ت 410هـ) في كتابه «النَّاسخ والمنسوخ» متحدثاً عن آية السَّيف: «إنها نسخت من القرآن مائة آية وأربعاً وعشرين آية». هذا وأن القرآن الكريم وصُف بعبارة «حمال ذو وجوه»، وله أيضاً ما هو أبلغ: «وهذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال» (نهج البلاغة). وعلى ضوء هذا الوصف ليس من حق المتشددين أن يحكموا باسم الله، ويستندوا إلى نصوص لها ظرفيتها، أي زمان نزولها، ينسخون بها النُّصوص الواضحة والكثيرة الحاملة للتَّسامح واليُسر وسهولة العيش بين النَّاس.

فبحكم المعقول أن هناك مبادئ وضعت لزمانها ولِما بعده وهي باقية حتى الأبد، طالما البشرية موجودة، فلا يحجبها ظرف من الظُّروف، ولا ينسخها قول من الأقوال. فللحرب حدود وأيام، وللسلم الإطلاق في الوجود. إن للكراهية أسباباً تنتهي بنهايتها، وللمحبة والإلفة الإطلاق لكل العصور، لأن الحرب والعنف والكراهية هلاك وخراب وإبادة، بينما السلم والتسامح حياة وعُمران وولادة.

ليست تلك المبادئ الأبدية ببعيدة عن سماحة الليبرالية، بحسب لغة عصرنا، التي جاءت في رسائل جماعة بصرية قبل

ألف سنة، وهاهي البصرة اليوم تجدها مرتعاً للتشدد والمناكفات المذهبية. قال إخوان الصفا وخلان الوفا (القرن الرَّابع الهجري): «ينبغي لإخواننا أيّدهم الله تعالى أن لا يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب» (رسالة عِشرة إخوان الصفا).

إلى جانب ذلك هناك ممارسة نبوية، يصعب تغييبها أو حجبها وعدم الاكتراث بها؛ مع علمنا أن الإمام أبا حنيفة النعمان (قتل 150 هـ) أخذها منتصراً لدينه ليحل بها معضلةً تقف ضد تخالط الشُّعوب اليوم، وهي الصَّحيحة في زمنه وزمننا هذا. أفتى أبو حنيفة بجواز دخول أهل الأديان، من غير المسلمين، مساجد وجوامع المسلمين، بل حتى الكعبة، على خلاف مذاهب عديدة. جاء في «أحكام أهل الذِّمة»: «لهم دخول الحرم كله حتى الكعبة نفسها...»، مثلما تقدمت الإشارة في فصل سابق (ذكرها بابن القيم الجوزية في أحكام أهل الذِّمة).

ترى أبا حنيفة المتمسك بتلك السُّنَّة يسعى إلى تكريس ثقافة الوئام في المجتمعات المتعددة الأديان؛ ولديه ما يصلح كقاسم مشترك بين الإسلام والأديان الأُخر. فمما ينقل عنه أنه أوصى أحد تلامذته، وهو يوسف بن خالد بن عمير السَّمتي (ت 190هـ)، بوصية طويلة، بعد مفارقته وذهابه إلى البصرة، منها: «واعتصم بالتَّقوى وعاشر أهل الأديان حسب معاشرتهم». جاء في أسباب اتخاذ العثمانيين لمذهب أبي حنيفة مذهباً للدَّولة، أنه

-أي المذهب- «لم يبلغ أقصى ما يمكن من الانتشار إلا لعهد الدَّولة العثمانية، التي جعلته المرجع الوحيد للقضاء في المملكة، لأنها رأت أنه أكثر انطباقاً على مؤدى العلم، وأوفى بحاجات المدينة المختلطة».

أقول: لماذا تغيب رواية تكليف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (اغتيل 40 هـ) ليهودي أمر سفارته إلى الخوارج بالنَّهروان، قرب بغداد، مِن أغلب كتب التاريخ، وهي التي تشير إلى سعة الإسلام وسماحته. قال المسعودي في ذلك السَّفير: كان «رجلاً من يهود السَّواد» (المسعودي، مروج الذَّهب).

مَن يظن خيراً في هذه الرِّواية لا يستغرب مِن كون يهود العراق استطاعوا، وتاريخهم يرقى فيه إلى الثَّلاثة آلاف عام، التَّعايش في ظل الفسحة التي تركها الإسلام لهم، حتى إنه في أشد المحن لم يجد الشَّاعر والمحامي أنور شاؤول (ت 1984) إلا كتابة رباعية تحت عنوان «يهودي في ظل الإسلام»، وتكون سبباً لإطلاق صديقه الأديب مير بصري (2006) من الاعتقال. جاء فيها:

إن كنت من موسى قبستُ عقيدتي

فأنا المقيم بظل دين محمدِ

وسماحة الإسلام كانت موئلي

وبلاغةُ القرآنِ كانت موردي

ما نال من حبي لأمة أحمدَ

كوني على دين الكليم تعبدي

سأظل ذياك السموءل بالوفا

أسُعدت في بغداد أم لم أُسعدِ!

لا نستغرب ما قاله شاؤول في محيطه المسلم، الذي تعايش معه أهل ملَّته طول قرون من الزَّمن، إذا كشفنا عن موقف نبيل، جعل العدالة فوق كل اعتبار ألا هو الموقف العادل والنَّزيه للشيخ أمجد الزَّهاوي (ت 1967) في قضية الوصي على عرش العراق عبدالإله بن الملك علي بن الشَّريف الحُسين (قُتل 1958) مع يهودي من سواد العراق، ليس لديه عشيرة ولا حزب ولا قوة، سوى روح التَّسامح التي أفاض بها الإسلام له.

جاء في القصة: «كانت ليهودي قطعة أرض مجاورة لأرض الوصي على عرش العراق الأمير عبدالإله؛ فاغتصبها الوصي منه، فاشتكى اليهودي على الوصي، وصدر الحكم في مصلحة الوصي، فميز اليهودي الدَّعوى، وعُرضت على الشِيخ أمجد الزَّهاوي باعتباره رئيس مجلس التَّمييز يوم ذاك، وتوسط بعض معارف الشَّيخ لجعله يصادق على قرار الحكم إرضاءً للوصي، فردهم قائلاً: لا يهمني رضاء الوصي، ولكن يهمني رضاء رب الوصي، ودرس القضية جيداً، ووجد الحق في جانب اليهودي، فنقض قرار

الحكم، وأعاد الأرض لليهودي». أقول: لو أن الشَّيخ أمجد الزَّهاوي فعلها اليوم لاتهم بالعمالة للصُّهيونية!

كذلك يعد ما أورده قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي الشَّافعي (ت 450هـ) في جواز إسناد وزارة التَّنفيذ من غير المسلمين دليلاً فقهياً مهماً؛ على سعة الإسلام، وعدم ضيقه بما نرى ونسمع من أمر المتزمتين. قال: «يجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذِّمة». فمسؤولية هذا الوزير أمام الخليفة أنه «وسط بينه وبين الرَّعايا والولاة، يؤدي عنه ما أمر عنه ما ذكر، ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه من مهم وتجدد من حدث، يعمل فيه ما يؤمر به، فهو معين في تنفيذ الأمور».

وفقاً لهذا الأَمر تبوأ العديد من أهل الذِّمة، وفي مقدمهم يأتي المسيحيون، مراكز في الدولة العباسية، ناهيك من المراكز العلمية والطبية. ولما سُئل الصحابي والي البصرة أبو موسى الأشعري (ت 55هـ) عن تعيين غير مسلم على شأن المال أجاب بالقول: «يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه».

إن رواية انفتاح النَّبي على المسيحيين، في دخول مسجده والصَّلاة فيه بصلاتهم، هي المتناغمة مع ما يتحدث به المسلمون عن سماحة الإسلام، وأن شريعته هي الشَّريعة السَّمحاء. كذلك يكفي أنها مدونة من زمن ابن هشام (القرن الثالث الهجري- التاسع الميلادي) أن تصبح واحدة مِن تراث الإسلام الأقرب إلى

عصر النُّبوة مِن العصور المتأخرة التي تشددت وتزمتت، حتى تحاول التَّشكيك بما هو يوجب التَّعايش الإنساني، على شاكلة نسخ كل ما يتعلق بالآيات الدَّاعية للتَّعايش والتَّضامن والتَّكافل والألفة بين النَّاس.

على العموم، إن مَن يتطلب التَّعايش ووحدة البشر والأوطان، والتَّقارب بين الأديان، من المفروض أن يأخذ تلك الممارسات على محمل الجد، لا يهملها بحجج كثيرة ليقوي إسناد تشدده وتعصبه ضد الآخر. أقول: كم تتنافى بل تتصادم رواية «الشروط العُمرية» في معاملة غير المسلمين، وفقه ولاة الحُسبة، في الماضي والحاضر، مع رواية ابن هشام في أمر مسيحيي نجران، ومع رواية المسعودي في تكليف الإمام علي ليهودي عراقي بالسَّفارة، ومع ما يراه الإمام أبو حنيفة النعمان في أمر المعايشة مع أهل الأديان، ومع ما ورد من جواز ولاية غير المسلم في دار الإسلام لوزارة التنفيذ!

لا أظن أن صاحب الطَّبقات الشَّافعية جمال الدِّين الأسنوي (ت 772هـ) في نقله لرواية تدريس فقيه شافعي التَّوراة والإنجيل، هو والفقيه المقصود، لا يعرفان أُصول دينهما، ولم يدققا بما ورد من نصوص تنشد التَّسامح وأخرى تنشد التَّكاره. حصل هذا بالموصل العراقية في الوقت الذي كانت أوروبا تطارد فيها محاكم التَّفتيش المفكرين والمختلفين مع المذهب الرسمي! قال الأسنوي: لما عاد الفقيه الشَّافعي الكمال بن يونس (ت 639هـ) إلى مدينته الموصل «عكف على الاشتغال يدرِّس بعد وفاة أبيه في مسجده،

وفي مدارس كثيرة، وكان مواظباً على وظائفها، فأقبل عليه الناس، حتى أنه كان يقرئ أهل الذِّمة التَّوراة والإِنجيل».

نقرأ، على سبيل المثال لا الحصر، ما نظمه الشَّيخ الإمام محمد حسين كاشف الغطاء (ت 1954) في دعم الصِّلات الإنسانية، وما يجعل المعاملة هي الأساس في الدِّين والدُّنيا، لا تحويل الدِّين إلى فروض، وموانع تهدم اجتماع البشر، وتكرس الكراهية والنِّفرة، بل ويمكنها إشعال الحروب الدَّاخلية، وهتك الحرمات. قال (شُعراء الغري):

ومَن أمن الناسُ من شره　　　أ آمـن فـي ربِّـه أم كـفـر

على أي حال، إن تراث العرب، حتى قبل الإسلام، ليس كله حروباً وضغائن، وإلا من أين أتى زهير بن أبي سُلمى (ت حوالى 13 هـ) بمعلقته التي تصلح ميثاقاً من مواثيق السلم العالمي اليوم:

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمُ
وما هو عنها بالحديث المرجَّم

ومن أين أتى الشَّاعر الجاهلي قيس بن الخِطيم (ت 2 هـ)، وقيل عمرو بن امرؤ القيس (380 هـ)، بما يفيد لتكريس ثقافة الاختلاف، والتَّسامح، لا زال التباين تباين أفكار واعتقاد لا تجالد سيوف، قال:

نحن بما عِندنا وأنت بما　　　عِندك راضٍ والرأي مختلفٌ

عَّد سيبويه (ت 180 هـ) البيت، في «الكتاب»، لقيس بن الخَطيم (ت 620 ميلادية)، بينما وجده محقق كتاب سيبويه، عبدالسَّلام محمد هارون (ت 1988)، منسوباً لعمرو بن امرؤ القيس، أي قبل الخَطيم بحوالى ثلاثمائة عام، والأخير ملك الحيرة مِنْ أهل العراق.

ورد في الكتاب الكريم، في شأن شرعية الاختلاف ما هو أبلغ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (النّحل: 93). ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (الشورى: 8). ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة: 48). أقول: أليس لهذا الاختلاف أُصول وفروع، فمَن مِن حقه جمع الألوان كافة في لون واحد، وجعل الناس على دين واحد، بل هناك مَنْ يريدهم على مذهب واحد. هذه مجرد مقدمة لتفاصيل كثيرة منها الأقوال، ومنها الممارسات لتحقيق التَّسامح وتكريس السلم بين البشرية.

لا سُلطة دينية

على مستوى آخر، إن آياتٍ بينات عديدات لا تشير إلى دولة دينية، ومنها:

- ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: 80).

- ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ

اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: 90).

- ﴿ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة: 99).

- ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام: 66).

- ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (الأنعام: 104).

- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: 12).

- ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: 20).

- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام: 107).

- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الزمر: 41؛ ويونس: 108).

- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: 45).

إن الحفظ والوكالة والتَّجبر هما مِن مرادفات السُّلطة، وحصر مهمة النَّبي بالبلاغ والإنذار لا تشير إلى سُلطة على الإطلاق. أقول: جاءت هذه الآيات تدعم الحكم المدني، والسَّبب، على حدِّ مقالات علماء دين كبار أن الدِّيكتاتورية الدِّينية أكثر شدةً وعنفاً مِن الدِّيكتاتورية السِّياسية. كتب الإمام عبدالرَّحمن الكواكبي (ت 1902) قائلاً في «طبائع الاستبداد»: «تضافرت آراء أكثر العلماء، من النَّاظرين في التَّاريخ الطَّبيعي للأديان، على أن الاستبداد السِّياسي متولد من الاستعباد الدِّيني. والبعض يقول: إن لم يكن هناك توليد فهما أَخوان، وأبوهما التغلب والرياسة، أو هما صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التَّعاون، لتذليل الإنسان، والمشاكلة بينهما أنهما حاكمان، أحدهما في مملكة الأجسام، والآخر في عالم القلوب».

كتب الشَّيخ والمرجع الدِّيني في زمانه محمد حسين النَّائيني (ت 1936)، قائلاً في «تنبيه الأمة وتنزيه الملة»: «الخلاص مِن الاستعباد السِّياسي قابل للتَّحقق، إذا التفت الشَّعب إلى حقيقة حاله، وتنبه إلى إمكانية التحرر من قيوده. وعلى العكس فإن التخلص من الاستبداد الدَّيني أشد صعوبة بالنَّظر إلى فاعلية السَّيطرة على القلوب. فإذا كان هذا سنداً وحافظاً للاستبداد

السِّياسي فإن الخلاص من قهر الطواغيت يصبح هو الآخر شديد الصعوبة، إذ إنه لا يتحقق قبل الخلاص من الاستبداد الدِّيني».

أما الشَّيخ محمد عبده (ت 1905) فمن أَلمٍ قال وهو على فراش المرض:

ولستُ أُبالي أن يُقال محمدٌ

أبلَّ أو اكتظت عليه المآتمُ

ولكنه دينٌ أردتُ صلاحه

أحاذر أن تقضي عليه العمائمُ

وللنَّاس آمالٌ يرجون نَيلَها

إذا متُّ ماتت واضمحلت عزائمُ

كل هؤلاء أخذوا بالاعتبار خطورة اتخاذ الدِّين ممراً إلى السلطة السياسية، وها هي تجارب الإسلام السياسي بالسودان وإيران وأفغانستان والعراق لم تحقق سوى الضيق والعسر، وهم على حد ما قاله عدي بن زيد (ت 587 ميلادية) ثم استشهد به ابن خلدون (ت 808 هـ) في «مقدمته» في أمر تحول الخلافة إلى مُلك، أي إلى ملكية ببيت لزيد بن عدي (ت 587 هـ)، قاله في الحيرة مِن أرض العِراق خلال حكم المناذرة، وابن خلدون لم ينسب البيت المذكور:

نرقّع دنـيانا بتـمزيق ديـننا

فلا ديننا يبقى ولا ما نُرقع

أجد في أبيات قالها حفيد أبي لَهب (عم النَّبي والمشاكس له) لعبدالملك بن مروان (ت 86 هـ) وصفاً دقيقاً لاستغلال الدِّين في السَّيطرة على النَّاس، قال ويقصد بعليٍّ علي بن عبدالله بن العباس:

وإن يغضـبك قولي في عليٌ

وتمـنع ما لديك من النَوال

فـإن مـحـمـداً مـنَّـا وإنَّـا

ذو المـجـد المقدمِ والفعال

بِنَا دانَ العـبادُ لكم فأمسـوا

يسوسهم الرَّكيكُ من الرجالِ

ما زالت الأحزاب الدِّينية، أو الإسلام السِّياسي بمجمله، تدعو إلى الدَّولة الدِّينية وهي تعلم أن مسألة الإمامة السِّياسية، وطلبها، وراء صنوف التشدد والمغالاة، وهي من الخطورة، إن أرادوها بالسيف أو سوق النَّاس إلى صناديق الانتخاب عبر شعارات الدِّين، فالنَّاس توزعت إلى مذاهبَ، والحياة تجددت بما لا يمكن إرجاعها قيد شعرة إلى الوراء، وقد جُربت تلك الدَّولة في أكثر من

بلد فماذا كانت النَّتيجة! حتى شاع الأثر: «المُلك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظُّلم»!

هنا نود التَّذكير بقول ممَن عاش تلك الصراعات وعرف شعابها، فجاء رأيه عصارة ما جرى من أمرها. وصفها جماعة إخوان الصَّفا (القرن الرَّابع الهجري) بالقول: «أحد أمهات مسائل الخلاف بين العلماء... كثر فيها القال والقيل، وبدت بين الخائضين العداوات والبغضاء، وجرت بين طالبيها الحروب والقتال، وأبيحت بسببها الأموال والدماء، وهي باقية إلى زمننا هذا، لم تنفصل، بل كل يوم يزداد الخائضون المختلفون فيها خلافاً على خلاف، وتتشعب لهم فيها ومنها آراء أو مذاهب حتى لا يكاد يحصي عددها إلا الله» (رسائل إخوان الصفا). وقال أبو الفتح الشَّهرستاني (ت 548 هـ) في أمر الإمامة: «أعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة. إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية، مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان» (الملل والنِّحل).

وهذا الشَّاعر أبو عبدالحسين بن الحجَّاج (ت 391 هـ) لم يرَ هناك فائدة من الخلاف على الإمامة بأثر رجعي، مفتشاً عمَّا ينفعه، وإن كان في القصيدة تكسب الشَّاعر ظاهر، إلا أن ما يعنينا مِن الاستشهاد هو تأكيد مثول الحالة الماثلة نفسها بقوة اليوم في الخلاف بسبب مسألة الإمامة (الأسطرلابي، دُرة التَّاج مِن شعر بن الحجَّاج):

مـرَّ بَـي يومَ جمـعةٍ شـيخان

رافَـضــيٌّ وآخــر عـثـمـانـي

قال هذا: بـعـد الـنَّبــي علـيٌّ

ودعا مُنـصـفاً إلـى البُـرهان

قال هـذا: بعـدَ النَّبي أبـو بك

ر وجـاءا إلـيَّ يسـتـفـتـيـانـي

قلتُ: خيرُالعبادِبعدرسول ال

لَّه فـي مذهبـي أبــو الرَّيـانِ

خَيــرهم مَنْ رأى لباسـي قد

رثَّ وبــان اخـتـلاله فكساني

معاملة النِّساء

يرى الرَّاسخون في العلم أن مسار الزَّمن ينطلق كالرِّمح إلى الأمام، لا يعود ولا يتكور. وبالتَّالي هو «متجدد معلوم يُقدر به متجدد آخر موهوم» (الجرجاني، كتاب التعريفات)، أي المستقبل. إلا زمن شرقنا، وفي أمر النَّساء بالذَّات، فمن «لُغز الحياة وحَيرة الألباب» (العبارة للجواهري) أن تتكور وتعود آناته بتماثل عجيب ومريب. فها هي معركة النِّقاب لا الحجاب نجدها ساخنة بالقاهرة، فمن قبل أثيرت ضد وزير الثَّقافة فاروق حُسني، والآن ضد شيخ الأزهر

محمد سيد طنطاوي، وهي تميط اللثام عن أكذوبة انطلاق الزمن كالرُّمح إلى الأمام، وعن فضيحة أوهامنا بالحداثة.

على أن المعركة ليست بالجديدة، لكن الطَّامة الكبرى أنها حصلت في عصر ركوب الأثير الأسرع من الصَّوت؛ وتوظيف موجاته عبر الإنترنت والأطباق اللاقطة، وأصبح في العلم أكثر من رئيسة جمهورية ورئيسة وزراء منتخبات.

أقول الموقف السَّلبي في معاملة النِّساء هو القديم الجديد، فحينما نزل لعن الأفّاكين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النُّور: 23)، كان شكلاً للمعركة التي خاضها الإسلام ضد الجلافة في معاملة النِّساء، ولم تُشرع عقوبة ثمانين جلدة وعدم قبول شهادة متهمي المحصنات من دون دليل يدعمه أربعة شهود، إلا حماية لنساء، وهو شرط بحكم المستحيل. جاء في الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النُّور: 4).

أما حجاب المرأة ففرض في ثلاث آيات، نأتي عليها وعلى أسباب نزولها. الأولى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (الأحزاب: 53). عُرفت هذه الآية بآية «الحِجاب»، وهي خاصة بأزواج الرَّسول الكريم، ولم

يتعرض فيها إلى عموم النِّساء. فالذي يدقق في الرُّوايات الخاصة بزوجاته يجد تكرار العبارة بعد كل عقد زواج «وضرب عليها الحجاب» (ابن سعد، الطبقات الكبرى).

الآية الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: 56). خصت هذه الآية نساء الرَّسول وبناته ونساء المؤمنين، لكن ليس فرض الحِجاب على أساس الجنس بل على أساس المكانة الاجتماعية ودفع الأذى، فأسباب نزول الآية تخبر عن الحجاب كزي يميز النِّساء الحرائر عن الإماء.

وهذا أمر قديم جداً، فقد ورد في القوانين الآشورية ما نصه: «لا يجوز للأمة أن تتخفى، ومَن يشاهد أمة متخفية فعليه أن يلقي القبض عليها وأن يأخذ ثيابها». في قانون آخر يعاقب بالجلد خمسين جلدة مع ثقب الأذنين كل مَن شاهد أمةً متخفيةً ولم يلق القبض عليها (الذَّنون، تاريخ القانون في العراق). والشَّطر الأخير من الآية يخبر عن علة فرضه لكي ﴿يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من قبل أهل الرِّيبة.

الآية الثالثة: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (النُّور: 31). نهت هذه الآية المؤمنات

من التَّبرج، وفرضت ستر الصُّدور أمام الغرباء، بينما أعفت آية أخرى من السُّورة نفسها طائفة من المؤمنات تقدَّمنَ بالعمر، وهنّ ﴿الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ﴾ (النور: 60).

ما سبق كان شاهداً آخر على أن الحجاب لا يلزم المرأة لجنسها بل لظرف اجتماعي وأخلاقي، وإلا لماذا تعفى الإماء والنِّساء اللَّواتي تعدَّين سِن اليأس مِن التَّحجب، وأن لا تتقيد المرأة بحجاب أمام مَن لا مأرب له فيها. السُّؤال: ألا يشمل هذا التَشريع الصّداقات التي تحصل بين الطَّلبة أو زملاء المهنة والهواية مِن الجنسين اليوم؟!

في قضية المرأة، والتَّعامل مع النُّصوص المقيدة لحرياتها، يمكن العودة إلى الاجتهاد والعمل على التَّصالح مع الزَّمن. هذا هو جوهر الإسلام المتحضر، وأن تتم معالجة النصوص على مقتضى المستجدات، يشملها الحديث «أنتم أعرف بأمور دنياكم»، ونساء اليوم لسنَ نساء الأمس. جاهد الرَّسول ضد الإرث القبلي، لكن موقف المجتمع كان سلبياً، فلأن تخلى عن عبادة الأوثان والأصنام فلم يتخل عن موروثه في معاملة النِّساء.

عموماً، إن اعتبار النَّص وليد عصره في فروع مثل معاملة النِّساء، أراه الحل الأمثل الذي يصالح بين الدِّين والزَّمن، فلا بد من قانون مدني يساوي بين الجميع، وإلا نبقى نشكو تخلفنا

ونحن ندرك أسبابه. فأين مبرقعة اليوم مِن عائشة بنت الصَّحابي المبشر بالجنة طلحة بن عبيدالله (قتل 36 هـ)، بحسب أحاديث أهل السُّنَّة.

من ثقة عائشة بنفسها، روى أكثر من أخباري ومؤرخ: «لا تستر وجهها من أحد، فعاتبها مصعب (زوجها ابن الزُّبير) فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه النَّاس، ويعرفون فضلي عليهم، فما كنت أستره، ووالله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحدٌ». وتفصح عائشة عن ثقتها بنفسها حين ردت على نظرة شخص يدعى ابن أبي الذِّئب، وهي تطوف حول الكعبة بالقول:

مِنَ اللائي لم يحججنَّ يبغينَ حسبةً

ولكـن ليقـتلنَّ البـريء المغـفلا

على خلفية الرَّغبة في تعلم المرأة، والحاجة إلى الإلحاق بالزَّمن، حصلت معارك عدة حامية بين الداعين إلى الاحتفاظ بالنِّقاب والداعين إلى تحريرها منه، حدثت بمصر واليمن وبلدان عديدة، وهنا أتي بما حصل بالعراق نموذجاً: في نهاية الحقبة العثمانية، وإصدار الدُّستور (1908)، وبداية العمل على فصل السُّلطة الدِّينية عن السِّياسية، طرحت أفكار بدت غريبة في أول الأمر، وكانت فاتحتها (1910) بمقالة كتبها الشَّاعر والمفكر بقياسات عصره، جميل صدقي الزهاوي (1936)، دعا فيها إلى

تحرير المرأة والتَّخلي عن النِّقاب، واحتوت مقالته على البيت التَّحريضي التَّالي:

أخر المسلمينَ عن أممِ الأَرضِ

حجابٌ تشقى به المسلماتُ

أختم في شأنهنَّ ما قاله الشَّاعر عبدالرَّحمن البناء (ت 1955) على لسان فتاة ضاقت بما يجري بين الرِّجال من معارك في بنات جنسها:

ليتني متُّ ولم أسمع بمَن

قتلوا الأَوقات من أجلي عتابا

بين حجبي وسفوري اختلفوا

ولهتكي ملأوا الصُّحف سبابا

بعد هذا البيت دسّ إليّ رئيس الجلسة ورقةً يلفت انتباهي فيها إلى أنه لم يبق مِن الوقت سوى دقيتين أو نحوها، فتعجلت في كلامي، وتذكرت عندها العبارة: «ما شبعتُ ولكني تعبت» وأتعبتكم، فسمعت ضحكة عمَّت المجلس.

مِن تقاليد المجلس أن توزع أوراق على الحاضرين، مكتوب في رأسها: ديوان ولي العهد، ليدوّن فيها الحاضرون ملاحظاتهم، ويقدموا أسئلتهم مكتوبة، والأمر يبقى لرئيس الجلسة ماذا سيختار

منها بحسب ما يُناسب الوقت، الذي لا يتجاوز نصف ساعة أو أقل للمناقشة وردود المحاضر. طُرحت عليَّ أسئلة عدة، منها:

هل ترى النِّقاب أو الحِجاب معيقاً لعمل المرأة، وله تأثيرات أمنية؟!

قلت نعم، وهناك مَن يستخدمه للتخفي، فإن صومالياً كان مطلوباً في قتل شرطية بريطانية واستطاع الهروب عبر المطار بثياب وجواز أخته.

سؤال آخر حول الطَّائفية والإسلام السِّياسي، فاختصرت الجواب بالقول: لا إسلام سياسي بلا طائفية، فالإخوان المسلمون سُنَّة وحزب الدَّعوة شيعي، ولا يدخل السُّنِّي في حزب الدَّعوة ولا الشِّيعي في جماعة الإخوان. كنت متوقعاً سؤالاً مِن جهة النِّساء، وبعد انتهاء النَّدوة قالت إحداهنَّ: بعثت بالسُّؤال لكن يبدو الوقت لم يسمح.

بعد الانتهاء لا ينهض أحد قبل نهوض صاحب المجلس، فتقدم نحوي مصافحاً، ثم خاطب الحضور: القاعة لا تسعنا للصَّلاة، لذا لا بد مِن التَّوزع بين القاعة والمسجد. كان يعني صلاة العشاء. بالفعل عشت، في تلك اللحظات، ما قرأته عن مجالس المناظرات في العصر العباسي، وكيف كان الخليفة عبدالله المأمون هو المحور، وكيف يجري التَّناظر في حضرته.

كانت تجربة لي في اكتشاف الآخر، وأن الحرص على التَّمدن وتحرير المرأة مِن مشقة الماضي في الدِّين والمجتمع عين اهتمام زعماء شباب تحدروا مِن بيئة مغلقة، بيئة كانت إلى يوم ليس بالبعيد خرساء صماء، قبائل ورمال عطشى، لا تستجيب للتَّجديد، وما قلته في تلك النَّدوة، في مثل هذا المقام، كان مِن المستحيلات بالأمس، فمَن يقرأ «الرِّمال العربية» لألفريد ثيسجر لا أظنه يشك بكلامي.

الفصل الثَّاني عشر

نهيان بن مبارك
مجلس المؤتلفين والمختلفين

فقلتُ وفي البداوةِ ما يُزين البداة
وفي الحضارة ما يُشيدُ

(الجواهري 1979)

جعلت عنوان هذا الفصل «مجلس المؤتلفين والمختلفين»، وأنا أروي ما شهدته، لأربعة أعوام خلال زيارات متقطعة، لمجلس الشَّيخ نهيان بن مبارك آل نهيان، وزير التَّعليم العالي والبحث العلمي، والشَّخصية المعروفة داخل أبو ظبي، والإمارات عموماً، بانفتاحها وضمها للجميع، والفرح مع مَن يفرح، والحزن مع مَن يحزن، لكثرة تأديته واجب التَّهاني وواجب المواساة لمعارفه والبعيدين. فمجلس المؤتلفين معروف لماذا، لا يحتاج إلى شرح وتفسير، لكن كيف يكون مجلساً للمختلفين؟!

فذلك لارتياده مِن قِبل مَن كان في السُّلطة ومَن كان معارضاً لها مِن خارج الإمارات، بمعنى وجود الشَّخص ومبغضه. فكم تبدلت المواقع بين ضيوف المجلس، صار المعارض سُلطةً والسُّلطة معارضة، وظلا يترددان عليه ويتواجهان، مِن دون اقتراب بعضهما مِن بعض، وربما تصافحا في لحظة إحراج قصوى، مثل تلك التي لم يتحمّلها أحد السُّفراء مِن وزير دولة كان نِظامها عدواً لدولته.

أما أنا فمددت يدي وصافحت مَن كنت أعده مِن خصومي اللدُّودين، لا شخصاً بل نظاماً، مِن دون تعريف وتعارف. لكن أقول الحق: لو حدث هذا قبل التَّاسع مِن نيسان (أبريل) 2003 ما فعلتها، ولربَّما ما دخلت المجلس مِن الأساس، فالحوادث كفيلة بمراجعة الذَّات. أحياناً تشاهد أحدهم يدخل ويصافح مَن في المجلس ويتجنب الصَّف الذي فيه غريمه أو خصمه، لكن الاثنين يداومان على ارتياد المجلس مِن دون انقطاع ولا احتكاك بالخصم.

معارض ومطارد صار رئيس جمهورية، وآخر صار رئيس وزراء، وآخر صار وزيراً، وكان الجميع مِن قبل يجالسون سفراء دولهم القاصية لهم، وكم تبدلت المواقع، وظل الحال في مجلس الشّيخ نهيان على ما هو عليه. تناقض مِن نوع آخر، يحضر المجلس الغارق في الدِّيانة إلى حد المتشدد، وتجده يجالس الهندوسي ويضطر إلى الجلوس معه على طاولة طعام واحدة، وتدخل المحجبة مِن النِّساء وحاسرة الرَّأس أيضاً، والسَّفير الأمريكي قد يُقابل أو

يُحاذي في المجلس السَّفير الإيراني، وشيخ المسلمين يُحاذي بطريرك الكنيسة.

عندما يحين وقت الصَّلاة، ويُسمع صوت المؤذن المرفوع مِن المسجد المحاذي للقصر، لا يحتاج غير المصلين النِّفاق، بل ينهض صاحب المجلس يحف به مَن حرص على الصَّلاة، والآخرون ينتظرون حتى عودته، وكثيراً ما لاحظت غير المصلين يحاولون تجنب تلك اللحظة فتراهم يخرجون مودعين صاحب المجلس بعذر المواعيد أو الالتزامات، وكثيراً ما يجنبك صاحب المجلس الإحراج، فيقول لك: لا تغادر سأعود بعد دقائق!

كنت قد كتبتُ مقالةً في هذا الخصوص عن مجالستي لأحد الخصوم القدماء، نظاماً لا شخصاً، تحت عنوان «سبحان الجمعنا بغير ميعاد»، وهي مِن كلمات أُغنية للمطربة الشَّهيرة بالعِراق، وبالبلدان المجاورة، لميعة توفيق (1992)، ومع ذلك ما زال في النَّفس شيء مما مضى، لكن المجلس ضمنا مِن دون تجاوز أو إلحاح في الاختلاط. تجد الجمهوريين والملكيين والسُّنة والشِّيعة ومسلمي الهند وهندوسها. لكلِّ هذا جعلت العنوان «مجلس المؤتلفين والمختلفين».

في يوم مِن أيام كانون الأول(ديسمبر) 2006 هاتفني رجل مِن الإمارات، وقد عرفت ذلك مِن رقم التَّلفون، سأل عن أحوالي وصحتي، وتمنى اللقاء بيَّ في يوم مِن الأيام، وقدم اسمه الأول

مِن دون لقب، شكرته على الاتصال متمنياً ذلك مثله، وانتهت المكالمة، وفاتني الاستفسار منه بأكثر تفاصيل.

بعدها بشهر تقريباً اتصل بي الصَّديق وزير الإعلام الأسبق والأكاديمي الكويتي سعد بن طفلة العجمي، وطرأ على بالي إخباره أو الاستفسار منه: اتصل بيَّ شخص مِن الإمارات ويبدو لي أنه رئيس تحرير جريدة أو رئيس نادٍ ثقافي، قال ما اسمه: قلت: نهيان! ضحك سعد بن طفلة وقال: إنه الشَّيخ نهيان بن مبارك وزير التَّعليم العالي والبحث العلمي بالإمارات!

حينها قلتُ له: ما كنت أتوقع، فأنا لم يحصل أن تحدثتُ مع وزير طوال عمري، إلا وزير الثَّقافة العراقي الأسبق مفيد الجزائري، وكنت أعرفه رفيقاً وصديقاً مِن زمن، ووزارته كانت وزارة متعة، إذا قسناها بمقياس الزَّواج الموقت أو المنقطع بزمن، في مجلس الحكم ووزارة أياد علاوي ذات الشُّهور. أما أنت فعرفتك بعد تركك الوزارة! ضحك وظهر لي هو الذي أتى على ذكري في مجلس الشَّيخ، فعزم الأخير على الاتصال بيَّ.

ترددت في الاتصال به معتذراً، أو شكره على الاتصال والتَّواضع الجم، وهو صاحب المشاغل والموقع الرَّفيع، لكن الدَّواخل ما زالت مكلسة على فكرة التَّباين بين الحاكم والمحكوم، والتَّباعد بين الأرستقراطية والبروليتاريا، وبلا شك الرَّجل ولد ونشأ وما زال أرستقراطياً، ولقب الأرستقراطي في ذاكرتنا الثَّورية

يُعد مِن المرفوضات، بحسب التَّصنيف الطَّبقي، وأنا إلى حد الأمس القريب أؤمن بديكتاتورية البروليتاريا وأرتجي غلبتها على السُّلطة، والرَّواسب والعواطف ما زالت شاخصة، فهي تراكم أكثر مِن ثلاثة عقود، وكم فيها مِن معاناة ومخاوف وترقب يصل حتى الموت.

بعد نحو شهرين عاد الاتصال بيَّ، ودعاني إلى حضور مناسبة التَّعليم بلا حدود، واعتذرت مِن عدم معرفتي لشخصه في المرة السَّابقة، لكنه: ضحك وقال: ما عليك، المهم تعال إلى أبو ظبي في نهاية شباط(فبراير) 2007. أتذكر قلت له: وماذا أعمل في المؤتمر، أنا الآن ليس في التَّعليم! قال: تعال، وسيتصلون بك! بعدها بدقائق اتصل بي مدير المكتب ورتب لوازم السَّفر.

وصلتُ أبو ظبي، وتذكرت قولة محمد مهدي الجواهري وقصيدته التي ألقاها بأبو ظبي العام 1979 «أفتيان الخليج»، وكنت قد حفظت منها بعض الأبيات، بعد أن شاهدتُ الأمسية مسجلةً على كاسيت فيديو، ولا أدري مَن خطفه مني عند التِّرحال مِن مكان إلى آخر. يمكنك حِفظ الشِّعر مِن إلقاء الجواهري له، فإلقاؤه يأخذ بالألباب، وكثيراً ما حفظت مطالع قصائد أو أبيات مِن سماعها من تسجيل أو مِنه مباشرة، مثلما حصل في أمسيته بعدن (1983)، وقال رائعته «مِن موطن الثَّلج»، ومطلعها:

مِن موطن الثَّلج زحافاً إلى عدنِ

خبت بيَّ الرِّيح في مهرِ بلا رسنِ

عندما سمعتُ قائد الطَّائرة يقول: سنهبط بعد قليل في مطار أبو ظبي، وما تبعها مِن عبارت التهيؤ والاستعداد للهبوط، قلت في نفسي: وأين «أم ظبي»؟! هذا ما قاله الجواهري عندما رحب به مستقبلوه: أهلاً بك أبا فرات في أبو ظبي. فقال مازحاً: وأين «أم ظبي»! ذكرها في تقديم قصيدته الخاصة بأبو ظبي.

مما حفظته مِن قصيدة الجواهري، وهي تربو على السَّبعين بيتاً، وفيها توقعات للاخضرار والعُمران، قالها العام 1979، فيومها كانت الرِّمال لا زالت مهيمنة، وعيدان الشَّجر تحاول الإنبات، وفسائل النَّخل تأتي إلى الشَّواطئ وتغرس في الأسباخ، والأمل في نموها غير مضمون:

أَفتيان الخليج ورُبَّ ذكرى

تُعاد ولا يمل المستعيدُ

إلى هذه الوجوه تشعُ لطفاً

يشعُ بمثلها هذا الصَّعيدُ

مِن الملح الأجاج مشى رخياً

يُرقص نخلةً شبمٌ برود

يسيل بمالحٍ عذبٍ فراتٌ

وفي الرَّمل اليبيس يرفُ عودُ

وقفتُ على الخليجِ تذوبُ فيه

زمردةٌ يُزان بها الوجودُ

حقول النِّفطِ تسمنُ راصديها

وغازيها وأن ثَمُن الرَّصيدُ

فقلتُ وفي البداوةِ ما يُزين البداة

وفي الحضارة ما يُشيدُ

أبو ظبي بما أخذت وأعطت

عروسٌ مهرها نارُ وقودُ

وعنت لي رؤى هيم طوال

تلفهمُ التَّهائمُ والنُّجودُ

لم تعجب العديد مِن أصحاب المواقف مدائح محمد مهدي الجواهري، ومنها القصيدة المذكورة، فهم يأخذونه شاعراً ملتزماً لقضايا الجماهير أو الأَوطان، فكالوا له اللَّعنات لأنه مدح نوري السَّعيد (قُتل 1958)، والوصي عبدالإله (قُتل 1958)، وما قاله في الملك الشَّاب فيصل الثَّاني (قُتل 1958) في عيد تتويجه (1953) ملكاً، وعُرفت بقصيدة «التَّتويج»:

ته يا ربيع بزهوك العطر النَّدي

وبضوئك الزَّاهي ربيع المولدِ

لقد دفعوا الجواهري، لكَثرة ثلبهم له بسببها، إلى اعتبارها في مذكرته بـ«الهاوية»، وتحدث عنها مِن دون إشارة إلى أبياتها، وبحسب ظني، أنها ما زالت مرفوعة مِن دواوينه المطبوعة التي اطّلعت عليها، مع أنها مِن مفاخر قصائده في حبكة البناء ومتانة اللغة، والملك الشَّاب يستحق هذا الثَّناء، فلا هو مِن القتلة، ولا هو مِن الفاسدين بالمال، بل على العكس كان مظلة للعراقيين كافة مِن هجير ما أتى عليهم في ما بعد. تجدني أحب الجواهري في ما قال للملك الجميل، وما قال لعبدالكريم قاسم المغالي بالنَّزاهة والوطنية (قُتل 1963):

أعد مجدَ بغدادَ ومجدك أغلبُ

وجدد لنا عهداً وعهدك أطيب

مثلما أحببتُ الجواهري وهو يقول لمؤسس الحزب الشِّيوعي العِراقي يوسف سلمان يوسف (أُعدم 1949)، الحالم بغد أفضل للعراق، وكان الشِّعار الذي خطه لحزبه: «وطن حرٌّ وشعب سعيد»:

سلامٌ على مثقلٍ بالحديدِ — ويشمخ كالقائد الظَّافرِ

كأن القيود على معصميهِ — مفاتيح مستقبل زاهرِ

بهذا كنت أردّ على الذين يريدون الجواهري للحظة وزمن وموقف، لا لشعره وموهبته الفذة. أنا أطرب لكلِّ ما قاله الجواهري، لثوريين أو رجعيين، مثلما ما زال يُطربنا أبو الطَّيب

المتنبي (قُتل 354 هـ) في كلِّ ما قاله بحضرة صاحب حلب سيف الدَّولة الحمداني (ت 357 هـ)، وكافور الأخشيدي (ت 357هـ)، ما مدحه به وما هجاه مِن القصائد. أعجبني الجواهري في مستهله في (تغن بتموز 1978) مادحاً نفسه، ومِن حقه أن يظهر بمظهر الطَّاووس، لأنه الجواهري، قال:

أبا الشِّعر قُلْ ما يُعجب الابن والأبا

وهـل لك إلا أن تـقـولَ فتُعجـبا!

جرى حديث عن قصيدة «أفتيان الخليج»، بعد أن عرضنا كاسيت فيديو وكانت مسجلةً، في ديوان الكوفة، بعد أيام مِن وفاته، ولمِا شدني في تلك الأُمسية أتذكر يومها تماماً (مساء 3 آب/أغسطس 1997). قد سجلت القصيدة على ما أراها توقعات نهضة في العُمران والتَّمدن لمنطقة شاهدها الجواهري وهي تحبو صوب ما هي فيه الآن. مهما يكون الحال ليس لي ولا لغيري التَّفريق بين الجواهري وقصائده، مهما اختلفنا معه فيها لموقف أو شعور ما، وإذا كان لي مواقف مِن شعراء آخرين، فليس لشعرهم إنما لأخلاقهم الشَّخصية في إيذاء الآخرين، والانحطاط الاجتماعي.

وصلت أبو ظبي، وأُنزلت في فندق خرافي المساحة والأعمدة وارتفاع السُّقوف والحدائق المترامية، يُقال له «قصر الإمارات»، وحاولت تبديل مكان الإقامة بما هو أقل غرابة ورغبة في الشُّعور بحميمية المقام، مثل غرفة صغيرة لا يُشغلك فيها كيف تفتح

المصابيح، وكيف تفتح ماسورة الماء (الدش)، ولا يأخذك الاضطراب عندما يأتي معك مرشد يُعلمك هذه الأشياء، لكنهم اعتذروا قائلين: مؤتمر التَّعليم يُعقد في قاعات هذا الفندق، والإقامة هنا تسهل الحضور!

لم يحصل يوماً مِن الأيام السَّبعة التي أقمتها فيه أن وصلت إلى غرفتي مِن تلقاء نفسي؛ لشساعة المساحة وتعقد البناء. لا أدري ما هو سعر الغرفة لكنه بالتَّأكيد سعر مبالغ فيه بالنِّسبة إليّ، حينها صادفت مسؤولين عراقيين مِن الجُدد، يخرجون مع أُسرهم، وقد تبين أنهم كانوا مستأجرين أجنحة فيه، والله أعلم كم يكون سِعر الجناح، وأخذت أقيس ذلك قبل الوصول إلى السُّلطة! وعلى الرَّغم مِن معرفتي بهم مِن قبل إلا أنني حاولت تجنبهم، لوجود أسرهم مِن زوجات وبنات محجبات إلى حد النِّقاب مِن جهة، ولكراهة فسادهم المعلن مِن جهة أُخرى.

مرَّ يوم ولم يأت أحد يسأل عني، ولا أعرف ما هو البرنامج المعد لذلك المؤتمر، سوى وجود استعدادات ولافتات مخطوطة بالقلم العريض تشير إلى وجود المؤتمر وافتتاحه في القاعة الفلانية. قضيت يومي متجولاً في أروقة الفندق، لا أقصد مكاناً. وكم يبدو الإنسان قزماً، مهما بدا فارع الطُّول، وهو يقطع صالة قصر الإمارات الكبرى ويسير تحت القبة الشَّاهقة العلو. فحين تكون في طابق علوي ترى النَّاس يمرون بأحجام فسائل النَّخيل.

في اليوم التَّالي تتبعت السَّهم المتجه إلى قاعة الافتتاح، وعند الباب لا بد من أن تكون حاملاً إشارة المؤتمر على صدرك، فسألت العاملين عنها، قالوا: هل أنت صحافي أم مشارك في المؤتمر؟! قلت: مدعو مِن حضرة الوزير! قالوا: أين بطاقة الدَّعوة؟! قلت: ليست لديَّ بطاقة؟! فلما نظروا في الأسماء التي معهم لم يجدوا اسمي بينها، فظنوني أحد المتطفلين! فقالوا: نأسف، لأن الحضور لحاملي البطاقات فقط! وبعد أخذ ورد أُعطيت بادج موقتة، لونها يختلف عن لون بادجات الصَّحافيين والمدعوين! دخلت القاعة، وأنا أود رؤية مضيفي، فما كنت رأيت صورته مِن قبل، كذلك لا أعرف شخصاً واحداً بين المئات مِن الحاضرين.

بين حين وآخر يدخل شخص فتقوم القاعة له، وكلما دلف داخل بثياب إماراتية أقول: لعله هذا صاحبي! لكن الدَّاخلين مِن عَليّة القوم كثيرون، والثِّياب المتشابه لا تترك لك التَّمييز بين شخص وآخر. بعدها عُزف سلامُ الدَّولة الرَّسمي، وأُعلن عن افتتاح المؤتمر مِن قبل الشَّيخ نهيان بن مبارك وزير التَعليم والبحث العلمي، فحينها أيقنت إنه صاحبي.

تحدث في البداية بالعربية ثم بالإنكليزية، مرتجلاً الخطاب باللغتين. نزل مِن المنصة والحاضرون وقفوا عند صعوده وعند نزوله، ولما انتهى الافتتاح، هممت بالسَّلام عليه، وإشعاره بوصولي، فحتى هذه اللحظة غير معترف بيَّ كأحد المدعوين! لكن

الزِّحام وكثرة المتقدمين مِن العرب والأجانب، إلى حد التَّدافع، لمصافحته منعني مِن ذلك.

لن أنسى ذلك الرَّجل الضَّخم الجثة، وكان يسحب بيده شاباً وشابةً، ولعلهما ولديه، وسط الزِّحام كي يُقدمهما إليه، وبقيت أراقبه، فالشَّيخ كان قد خرج وهو لم يصل إليه بعد. عندها تمثلت بالبيتين، في نفسي، ولا حرج مِن ذكرهما، فهما للإمام محمد بن إدريس الشَّافعي (ت 204 هـ)، حفظتهما مِن ديوانه، ضمن قطعة شعرية، ووجدتهما مِن أكثر الشِّعر حكمةً، بل أجدهما أدباني في أكثر المواقف:

سأترك حُبَّكم مِن غَيْر بُغْضٍ

وذاك لكثرةِ الشُّركاء فِيهِ

إذا وقع الذُّبابُ على طَعام

سَأَتركُه وقلبي يَشْتَهِيهِ

عدت إلى غرفتي، منتظراً انتهاء أيام الاستضافة، فما حُدد في تذكرة الطَّائرة ثلاثة أيام، فالسَّفر في صباح اليوم الرَّابع. بعد الغداء رنَّ هاتفي النَّقال، وكان المتحدث الصَّديق سعد بن طفلة، قائلاً: أين أنت؟! بلندن أم بأبو ظبي؟! فمِن العجائب مع التَّلفون النَّقال قد تتصل بجارك الجنب وتجده يحدثك مِن الصِّين. قلت: بأبو ظبي منذ يومين، وأي فندق نزلت؟! قلت: قصر الإمارات! وهل أنت بالكويت؟! قال: إنزل حالاً أنا في اللوبي.

نزلت: وإذا أمامي الشَّيخ نهيان مع بن طفلة يقفان وسط صالة الفندق! فقال: أين أنت لم نرك، فقصصت عليه ما حصل، بأني رأيته فلم أتمكن مِن السَّلام عليه. رحب بيَّ وكأنه يعرفني مِن زمن طويل، فخفف عني وحشة المكان، وترقب الغرباء داخل الفندق الشَّاسع.

لاحظته لا يجلس بمكان إلا بعد الاطمئنان إلى أخذ ضيوفه أماكنهم كافة، ويترقب هذا وذاك ترقباً دقيقاً، كنت أبعد عنه بشخص أو شخصين، ونحن نتابع فاعليات السيرك الرِّياضي المثير، وتراه ينادي بالأسماء ويوزع الحاضرين على المقاعد.

في اليوم الثَّالث ذهبنا إلى منطقة صحراوية، على طريق العين، وبرفقة رسام الكاريكاتير المعروف بهجت البهجوري، المصري المقيم بفرنسا، وفي الطَّريق خطط لي رسمة، ما زلت احتفظ بها، وكتب عليها عبارة: إلى صديقي. لم آخذ العبارة على محمل الجد، فهي كلمة تُقال، ورفقة طريق لعدة كيلومترات لا تخلق صداقة. نُصب بالمكان مسرح، وفرشت سوق شعبية ومُتحف مصغر، وجملٌ يتوسط السَّاحة، بينما المصابيح العملاقة الملونة كانت تسكب الأضواء الملونة مِن على التِّلال المجاورة إلى داخل المكان، فتتبدل ألوان الإضاءة في الفضاء الصَّحراوي.

كان الجميع ينتظر صاحب الدَّعوة وزير التَّعليم العالي والبحث العلمي، بعد نصف ساعة مِن وصولنا، سمعت جلبةً ورأيت

ازدحاماً، فالشَّيخ الوزير وصل معتمراً الحمدانية أو السِّفرة، ومرتدياً، على خلاف ما أرى مِن دشاديش بيض، دشداشة زرقاء وبيده خيزرانة رفيعة، كانت متماهية مع رشاقته وخفة حركته أمام الجموع، بش بوجهي سائلاً عن الحال، مشيراً بيده إلى مرافقته حتى صدر المجلس، المعد في الهواء الطَّلق.

لاحظت أحد الأفغان، أو الباكستانيين، يتخذ موقعاً متقدماً بين الضِّيوف، ويتضح ذلك مِن ثيابه ولحيته الكثة أنه كانٍ مِن العاملين في التَّنظيف، ماداً رجليه متخذاً هيئة استرخاء! فأُخرج مِن المكان. لحظتها لم أستسغ ذلك التَّصرف، لكني حسبت الأمر لحذر أمني. عندها أخذ الأوبرالي الإيطالي وزميلته وفرقتهما، ولعدم اهتمامي بالأوبرا، لم أحفظ اسمه، يصدحان في عمق الصَّحراء، ويشق الصَّوت الظَّلام المهيمن في الفضاء، فمهما كانت المصابيح عملاقة يشرب نورها ظلام الصَّحراء المحيط.

بعد انتهاء المؤتمر، وفي إحدى الاحتفالات تقدمتُ مِن الشَّيخ نهيان شاكراً الضِّيافة ومودعاً، فالمغادرة غداً، إلا أنه قال: لا سفر غداً، تبقى في مكانك، حتى يتفرق النَّاس، ونتفرغ للجلوس والحديث. كانت نظرات أحد المرافقين له تقول لي: لا تُناقش انتهى الأمر! شكرته مرة أخرى. قلت للصَّديق معتصم المدفع، كان سفيراً ومِن العاملين مع الشَّيخ زايد وهو الآن برفقة الشَّيخ نهيان، وحينها أعرفه أول مرة: كيف لي تغيير حجز التَّذكرة وتمديد حجز الفندق! وكنت أعتبرهما مِن القضايا الكبرى.

ضحك وقال: هذه سهلة! بعدها اتصل بيَّ معتصم: قائلاً: الشَّيخ يقول: تأتي غداً للإفطار معه! ونسيت هل قال صباحاً أم مساءً! فنحن العراقيين لا نسمَّي وجبة الصَّباح فطوراً، إنما هذا للصَّائمين فقط، فنسميه (ريوك)، وأراها أصوب مِن الفطور، فهي منحوتة مِن فتح الريك (الرِّيق)، والفطور صار حصرياً لرمضان. لحظتها لم أفكر أن الموسم ليس موسم صوم، هكذا عدتُ الاتصال بمعتصم وسألته: صباحاً أم مساءً! فقال بشيء مِن الحدة: كيف مساءً قلت لك على الفطور، الساعة الثَّامنة تكون بالقصر، لا تنسَ. فسؤالي عن الوقت جعله يشك بذاكرتي والتزامي في المواعيد، مع أني لستُ هكذا.

أصبحت الآن معي سيارة، والسَّائق اسمه رشيد أيضاً مِن أهل الهند، ذهبتُ إلى القصر على الموعد صباحاً، وكان الفطور مائدة مقتصرة على أربعة أو خمسة أنفار، ليس كغداء يوم الجمعة الدَّائم في القصر والحضور يكون مفتوحاً، ولا يُرد أحد مهما كان، وأتى بلا دعوة. جلسنا على المائدة المستديرة، مع شخص أوروبي، رأيته أكل بأصابعه، ما يشبه الهريس مع العسل.

لكن شغلني وجود رجلٍ إلى جانب الشِّيخ نهيان، عندما مددت يدي لمصافحته أشار الشَّيخ بيده لمصافحة الرَّجل قبله، والاعتناء به عناية غير عادية، كان يؤكله، وينزل لتعديل نعله، ويمسح يديه، وكانت مظاهر النِّعمة بادية على محيا الرَّجل على الرَّغم مِن المرض، إلى درجة أنه كان مقعداً! دار حديث عام

وخاص حول المؤتمر، وسؤال حول العِراق، لكني شردت مشغولاً في المشهد وعناية الشَّيخ بهذا الرَّجل.

بعدها نهض الشَّيخ سانداً الرَّجل حتى أركبه في سيارته، وانطلقا. بعدها، بيوم أو يومين سألت أحد رِجال الشِّيخ: مَن هذا الرَّجل الذي مع الشَّيخ عند الفطور، وفي المجلس العصر، قال لي: والده، كان أول وزير داخلية للإمارات، وأخذ يقص عليَّ بما يشبه الخيال مِن برٍّ الولد بالوالد. قال: يومياً يأخذه في جولة، ويقوم بواجبه عند الغسل في الحمام، وسنوياً يرافقه إلى الصَّيد بباكستان، أو أي مكان آخر، وجعله يعيش حياته الطَّبيعية مِن دون تأثير المرض. بعدها علمت أنه صار مضرب المثل في عنايته بوالده حتى وفاته.

لم أجد معنى لوجودي، بعد انفضاض مجلس الإفطار، ولم يقل لي أحد بالانتظار، لذا ركبت السَّيارة وعُدت إلى الفندق. ماهي إلا لحظات ويتصل بيَّ معتصم: أين أنت! كيف تذهب، الشَّيخ يسأل عنك، عد حالاً أرجوك! ليس لي شغل في السَّيارة لذا قلت لرشيد: أنت حر حتى المساء، شكرني وذهب! ثم عاد معتصم متصلاً: هل معك سيارة قلت له: لا. فقال: انتظر عند بوابة الفندق سآتي إليك حالاً.

كان معتصم مضطرباً وهو يقود السَّيارة بسرعة صوب القصر، فسألته ماذا جرى! قال: ما كان يجب عليك الانصراف مِن دون أن يعلم أحد، فالشَّيخ يريدك الآن، وما تدري إذا زعل

علينا! دخلنا بوابة القصر وإذا معتصم يتنفس الصُعداء، ويقول: الحمد لله الشَّيخ ما زال موجوداً، بعد أن رأى وجود سيارته.

خرج الشَّيخ مِن مكتبه، ولما رآني أمامه قال: أين هربت؟! انتظر لا تهرب مرة ثانية. بعدها دعاني إلى سيارته وانطلقنا إلى دبي، كان معنا الإعلامي اللبناني تحسين الخياط، جرى حديث حول الإسلام وما كتبته في مقدمة لكتاب الرَّصافي «الرِّسالة العِراقية»، وجاء ذكر الباحث والمهندس المعمار السُّوري محمد شَحرور. سألني الشَّيخ ما رأيك في كتاب شحرور «الكتاب والقرآن»، فقلت مِن الكتب الجيدة، ولها تأثير وصيت، مع أن شحرور مهندس معمار لا باحث مختص في التُّراث والفقه!

عندها اعترض الشَّيخ، بعدم ارتياحٍ مِن كلامي: لا يجوز الكلام بهذا الشِّكل، وكأن المهندس أو الطَّبيب لِيس له الحق في البحث في هذه الأُمور. قلت: لا أقصد ذلك لكني أُعظم فيه البحث على الرَّغم مِن انشغاله بأمر آخر. وشرق الحديث وغرب في أمر الدِّين والتُّراث، فوردت قضية ما، فقلت: إني ذكرتها في كتابي «جدل التَّنزيل وكتاب خلق القرآن»، فقال متى صدر هذا: قلت حينها مِن سبع سنوات تقريباً. فطلب مني لو وفرت له نسخة منه، وكان كذلك.

بعد حوالى أربع سنوات على هذا الحديث التقيت بمحمد شحرور في مجلس الشَّيخ نهيان، ونظر الشَّيخ لنا وقال: ألا تعرفا

بعض؟ فقبل هذه المواجهة لم أرَ صورة شحرور، فلما قدّم نفسه: قلت كتابك أثار اهتمامي، وكيف لمهندس معمار يتفرغ لكل هذا العمل، وأنا أقدّر العناء في مثل هذا التَّأليف؟! أجابني بما أرضى الشَّيخ تماماً، وكأنه ردَّ على الحوار السابق ونحن في الطَّريق إلى دبي: لو لم أكن معماراً ما كتبت مثل هذا الكتاب.

تجاوز شحرور السَّبعين على ما يبدو، ولما دخل متأخراً إلى قاعة الطَّعام في ذلك اليوم، وكان يوم جمعةٍ (نيسان/أبريل 2011)، سأله الشَّيخ: تأخرت! رد قائلاً: كنت أُصلي! ولا أدري لماذا لم يذهب مع مَن كان في القاعة للصَّلاة في المسجد قبل الغداء؟! أريد القول مِن ذكر ذلك: إن الرَّجل كان مصلياً صائماً، فلا يُفسر لكتابه المذكور أو غيره، على أنه كان متهاوناً في عبادته، وأن التقوى والورع ليست محصورة بعلامات السُّجود على الجباه، أو في العمل الحزبي الدِّيني!

بعد العودة مِن دبي ظهراً التفت لي الشَّيخ قائلاً: موعدنا هنا السَّادسة مساءً! وانطلقت عائداً إلى الفندق، بعد أن رأيت دبي لأول مرة، والعُمران الصَّارخ نحو السَّماء فيها، وإسطوانات مترو دبي مغروسة في الصَّحراء، قبل مدِّ سكة المترو عليها، فمِن قبل ظننت أن تشييد السكة عبر أنفاق تحت الأرض.

شهدت مع الوزير احتفالاً في إحدى كليات التَّكنولوجيا، وكانت آنذاك أربع عشرة كلية، وكانت تلك الكُلية خاصة بالبنات،

كنَّ يحملن الكاميرات الحديثة وهنَّ بزيهنَّ التقليدي، العباءات والشِّيل، ونحن بالعِراق نسمي غطاء رأس المرأة ونحرها «شيلة»، ولا أعلم بماذا يسمونها في الإمارات، وهي مفردة آرامية «شيالة» واحدة مِن مكونات لباس الرِّستة الصابئي المندائي الخاص بالمرأة، لكنها بيضاء، وخارج العِبادة تكون عادة سوداء.

عدت الساعة السَّادسة، ومِن تقاليد مجلس الشَّيخ أنه يبدأ السَّاعة الرَّابعة بعد العصر، في المجلس الثَّاني المطل على البحر، أو أنها بحيرة هكذا كنت أرى الماء مِن النَّوافذ، وبعد السَّادسة يتحول إلى مجلسه الملتئم بمكتبه داخل القصر. هناك حديقة غناء، فيها أنواع الورود والأشجار، لمحت على أغصانها طيوراً ملونةً، ويبدو ظلال بقية الشَّجر الممزوج مع ظلال النِّخيل كأنه جنة صغيرة، عند المرور خلاله تنسى قسوة الحر، وتأتيك أصوات متنوعة مِن حناجر الطِّيور. كنت أستغل لحظات الانتظار وأدلف إلى عمق الحدائق، وما فيها مِن سَواقٍ وأطيار، وأشعر كأني في حريم دار الخلافة العباسية، عندما يصفها ابن جبير الأندلسي (زار بغداد 579 هـ)، أو بنيامين التَّطيلي (زار بغداد 564 هـ).

خرج الشَّيخ وتبعه ثلاثة أشخاص كنت ضمنهم، سرنا وسط الحديقة المحاذية إلى جبهة البحيرة، سمعت ونحن نسير بسرعة خلفه صوت هيلكوبتر، وكان يحمل خيزرانته بيده، ويضرب بها أحياناً حشائش في الطَّريق علت بين الأشجار، وبين الحين والآخر

يلتفت للحديث مع أحدنا، ومِن عادته التمعن في عيني المتحدث معه، بنظرات ثاقبة، وشنبه الطَّويل والمعروف به بين الإماراتيين، فقال لمَن معه: رشيد آخر شيء ذهب لاجئاً عند الملكية، ويعني بريطانيا، وهو كان جمهورياً ضدها! وأردف قائلاً: فلا أفضل مِن عهدكم الملكي، كان فيه استقرار وأُصول متّبعة، بعده أصبحت البلاد فوضى! فقلت له: هربت أولاً إلى الاشتراكية، فأنا درست ببلغاريا، ثم عملت في اليمن الجنوبية لسنوات طويلة، وقطع صوت هليكوبتر الحديث، وما بات يسمعني وأسمعه، وكأنها عصمتني مِن الجواب، ومِن الإفاضة بمشاعر، قد أجد لديه ما هو ضدها.

ما كنت أحسب أني سأركب طائرة مروحية وأنا الخائف مِن طائرة كبيرة تنسيك الفضاء الذي في خارجها! قلت للذي يسير بجانبي: هل سنركب هذه الطَّائرة؟! قال: نعم، وأين الوجهة؟ قال: لا أعلم، فنحن مع الشَّيخ! لا أدري ماذا أفعل، فمِن العادة أن أحتسي كأساً أو كأسين مِن النَّبيذ، قبل وفي الطَّائرة، لكن هنا لا نبيذ ولا يحزنون، بل يصعب أن تأتي محتسياً شيئاً مِن ذلك! مع أنه دواء في تلك اللحظات، ولا حرج في الدَّواء، وكم أدوية معمولة مِن الخنازير!

انحنت الرُّؤوس، والشَّيخ لف غترته على عِقاله تحسباً مِن عاصفة مروحة الطَّائرة، ووقف عند الباب يصعدنا واحداً واحداً. ثم صعد إلى جنب قائد الطَّائرة، فسألت أين صاحبنا؟ قالوا: في قمرة الطَّائرة، ربطنا الأحزمة، ووضعنا السِّماعات على الآذان،

مما زاد في خوفي عندما لمحته يورق أوراقاً وهو وراء المقود، وكأنه ينجز عملاً ما، بعد الصعود في كبد الفضاء.

حامت الطَّائرة فوق مسجد سلطان آل نهيان، ذي المنارة والقبة الذَّهبيتين، وفوق ماء البحيرة. سألت بصوت عالٍ مَن جلس بمحاذاتي، إلى أين سنتجه: قال أما إلى العين أو دبي، والوقت ليس أكثر مِن نصف ساعة. كانت المناسبة تقديم تهانٍ لإحدى الأُسر بدبي. فما أن هبطنا إلا وأخذت أتمنى العودة في السَّيارات، فالمسافة بين أبو ظبي ودبي، ساعة أو أكثر بقليل، فما الدَّاعي لهذه المغامرة، بهذا كنت أحدث نفسي. عند العودة أخذت أراقب مئذنة المسجد المجاور، فرؤيتها علامة للهبوط.

تكرر ركوب الهليكوبتر، مرة إلى العين وأخرى إلى دبي، لكن في مرة مِن المرات، شاهدت رجلاً يتنقل داخل القصر على كرسي المقعدين، وعمره في الثَّلاثينيات، فقيل لي: إن الهليكوبتر تحطمت به وهو ذاهب إلى الشَّيخ في مكان آخر، مما زاد القلق، وأخذت أحرص على الهروب، وفهمت بعد المعاشرة، والتردد على مجلس الشيخ في مناسبات عدة، أن هناك مِن رجاله مَن يحاول التَّهرب، بعد تلك الحادثة، ويتمارض، لكن لا أحد منهم يجرؤ أن يبث بمشاعره تلك إليه شخصياً.

حصل في يوم مِن الأيام أن مررت للسَّلام على الشَّيخ في مجلسه المسائي، وكنت ضيفاً على «مركز المسبار للدراسات

والبحوث» بدبي، فقال تعال معي بعد انتهاء المجلس، وفهمت مِن حضور البشت أنه في زيارة لمناسبة عرس أو عزاء أو افتتاح مشروع أو حضور احتفال، وكان أحد الأجانب، لعله بريطاني ضخم الجثة، ومشغول بتلفونه النَّقال داخل المجلس، فزجره الشَّيخ، فلم أر أحداً يرد على تلفونه في حضرته إلا ما ندر، أو أن يكون في طرف المجلس.

قلت في نفسي: إذا هذا الشَّخص سيصحبنا إلى الطَّائرة، مع آخرين، وكانت صغيرة بيضاء، كيف ستحمله الهليكوبتر، وهي كأنها قدر كبير، وبعد أن ركبنا وربطنا الأحزمة تغير لون الرَّجل ممسكاً بالمقعد كلما مالت الطَّائرة، وعندها خف عليَّ القلق، فلستُ وحدي في هذا الموقف، الذي أخذ يتضاءل شيئاً فشيء. ما يزيد الهم هماً في بعض المرات تطير الطَّائرة مِن أبو ظبي لتهبط بعد ربع ساعة في مكان ما لتأخذ شخصاً آخر أو ينزل منها شخص، ثم تواصل طيرانها.

ما رأيته مِن خلال الصِّلات مع الشَّيخ نهيان أنه مؤمن بأمرين: الأول بالله، إلى حد لم أره يتساهل في وقت الصَّلاة، حتى أتذكر كنت معه في زيارة إلى منطقة العين لحضور عزف موسيقي سيمفوني أجنبي، وأثناء الدُّخول إلى ساحة قلعة الجاهلي مال إلى خيمة صغيرة، على ما أتذكر كانت منصوبة عند المدخل، وأدى صلاة المغرب، فكان الوقت قد حان؛ وهو أيضاً مؤمن بالعِلم والتَّطور العلمي.

تجده يحترم الدِّيانة البوذية، ويعتبرها ديانة انفتاح وسلام، ولا يذكر ديانة أُخرى بسوء، ففي مرة مِن المرات، وجرى الحديث بوجود الباحث محمد شحرور، طُرح موضوع التَّسامح الدِّيني، فقال مبتهجاً بما لديهم بدولة الإمارات من أماكن عبادة للجميع، ذاكراً البهائيين والهندوس، ولا يتردد مِن اقتناء أو قراءة أي كتاب مهما كان مشاكساً، وكان كثيراً ما يقوم بمهمة افتتاح بناية كنيسة أو تلبية دعوتها.

تجد خيمته الرَّمضانية، التي حضرتها لأول مرة، مفتوحة على قاعة الموسيقى والغناء، والعادة يأخذ جانب مِن الخيمة له ولضيوفه، والحديث يجري في مواضيع مختلفة، وبطبيعة الحال الموضوع السِّياسي والدِّيني يأتيان في المقدمة. يصل المدعون، أو القادمون بلا دعوة، لأنها ضمنية لكلِّ شخص، السَّاعة العاشرة، بعدها يأتي هو، فتتغير أماكن الجالسين بإشارته.

كنت جالساً في طرف المجلس، وهذه عادة جَريت عليها، قرأتها في أحد كتب عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ)، وهي عندما تأتي خذ المكان الذي لا يطمع فيه أحد، أي لا تأخذ مكانك وسط المجلس، فإن كنت لست بأهلٍ له دفعوك عنه، فعندها سينقص قدرك، وإذا رفعوك مِن الطَّرف إلى وسط المجلس ارتفع قدرك. إضافة إلى أن الابتعاد عن توسط المجلس لا يخلو مِن فائدة، ألا وهي إمكانك المغادرة متى شئت، وأن لا تكون محور الحديث، وما في ذلك مِن تعب ومسؤولية في الوقت نفسه.

أتى الشَّيخ نهيان بصحبته الشَّيخ عبدالله العطية، رئيس الدِّيوان الأميري القطري ووزير الطَّاقة السَّابق، ولما مرَّ حيث أجلس قال: رشيد تقدم إلى هنا، وأجلسني مقابله والعطية، فانفتح حديث العِراق، وأخذ العطية يتحدث عن تاريخنا، وكأنه عبدالرَّزاق الحسني. قال: ثلاثة كتب جُمع فيها تاريخ العِراق، وعبرت عنه بموضوعية وشمول، وهي: «العِراق بين احتلالين» لعباس العزَّاوي (ت 1971)، و«تاريخ الوزارات» لعبدالرَّزاق الحسني (ت 1997)، و«لمحات اجتماعية مِن تاريخ العراق الحديث» لعلي الوردي (ت 1995). وكنت أُذكره ببعض الأسماء وأسماء الكتب عند مرورها في حديثه.

كان الشَّيخ نهيان يُراقب بعجب وإعجاب بذاكرة العطية، كيف له حفظ وقائع تاريخ العراق بهذه الاستفاضة. سألت الوزير العطية: هل عزة الدُّوري عندكم بقطرِ! قال: لم يصل الدُّوري إلى قطر، بل المرجح أنه صار في عداد الأموات، فالرَّجل مريض، لكن هناك مَن يريده حياً لغرض ما. بعد انتهاء المجلس قال الشَّيخ نهيان إذا لم يكن لديك التزام تعال معي إلى البيت، ويقصد القصر. فهناك تكمل السَّهرة حتى الثَّالثة صباحاً، ضمن برنامج رمضان! قلت وهو كذلك.

ركبت مع أحدهم، فلما فتحت الباب الخلفي، وكنت أظن أن أحداً يجلس في صدر السَّيارة، قال الذي يقود السَّيارة: تعال

إلى الأمام، لكنه قالها بعدم ارتياح، فاعتذرت منه لتوهمي بوجود شخص يجلس إلى جانبه. شوارع أبو ظبي في السَّاعة الثَّانية عشرة لا تزال ملأى بالحياة، والزِّينة أخذت طابعاً اجتماعياً، أكثر مِن كونها طابعاً دينياً، فهناك الأَهلة المضيئة بالضِّياء الأزرق، وحولها النِّجوم منتظمة في تشكيلات فنية، وهي زينة تذكرك بالكريسمس، أو عيد الميلاد، بأوروبا، أو مناطق المسيحيين بالعِراق مثل عين كاوه بأربيل، وتبقى المحال بأبو ظبي مفتوحة حتى ساعات الصَّباح، مِن المقاهي والمطاعم وبقية المخازن، وحتى المكتبات لبيع الكتاب.

كان الرَّجل صامتاً، حتى شعرت أنه غاضب عليَّ لمحاولة جلوسي في الخلف، وهو من العادة يجلس هناك كبار الشَّخصيات، لكن مرات عدة رأيت الشَّيخ نهيان يجلس إلى جانب سائقه خَلفان ذلك الشَّاب الطيب، وأن ملوك السعودية يجلسون في الأمام أيضاً، وقيل هو تقليد لوالدهم الملك عبدالعزيز، عندما استقل أول سيارة تصل بلاده وجلس في المقدمة، وبالعِراق نسمي هذا المكان «الصَّدر». سألته كي أفتح معه موضوعاً ما، مهما كان تافهاً: هل هذه الأهلة فقط في رمضان، قال بنترة: نعم، وصمت. فاحتفظت بسكوتي حتى أوصلني إلى باحة القصر، ولا أدري هل ردَّ عليَّ عندما شكرته أم لا، ولم أعرف اسمه مع أني أعرف أكثر الموجودين هناك.

في تلك السَّاعات، مِن ليالي رمضان، يتخذ المجلس شكلاً آخر، وهو نشر طاولات وكراسٍ داخله، وحول كلٍّ طاولة يتجمع خمسة أو سبعة للعب الطَّاولة أو الورق مِن غير مقامرة، فلما دعاني الشَّيخ إلى طاولته للعلب قلت له: لا أعرف. وأنا بالفعل لا أعرف أي نوع مِن أنواع اللعب، سوى الشِّطرنج، وبشكل بدائي. فقال حينها: بس تعرف تكتب! قلت: أتمنى ذلك.

أشار إلي بالجلوس على المقعد الجانبي قريباً منه، وبعد ساعة نظر إليّ، ورأى التَّعب بائناً عليَّ، مع رغبة في النَّوم، فقال: إذا تحب اذهب وارتاح، نراك على الفطور غداً. فقمت وكانت هذه آخر مرة أحضر بعد السَّاعة الثَّانية عشرة معه. في هذا المجلس يتحول الشِّيخ نهيان كواحد مِن رجاله في القصر أو موظفيه في الوزارة والجامعات، فرأيت محمد المرابط داخل القصر يجلس إلى جانبه في لعب الطَّاولة والآخرين أيضاً.

يتسع المجلس المسائي إلى مائة شخص أو أكثر، ففي لحظات الصَّمت أشغل نفسي بحِساب الجالسين، مرة مِن اليمين وأخرى مِن اليسار، تزين صدره ثلاث صور زيتية مرسومة رسماً متقناً: الشَّيخ زايد في الوسط وعلى يمينه نجله الأكبر الشَّيخ خليفة، رئيس الدَّولة وحاكم أبو ظبي، وعلى يساره الشَّيح محمد بن زايد، ولي عهد الإمارة ونائب القائد العام للقوات المسلحة.

مِن العادة أن يتوافد الحضور إلى القصر قبل الشَّيخ نهيان، وتستطيع معرفة وجوده داخل المجلس أم لا مِن طبيعة حركة

الموجودين، فهم يتحركون بحرية ويتجمعون عند باب المجلس في حالة عدم وجوده، وعند وصوله يخرج المجلس عن بكرة أبيه إلى الخارج لاستقباله، وتتكرر المصافحة يومياً مع الجميع.

بعد أخذ مكانه يشير إلى الحضور بالجلوس، ثم يقف المجلس لأي شخص قادم، وتستطيع معرفة أهمية الشَّخص ومركزه مِن تقدم الشَّيخ لاستقباله خطوات إلى وسط المجلس، وفي حالة قدوم حاكم مِن حكام بقية الإمارات أو شخصية كرئيس جمهورية أو رئيس وزراء دولة أجنبية، يُعلم الشَّيخ بدخول سيارة الضَّيف إلى باحة القصر فيسرع إلى استقباله عند نزوله مِن السَّيارة عند بوابة القصر الدَّاخلية، محفوفاً بالحاضرين، وعند وصوله تتغير أمكنة الجالسين، فمنهم مَن يترك مجلسه إلى خارج الدِّيوان، كي يفسح المجال للوفد القادم بالجلوس.

في مرة مِن المرات دخلت المجلس ورأيت شخصاً بهي المنظر، وأنيق الملابس، شككت أن يكون عراقياً، لكن سحنته المائلة إلى الحمرة قللت مِن شكي، فدخلت مِن دون أن أخصه بالتَّحية، لكنه أخذ ينظر إليّ مِن بعيد، وتلتقي نظراتنا المتبادلة، مِن دون كلام. بعد الغداء كان الشَّيخ نهيان واقفاً ويقف إلى جانبه الرَّجل نفسه، فقال له: أتعرف رشيد؟! هذا دكتور عراقي ما زال يعيش في الغربة! وقدم الرَّجل نفسه: الدُّكتور علاء النَّورس. قلت له: مِن عائلة النَّورس التي منها موسى كاظم النَّورس (ت 1982) مترجم كتاب «دوحة الوزراء»!

قال: إنه والدي، عندها أطمئن الرَّجل لي، بعد أن حدثته عن أهمية الكتاب الذي ترجمه والده عن التُّركية، كون الكتاب صنفه رسول الكركوكي العام 1831 بتوجيه مِن والي بغداد الشَّهير داوود باشا.

هذا الكتاب يُعد أحد المصادر في تأكيد أن العِراق الحالي هو نفسه في الفترة العثمانية، وأن المجتمع العِراقي مِن كُرده وعربه وبقية شعوبه كانوا يعيشون داخل هذا الوطن، فقصة تعيين داوود باشا والياً على العراق كان برغبة من عربه وكُرده، والقصة تطول.

يَعمل الدُّكتور علاء النَّورس في جامعة الإمارات بالعين، ومقيم هناك منذ فترة طويلة. أتذكر بعد أن أنهينا حديثنا خارج المجلس دخلنا فلم نجد مكاناً للجلوس، لكن الشَّيخ نهيان دعانا إلى الجلوس قريباً منه، وأن نكون إلى جنب بعضنا لنُكمل ما بدأناه مِن حديث. وكم تشرفت بمعرفة هذا الرَّجل، وكم هي الدُّنيا صغيرة! وأن يكون نجلاً لرجل خدم التاريخ العراقي بترجماته ومؤلفاته، إنه موسى كاظم النَّورس.

لأربع أعوام وأنا أرى التوأمين بالطُّول والعمر والثِّياب خالد وأنور يدخلان إلى صالة المجلس حاملين مرة المباخر، وأخرى الشَّاي أو القهوة، واستأنست بنظام سيرهما المنتظم وسط القاعدة، وعيونهما شاخصة إلى مقعد الشِّيخ نهيان، يسيران متحاذيين وينقلان خطواتهما نقلة واحدة، يبدآن بالشيَّخ وهو

الذي يشير إليهما للبدء بشخص أجلسه إلى جواره، وكذلك يفعل الدَّاخل إلى المجلس ليبدأ بتحية ذلك الشَّخص بإشارة مِن الشِّيخ قبله.

نويت تصوير خالد وأنور، بلباسهما الأبيض وهما يعتمران الحمدانية، ويندفعان إلى المجلس مع المبخرتين، واللتين يمران بهما على الجميع، فبالنسبة إلى المُعَقلِّين (يعتمرون العِقال والشماغ) يخفقون الدُّخان تحت الشماغ، وبالنِّسبة إلى الآخرين، وهم عادة مِن الأجانب، يخفقون الدِّخان إلى وجوههم، لكني خشيت أن التَّصوير داخل المجلس فيه شيء مِن الإحراج، وربما المنع إلا للمصور الخاص. وما كنت أود أن أفصح عن نيتي في كتابة هذه المشاهد والانطباعات. لكن في خارج الصَّالة سألت معتصم ومحمد، وهما مديرا الدَّار وأصبحا قريبين مني: كيف لي تصوير خالد وأنور؟ فأخذني معتصم حيث يجمرون المباخر ويهيئون الشَّاي والقهوة، فالتقطت لهما صورة.

بين فترة وأخرى يحاول صاحب المجلس قطع الصَّمت بالسُّؤال عن أحوال أحد الموجودين؛ أو عن حدث ما، أو عن مقالة وكتاب صدر، إذا كان الحاضر مِن الكُتاب والباحثين. أحياناً يُسمح ببعض المزاح في حضرة الشَّيخ، وعادة يكون المبادر مِمن لديهم الميانة، أو ممَن عرفوا بذلك. فإذا ضحك الشَّيخ يضحك الجميع، حتى ممَن لم يسمع المُزحة. قام أحدهم وتعمد الشَّيخ سؤاله أين

تصلي اليوم، أو أين صليت البارحة؟! فبادر أحد الحضور قائلاً: أهويُصلي، أظن لا يُصلي! فخجل الرَّجل وعاد قائلاً لمَن هجاه كل هذا الهجاء: هل أنا أسمي عزرا؟! ويقصد أنه مسلم وليس يهودياً، فضحك الجميع.

بين حين وآخر أرى شخصاً يقرفص على ركبتيه أمام الشَّيخ، عارضاً عليه ورقة، وبعد أن يقرأها ينادي محمد، أبرز مديري الدَّار، ويسرع داخلاً فيوجهه بهمس لقضاء حاجة الطَّالب. أو أن الطَّالبين يقفون عند الباب، فيوقفون الشَّيخ وهو يهم بالدُّخول إلى صدر المجلس، ويتحدثون معه بصوت مسموع. لكنه عندما يوجه أوامره يُحاول ألا يُسمع أحداً، بل يوجهها هامساً وتُنفذ بصمت، ويتضح مِن أسارير وجوه الطَّالبين أنهم فازوا بتحقيق طلباتهم!

إنها طريقة قديمة بقدم وجود هذا الضَّرب مِن العلاقة، طريقة قرأت عنها كثيراً ضمن ما قرأت في تاريخ الخلفاء والأمراء والوزراء في العهود الغابرة، مع التَّأكيد على التَّقدم الاجتماعي والحياة المدنية، لكن ينبغي علينا عدم المقارنة مع أنظمة ليبرالية أو ديمقراطية، فمشيخة القبيلة بإطارها العصرِي ما زالت مقبولة بين الحاكم والمحكوم، في مكان كان في الأمس مجرد كثبان رملية، تركه أهله للعمل في أماكن مجاورة لشدة العازة. وجدت الشَّيخ مسروراً بالطَّلبات، ويربت على كتف الطَّالب مؤكداً قضاء حاجته، والعديد منهم يبدون كأنهم قادمين مِن عُمق الصَّحراء.

يبدو القيام والجلوس داخل المجلس أمراً مفروضاً تلقائياً على الجميع، مهما علت المنازل أو دنت، فما أن يدخل شخص، إلا إذا كان مِن رِجال الدَّار، ينهض الشَّيخ فينهض الجميع، ويظل المجلس واقفاً حتى ينتهي الدَّاخل مِن المصافحة فرداً فرداً، وكلٌّ فرد صافح القادم له الجلوس، وأحياناً يدخل شخص ويكتفي بمصافحة مَن هم في صدر المجلس، وهم عادة أربعة، يتوسطهم الشَّيخ، وهو الذي يختار مَن يجلس على اليمين ومَن يجلس على الشِّمال، ويحرك يديه طالباً مِن الجميع الجلوس، فيأخذ محله حتى مِن دون إتمام المصافحة.

جسلت مرة إلى جانب رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت، والقادم للعمل بأبو ظبي، ولاحظت عليه أنه متضايق، أو هكذا ظننتُ، مِن حركة القيام والجلوس وانتظار مصافحة الشَّخص القادم، حتى ينتهي مِن مصافحة الصَّف كاملاً، فنظر إليّ وتبسم مِن دون كلام، لكني خمنت ما أراد البوح به، فقلت له مواسياً: إنه مجرد تمرين رياضي، وقطع لرتابة الجلوس، فأشار بالموافقة، وكان نحيفاً ليس بحاجة لأي تمرين.

أحياناً تتم المصافحة بالأيدي فقط، ومنهم مَن يُقبل كتف الشَّيخ، أو مَن جلس محاذاته مِن عليه القوم، مثل حاكم مِن حكام الإمارات أو مِن أولياء العهود الشَّباب، وأحياناً تتم بالمصافحة والعناق والتقبيل على الوجه، لكن الكثير مِن التَّحايا تتم عبر تماس

مقدمات الأنوف بعضها بعضاً. سألت أحد الجالسين محاذاتي، وهو إماراتي الأَصل: ما اسم هذا النَّوع مِن التَّحايا عندكم؟! قال: أظن اسمها «مخاشمة»، وقد قاسها مِن الخشم وهو الأنف، فاعتقدت ذلك مع شكي في التَّسمية.

لكني عدت وسألت الصَّديق علي بن راشد النٌّعيمي: فقال: نسميها موايهة، أي مواجهة، فهم يقلبون الجيم ياءً، وبالفعل كان اسمها ذلك، ولما قلت له، ونحن داخل المجلس، بأن أحد الجالسين قال لي: مخاشمة، أطلقها ضحكة لفتَت الآخرين نحونا، مِن دون تعليق.

يصعب عليك أن تُقدم نفسك صديقاً للشَّيخ نهيان، فبسرعة يرد عليك الآخرون أنه صديق الجميع؛ فمع اهتمامه الشَّخصي يوهم كلَّ فرد عاشره أنه صديقه الشَّخصي فقط. أتذكر اتصلت به مِن دبي للسَّلام عليه، وما كنت أروم إشغاله لولا أن شخصاً شاهدني موجوداً بالإمارات وتوقعت أن يخبره، فاتصلت به ولم يُجب، وبعد لحظات اتصل هو شخصياً: أين أنت ومتى أتيت؟ غداً تعال إلى الغداء.

قلت: إنه يوم جمعة ولا أظن أنه سيتذكرني، فالحضور كثير والمشاغل أكثر. لكن ساعة مرت على الغداء وإذا به يتصل، وشعرت في اتصاله شيئاً مِن العتب: يا رشيد لماذا لم تحضر إلى الغداء؟! لا أعرف ماذا أقول، فكانت لي مفاجأة، فتعذرت بأنه كان

على سفر ليؤدي واجب العزاء لرئيس الجمهورية الباكستاني! قال: عدت في اليوم نفسه، أنا موجود، احضَر غداً. فكم يظهر لك أنه مشغول لكنه يتذكر ويتفقد صغائر الأمور.

لم أخبره بعدم وجود وسيلة نقل معي، فقد وصلت في اليوم الآخر عبر الحافلة، وهي وسيلة نقل مريحة، فيها التبريد والمقاعد الوثيرة، وأجرتها زهيدة جداً، حوالى خمسة عشر درهماً، على ما أتذكر، فحين وصلت اتصلت بالكاتبة العراقية، والمحررة في مجلة المرأة اليوم، منى سعيد، فقد وعدتها سأزورها عند الوصول إلى أبو ظبي، وبعدها أخذت تاكسي إلى قصر الشَّيخ، عصراً، ولما حان وقت الصَّلاة ذهب ليصلي، مع وصية منه، لا تذهب سأعود. بعدها قال لي: هل معك سيارة؟! قلت: أدبر حالي وأروم العودة إلى دبي. فقال: أنا ذاهب إلى دبي فتعالٍ معي. حاولت التخلص من الموقف، لأنه سيذهب بالهيلوكبتر، وأجد الباص أكثر راحةً لي. ركبنا الطَّائرة ونزلت في الطَّريق، وحسبت أنها نهاية الرِّحلة، لكن هناك مَن نزل وهناك مَن صعد معنا، وكانت المناسبة التي حضرتها معه افتتاح جمعية خيرية خاصة باللبنانيين.

تعرفت إلى بشر كثيرين في هذا المجلس، مِن المؤتلف والمُختلف، وترى صاحبه يُقدم ضيوفه بالاسم وباعتزاز مهما كان حجم الشَّخصية القادمة، مِن رؤساء جمهوريات ورؤساء وزارات دول أُخر، ووزراء، وسفراء دول أجنبية وعربية، ومدراء

مؤسسات عالمية كبرى، ومِن نائلي جائزة نوبل، ومذيعين عالميين وفنانين كبار.

في أحد المجالس جلست قبالة السَّفير البريطاني دومينيك جيرمي، وكتب في كارته الشَّخصي: سفير صاحبة الجلالة. وعلى خطوة منه جلس السَّفير الأمريكي، وظننته سفير دولة عربية، فكان ذا سحنة عربية أو شرق أوسطية، وبطبيعة الحال جرى الحديث عن العِراق، وقلت للسَّفير البريطاني: ألا كلمتم شريككم الأمريكي في الحرب لإسقاط النِّظام عن الهفوات والأخطاء الجسام؟ وأشرت إلى السَّفير الأمريكي! تبسم مؤيداً، وكان صاحبه مشغولاً بحديث آخر، وهزَّ يده، معتذراً عن نقل ما طلبته منه، فالحديث بينهما حديث دول لا حديث أشخاص، وهو مسؤول عما ينطق به مِن كلمة أو ما يهمسه بآذان الآخرين، وخصوصاً إذا كانوا ممثلي دول كبرى، هي بمثابة الأخت الكبرى مثل أمريكا.

الفصل الثَّالث عشر

عراقيو أبو ظبي في عِسرها ويُسرها

«لم يكن فيها مطار
إنما ركبنا طائرة صغيرة
ونزلنا على مدرج مِن الرِّمال»

(محمد مكية 1949)

ظلت كلمة دليلة متحف العين ترن في أُذني، وهي أن طبيبة عراقية اسمها مليحة عاشت هنا لفترة طويلة، تعالج أمراض النِّساء وتشرف على الولادة، وأظنها قالت: «أمي تولدت عندها». حصلت مليحة على جائزة ووسام أبو ظبي. سألت عن هذا الاسم عراقيين مقيمين بأبو ظبي فلا أحد يعرفها، ولم يبق أمامي سوى مرجعنا (غوغل)، فظهرت الدَّكتورة مليحة مؤرخة عراقية، لها كتاب «متصوفات عراقيات»، فغيرت الطَّلب، وحددته بطبيبة

مليحة بمدينة العين، فلم أجد حولها سوى قرار ولي عهد أبو ظبي الشَّيخ محمد بن زايد في منحها وزوجها وسام أبو ظبي، المرقم (78) في عام 2008، وعبارة وردت مع الخبر، المنشور على موقع «محاميو الإمارات» تقول: «المعروفون بالدُّكتور ثابت ومليحة».

هناك خبر آخر في حصولها وزوجها على جائزة أبو ظبي لعام 2008 أسوة مع الرَّحالة ألفريد ثيسجر (ت 2008) عن موقع المركز الإعلامي لجهاز الشُّؤون التَّنفيذية لإمارة أبو ظبي: «عمل الدُّكتور ثابت وزوجته الدُّكتورة مليحة على حدٍ سواء في علاج سكان مدينة العين لفترة 39 عاماً، حيث عالجوا خلالها الآلاف من السُّكان بما أتيح لهم من معدّات طبية بسيطة منذ بدء عملهم في الخمسينيات، مِن القرن الماضي».

إلى جانب معالجتهما الأمراض في عيادتهما لم يتوانيا عن تقديم خدماتهما وعلاج المرضى في بيتهما طوال اليوم؛ وفي خيام البدو بالصَّحراء. ولإدراكهما بأن العديد من الأمراض ناتجة من سوء التغذية، فقد جلب الزَّوجان معدات الرَّي والزِّراعة إلى العين لتحسين التَّغذية في المجتمع، كما قدّما مضخة مائية لفائدة المجتمع المحلي، وقاما بوضعها قرب العيادة. كان الدُّكتور ثابت طبيب عام يعالج شتى الأمراض بالإضافة إلى الأسنان، بينما كانت زوجته الدُّكتورة مليحة طبيبة نسائية قامت بمعالجة النِّساء كما تولّت توليد الآلاف منهنَّ. هذا كلَّ ما قرأته عن مليحة.

ليس لديَّ تأكيد على عراقية الطَّبيبة مليحة سوى دليلة متحف العين، ومَن لديه معلومة مغايرة فليُعدل توهمي ويصوب خطئِي، مع طمعي أن تكون مليحة عِراقية الأصل. أما عن كنديتها فهي قد تجنست وتزوجت، وأخذت اسم زوجها مثلما هو الحال ببلاد الغرب، وهو عُرف جارٍ لا قانون سارٍ.

تلك كانت الدَّفعة الأولى للكتابة عن العِراقيين بأبو ظبي، قبل اللقاء بالمحامي أبي خالد صلاح إبراهيم، والباحث والضَّابط السَّابق فالح حنظل، واللقاء بعبدالله نجل الدُّبلوماسي نجم الدِّين عبدالله حمودي، وآخرين مِن الأولين والمتأخرين، وما وجدت مِن شذرات في رواية الأديب البحريني بدر عبدالملك «أبو ظبي ذاكرة مدينة» عن العراقيين.

أما الدَّفعة الثَّانية فجاءت مِن الصَّديق الإماراتي شكري المهيري، وكنت قد تعرفت إليه عن طريق صديقنا العِراقي المشترك، طيب السَّرية والمشغول بهموم غيره إلى حدٍ يصعب تصوره، عبدالإله توفيق، مِن دون أن يعلم بأني أنوي كتابة فصل عن العراقيين بأبو ظبي. والحق استغربت أن يكون اسم شكري إماراتي، فكلُّ مَن أقول له: اتصلت بشكري أو التقيت بشكري يردف قائلاً: غريبة كيف اسم شكري إماراتي. سألت أبا عبدالرَّحمن عن سرِّ ذلك فأوضح لي بأن والده زار دمشق مرات عدة، يوم كانت الإمارات تُسمى ساحل عُمان، وعندما يُسأل عن بلاده يقول مِن ساحل عُمان، فيُسأل ثانية: هل أنتم مِن الإباضية! مع أن ساحل

عُمان تسمية جغرافية لهذه المنطقة، وهي على مذاهب أهل السُّنة مالكية وشافعية ومِن الإمارات حنابلة.

كان حينها رئيس سوريا شُكري القوتلي، وهو الذي ضحى بمنصبه الأول، مِن أجل الوحدة مع مصر، ليكون عبدالنَّاصر الأول وهو الثَّاني، وكان والد شكري مِن المعجبين بعبدالنَّاصر، على أساس أنه رائد للأمة العربية، وحينما ولد له مولود سماه شكري، فهذه قصة اسم شُكري الفريد بالإمارات.

أما أنا فصار اسمي شُكري عندما حضرت معرض الكتاب بالرِّياض (آذار/مارس 2011)، فقيل لعبدالله السَّائق أوصل: الدُّكتور رشيد إلى جامعة الملك سعود. فصاح عليَّ خالطاً الحروف على مزاجه: شُكري تفضل.

قال شكري المهيري ونحن نمر في ساعة متأخرة مِن الليل على حدائق مسجد زايد الكبير، وهو ينير الفضاء ببياض قبابه النَّاصع: «هناك عِراقي عاش معنا داخل أسرتنا، وكنا ونحن أطفال يأتي بنا إلى هذا المكان لنلعب، اسمه زهير يوسف، وصار واحداً مِن أسرتنا، كان هنا منذ عام 1967 أو أبعد مِن هذا، وظل معنا حتى عام 1990، وخرج مِن الإمارات لمخالفة قانونية في الإقامة، وذهب إلى الكويت، ثم أُبعد إلى الأردن، بعد احتلال الكويت مِن قِبل العِراق، وانقطعت أخباره تماماً». قال شكري ذلك لعلّي أعرف عن صاحبهم العِراقي شيئاً. ثم أضاف إليّ: أن اسمه زهير بطرس يوسف، فتبين أنه مسيحي. حاول شكري وأسرته البحث عنه،

وانفقوا مالاً مِن أجل ذلك، لكنهم لم يفلحوا بالعثور على خبر منه، وما زالوا يبحثون.

أتذكر جيداً، وأنا بعمر الصِّبا، أن حديثاً كان يجري عن وصول أحد معارفنا إلى أبو ظبي أو دبي، لا أتذكر أيهما، وكانت والدته تتذكره وتبكي على أنه ركب في زورق مِن ساحل البصرة ونزل تلك الدِّيار، وإنه كان مِن المطلوبين السِّياسيين إثر انقلاب (8 شباط/فبراير 1963) بالعراق ومجيء البعثيين إلى السُّلطة، وما سال مِن دماء في وقتها، وإنه تخلص مِن سلطة الحرس القومي بإعجوبة، عندما تصدى لهم وقاتلهم، حتى قتل أو جرح واحداً منهم. لكنه لم يعد بعد سقوط سلطة البعث الأولى (18 تشرين الثاني/نوفمبر 1963)، ولا أحد يعرف له اسماً ولا مكاناً، ما عدا في الأيام الأولى عُرف أنه في هذه الدِّيار، ولعله بدّل اسمه وانخرط في المجتمع الإماراتي بلا عودة.

بعد ثلاثين عاماً (أي العام 1993) اتصلت بيَّ امرأة إماراتية، بعد أن أخذت تلفون المكان الذي كنت أعمل فيه، مِن مكتبة الكشكول بلندن، وكان الصَّديق الرَّسام، وابن مدينتي، كريم الأسدي يعمل فيها، وتكلمت بأنها وأولادها في زيارة للندن، ثم أخذت أسمع منها ما يشبه الحزورة، عن أصل والدها العراقي، وأتت بأسماء تذكرتهم بصعوبة، قالت: جدي فلان وعمي فلان وجدتي فلانة، وهو اسم تلك الأم الثكلى على ولدها وكان شاباً حينها، وأظن أنها توفيت مِن زمن بعيد، أتذكرها تماماً وكنا نحيط

بها على الفطور (أقصد الرَّيوكَ)، وأنا طالب في الصَّف الثَّالث المتوسط، وكنت في زيارة لهم بالبصرة، فتذكرت ولدها وبكت، وحكت قصته.

بعد أن أنهت المرأة الإماراتية كلامها معي، وقبل، أن تغلق الخط، انفتحت ذاكرتي بسيل مِن الأحداث، فقلت لها ما قصة أبيها، وكيف كان ضد البعثيين إلى غير ذلك مِن باب مدحه وصارت له قضية كبرى معه، لا تنتهي إلا بإعدامه لو صار بأيديهم. واتفقنا على لقاء حيث الفندق الذي تُقيم فيه وسط لندن، في مساء اليوم نفسه. ذهبت للقائها في الوقت والمكان المحددين في الصَّباح، آخذاً بتأكيدها على الوفاء باللقاء بنظر الاعتبار مع إعطائي اسم الفندق ورقم غرفتها وعائلتها، كوني سأربطها بأصل طالما ظل تائهاً عنها، إلا أنني انتظرت وانتظرت بلا جدوى، ولما سألت عنها قال صاحب الفندق: غادرت نهائياً قبل ساعتين تقريباً، ولا يدري إلى أين اتجهت.

ففسرت الأمر بالتَّالي: أنها كانت متحمسة للاتصال بجذورها، وهي قضية مهمة لدى العربي على وجه الخصوص، وأخذها الشَّوق إلى ذلك بعد أن سمعت مني بأسماء الأعمام والأجداد والحدث نفسه، لكنها على ما يبدو أخبرت أباها في الأمر، وهو لأني أعلم بقضيته الكبرى مع سلطة البعث آنذاك، وكان البعث ما زال في الحكم ويده طولى، ونحن العراقيين لنا هواجسنا غير العادية مِن عمل مخابراتي أو ورطة غير محسوبة، فأكد عليها الابتعاد، بل

الرَّحيل مِن الفندق وربما مغادرة بريطانيا. كنت بالفعل متشوقاً لسِّماع أخبار قريبنا وقصة رحلته، وربما التقيتُ به، خلال زياراتي إلى أبو ظبي، لكن باسم آخر هيئة أخرى.

سمعت مِن العراقيين قصصاً عديدة على منوال قصة صاحبنا، فكثيرون، مِن عراقيين وفلسطينيين وسوريين وبحارنة وخلافهم، نزلوا سواحل أبو ظبي، في نهاية الخمسينيات وعقد الستينيات مِن القرن الماضي، بلا جوازات سفر بحثاً عن ظل يأوون إليه وملاذ آمن هروباً مِن تورطهم بقضايا مختلفة ببلدانهم.

تأتي القضايا السِّياسية في المقدمة، فطُلاب الثَّورات يأتون إلى أبو ظبي كي ينفذوا إلى ثوار ظفار العُمانيين مثلاً. فحينها لم تكن أبو ظبي، ولا بقية الإمارات المتصالحة السَّبع، متشددة في نقاط الحدود، أو جوازات السَّفر، فمَن ينزل على رمالها يشق طريقه في العثور على عمل أو يعيش حياة البطالة متنقلاً بين مساكن الأصدقاء مِن بني قومه.

يذكر بدر عبدالملك قصة حسين العِراقي، وسألت عنه عراقيين عاصروه، وما زالوا يعيشون بأبو ظبي مذ ذلك الوقت، فقالوا: اسمه خلف الحصونة، وآل الحصونة يتحدرون مِن مدينة النَّاصرية، وكان عصبياً مشاكساً يستشرس على أصدقائه مِن مواطنيه العِراقيين، عاش، في أوخر السِّتينيات حياة الغربة والتشرد بأبو ظبي، هكذا فهمت مِن خلال سياق القصة، وممَن حضر مشاجرة له مع أحد معارفه.

طلب حسين، أو خلف، مِن بدر لقاءً منفرداً معه، قائلاً له: «أريدك في شغلة مهمة»! وفي اللقاء طلب منه مساعدته في الالتحاق بثوار ظفار بسلطنة عُمان! وبعد أن استغرب عبدالملك مِن هذا الطَّلب، فهو بعيد عمَّا يبتغيه حسين، إلا أن حسين وجد الحياة بأبو ظبي لا تُطاق، فهي حياة بطالة وتسكع على الرِّمال آنذاك، فألح عليه وكان متأكداً مِن قدرته على ترحيله إلى ظفار. لم يكمل بدر قصة حسين وإلى أين وصلت به الدُّنيا! هل تمكن من الالتحاق بالثُّوار وقُتل هناك أم عاد إلى بلاده أو استمر يعيش بأبو ظبي بعد تبديل الاسم والهوية؟! لا أحد يدري.

كذلك تجد بين الصور الملحقة في كتاب «أبو ظبي... سيرة مدينة» (1968-1970) صورة (أبو) نديم شهاب صالح، أحد العراقيين الذين عاشوا بأبو ظبي في منتصف السِّتينيات، هكذا وردت كنيته واسمه، مِن دون أي تعليق آخر، ولا أحد يدري أين هو الآن أبو نديم، هل استمر في العيش بأبو ظبي وصار مواطناً، أم تركها إلى بلاد أخرى، أم مات ودفن في رمالها. فهي قصص وروايات لكنها حيَّة معاشة، ويغلب على الظَّن أن حياة العِراقي، ببلاده أو غربته، لا يحتاج الرِّوائي كثيراً مِن الخيال لصياغتها في عمل أدبي، هذا ناهيك عن أن حياة العراقيين عامةً قد فاقت الخيال.

قال بدر عبدالملك، وأكد لي عراقيون عديدون عاشوا تلك الفترة، في أسباب وصول عراقيين وبكثرة نسبة إلى القادمين آنذاك إلى أبو ظبي، وعن تجربة وخبرة معهم: «مِن أهم التَّجمعات،

والعناصر السِّياسية، كانت التَّجمعات الشِّيوعية العراقية بكل أجنحتها، بل كان هناك وجود للبعثيين، الذين لم يتفقوا مع سياسة حمامات الدَّم في العِراق في تلك الفترة (1960 –1970)». تحدث بدر عن وجود جناحي الحزب الشِّيوعي العراقي بأبو ظبي آنذاك، الذين انشقوا عن الحزب وما عُرف بالقيادة المركزية، ومَن بقوا فيه هم أتباع اللجنة المركزية. فالطَّرفان كانا هاربين مِن الحكم الجديد بالعراق، وكثيراً ما كانت تنشب المعارك بينهم خلال النِّقاشات.

كان عدد من هؤلاء يذهب سراً إلى البصرة عبر سفن لا يحتاج راكبها آنذاك إلى بطاقة أو جواز سفر، يصل إلى أهله ثم يعود عبر الطَّريق نفسها. ويُذكر اسم كاظم العراقي الذي كان سعيداً برؤية أهله، ثم ينقطع خبره. بحسب ما سمعته مِن المحامي أبي خالد صلاح إبراهيم، وهو مِن جيل أواخر السِّتينيات بأبو ظبي، وصلها مِن البصرة بحثاً عن العمل، ونزل في أول الأمر بدبي، ثم وصلها عبر السَّيارات وكانت الطَّريق لم تُعبد بعد، أن العراقيين آنذاك كانوا يجتمعون بمقهى أحمد كرخاني، وهو كُردي عراقي.

كانت الطُّرق مقطوعة بعدد مِن العراقيين الذين يصلون إلى أبو ظبي، يعيشون حالة البطالة والتَّسكع، وينتظرون بلا جوازات سفر، ولا شيء بأبو ظبي يشغلهم، سوى الشَّاطئ وبساط مِن الرِّمال، فتولى المحامي أبو خالد مكاتبة السَّفارة العراقية بعاصمة المملكة العربية السُّعودية الرِّياض، العام 1969، بأن عدداً مِن العراقيين

بلا جوازات وأحوالهم سيئة جداً، فاستجاب القنصل وطلب قائمة بالأسماء، مهما كان وضع الهوية التي بحوزة العراقي، وبالفعل وصلت الجوازات إليهم، فتفرقوا على ديار الدُّنيا. مِن عراقيي الخمسينيات يُذكر اسم إسماعيل عبدالزَّهرة، وخضر، وصاحب المقهى كرخاني، وهو كُردي عراقي سمى زبائنه المقهى على اسمه.

في زيارتي لأبو ظبي، ضمن دعوة احتفال الموسم الثَّاني لجائزة الشِّيخ زايد للثَّقافة، وكان أحد الحاصلين عليها المعمار العِراقي رفعت الچادرچي، اتصل بيَّ الدُّكتور فالح حنظل، وكنت أسمع أنه كان مرافقاً للأمير عبدالإله، الوصي على عرش العِراق (1939-1958)، ويود اللقاء بيَّ واستضافتي في مجلسه الثَّقافي، لكني كنت في الطَّريق إلى دبي، ولم يحصل اللقاء.

ظل الاسم في ذهني، فلما عزمت على كتابة شيء عن عراقيي أبو ظبي، سألت الأصدقاء عنه، فقيل لي إنه يعمل في هيأة الثَّقافة والتُّراث، واقترح عليَّ الدكتور سلمان كاصد، المحرر في جريدة الاتحاد الظَّبيانية القسم الثَّقافي، أن يتصل به هو أولاً ويخبره برغبتي في لقائه.

كان الضَّابط السَّابق في الحرس الملكي، والباحث التَّاريخي الحالي، يعتمر العِقال والكوفية الحمراء، وهي نادرة أو تكاد تكون معدومة بأبو ظبي، ويعتمر هذا اللَّون مِن الكوفيات (الشماغات) بالعِراق عادة أهل الزُّبير وأهل سنجار مِن الموصل والصابئة المندائيين العِراقيين، شيوخهم في الغالب.

كان قوي البنية رشيق البدن، حاد النَّظرات، وكأنه ما زال يمارس التدريب العسكري، وما خطر ببالي أن يكون قد أكمل السَّابعة والسَّبعين عاماً، وهو بهذا الألق وشدة قبضة الكف عند المصافحة، فهو المولد في العام 1934. نزلت إلى لوبي الفندق ومباشرة أومأ إليّ بيده. صحح لي أنه لم يكن مرافقاً للأمير عبدالإله، هكذا قالها، فبعد ثورة 14 تموز (يوليو) 1958 لا يُذكر عبدالإله بصفته أميراً أو وصياً، إنما كان ملازماً في الحرس الملكي.

سألت عمَّا أوصله إلى أبو ظبي، لكن قبل الإجابة عن سؤالي، أجابني بما غفلت عن السؤال، وهو حياته بالعراق. ظهر أنه تخرج مِن الكلية العسكرية العام 1956، أي قبل 14 تموز (يوليو) بعامين، وخدم في الحماية الملكية، سُرح مِن الخدمة العسكرية، وعمل في اتحاد الصِّناعات العِراقي، ثم مديراً لمصنع. لكن الأحوال قد تغيرت بعد انقلاب 17 تموز (يوليو) 1968، فحينها أُخذ يُرصد الملكيون والجمهوريون، على حدٍّ سواء، وصل فالح حنظل إلى أبو ظبي العام 1969، وكان أحد الشُّهود على بدايات المدينة، وصلها عبر الأردن، وكان قدومه الأول لحفر آبار الماء.

فُسح له المجال للدِّراسة، فحصل على الدُّكتوراه في الدِّراسات الإسلامية مِن جامعة إيكسيتر عام 1988، وقبلها العام 1965 درس في الولايات الأمريكية الإدارة الصِّناعية. قال لي كلمة بليغة وأنا أسأله عن أبو ظبي قبل النهوض وكيف حصل العُمران:

كان البناء يسبق الإعلام، فقبل إذاعة خبر إقامة عِمارة أو فتح طريق أو إنشاء مؤسسة تبرز أخرى جديدة إلى جانبها.

كان نتاج بحوثه في الشأن الإماراتي: «المُفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة»، و«معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات»، وجدت في كتابه الأول نَفس المؤرخ العِراقي عباس العزاوي (ت 1971) في كتابه «العراق بين احتلالين» مثلما تقدمت الإشارة، فقد سطر الحوادث على السِّنين سَنةً بسَنة. وكتب أُخر في العُمق الإماراتي، منها: «معجم القوافي والألحان»، و«ابن ظاهر أمير شعراء النَّبط»، و«رسائل الرسول وكتبه إلى حُكام الخليج العربي»، وله مخطوط تحت عنوان «قصر الحصن في التاريخ والأدب والفن»، ويقصد القصر الأول بأبو ظبي. ما زال فالح حنظل عاملاً وباحثاً في هيأة الثَّقافة والتُّراث بأبو ظبي.

كان للدُّبلوماسي العِراقي الأصل نجم الدِّين عبدالله حمودي حضور في قيام الاتحاد بين الإمارات المتصالحة؛ أو السَّاحل المتصالح، وخدم في الدِّبلوماسية الظَّبيانية ثم الإماراتية لثلاثين عاماً، أي مِن عام وصوله أبو ظبي حتى وفاته فيها ودفنه هناك في العام 1999.

ولد نجم الدين ببغداد، ودرس فيها، ثم بُعث للدِّراسة بأمريكا، وعمل في مديرية الآثار العِراقية حتى العام 1949، ثم وزارة الخارجية موظفاً في سفارة أو قنصلاً أو سفيراً، دار العالم

مِن الصِّين إلى أفغانستان ومصر، حتى أُحيل على التَّقاعد، وبعد انقلاب 17 تموز(يوليو) 1968 فمثله لا يسير بخط الثَّورة. كانت أحرج فترة عمل فيها عندما سفيراً لبغداد بالقاهرة (1961-1962)، وهي أشد أعوام الصِّراع العراقي المصري، في زمن الزَّعيم عبدالكريم قاسم (قُتل 1963) والرَّئيس جمال عبدالنَّاصر (ت 1970).

سألت فالح حنظل عمَّا إذا كان هناك أولاد لنجم حمودي، فقال: ولده عبدالله موجود، فدعني أتصل به ثم أعطيك رقم هاتفه. في اليوم نفسه اتصلت بعبدالله، وطلبت اللقاء به، فقال: نحن في رمضان الآن، فليكن اللقاء بعد الفطور وصلاة التَّراويح، وخشيت أن أسأله عن وقت انتهاء التَّراويح، لعله يكون مِن المتدينين المتشددين ويظن بيَّ الظنون ويعزف عن مقابلتي، وأنا لا أعرف وقت انتهاء التَّراويح، فحسبتها وقلت له: هل نلتقي بحدود العاشرة مساءً، وجاءت منه: يمكن ذلك، فأنا أكون قد انتهيت مِن التَّراويح السَّاعة التَّاسعة أو أكثر بقليل.

ولد عبدالله ببغداد، ووصل مع والده وهو لا زال صغيراً، وبحكم وظيفة والده وصلاته بقصر الحصن خالط ولعب مع أولاد الشَّيخ زايد ممَن هم بعمره واضح ذلك مِن الصُّور الملحقة بكتاب والده. حكى لي قصة إرث والده ببغداد، فالوالد كان موظفاً كبيراً، ومِن عائلة ميسورة، فهو لم يتمكن مِن حلها في ظل النِّظام السَّابق، وما زال ينتظر الفرصة، وهو حقه الطبيعي، مهما تغيرت أو تبدلت

جنسيته، فالمُلك يتبع الشَّخص، ووالده خدم العراق الملكي مِنه والجمهوري خِدمة مخلصة، بهذه الكلمات هونت عليه الأمر.

كان لنجم الدِّين دور في المفاوضات على تشكيل الاتحاد، وكان عضواً في لجنة اختيار العلم والنَّشيد والشِّعار الوطني الإماراتي، وقبلها كان مِن مؤسسي وزارة الخارجية، وكان وصل إلى أبو ظبي عبر البحرين، فبعد إحالته على التَّقاعد، وغيره مِن الأكفاء، عقب 17 تموز (يوليو) 1968 أخذ يبحث عن فرصة عمل، ومِن خلال الصَّداقات كانت النِّية للعمل بالكويت، لكن ثمة صعوبة تعيين وعمل لدبلوماسي عراقي عاش وتعامل مع الخلافات العِراقية الكويتية العام 1961 يوم أعلن عبدالكريم قاسم ضم الكويت إلى العِراق عشية إعلان استقلالها عن بريطانيا.

أما خيار العمل بإمارة البحرين فالرَّواتب كانت قليلة، ومنها وصل أبو ظبي حاملاً رسالة مِن صديق إلى مدير الدِّيوان الأميري حينها أحمد خليفة السُّويدي، وأول وزير خارجية غداة إعلان دولة الإمارات العربية المتحدة (2 كانون الأول/ديسمبر 1971)، وتوصية شخصية مِن رئيس الوزراء الأسبق عبدالرَّحمن البزاز (ت 1973)، وكان حينها أستاذاً في جامعة الكويت، ثم حبذت له العودة إلى العِراق فاعتقل، وذاق العذاب في سجن قصر النِّهاية، وتوفي السَّنة 1973.

شهد نجم الدِّين نهضة أبو ظبي السِّياسية والعُمرانية، وعمل في مراكز متعددة، وكان قريباً مِن ديوان الشَّيخ زايد وشخصه،

وحضر مفاوضات الاتحاد وتابع نشأته خطوة بخطوة، ومثل الإمارات في الأمم المتحدة بدورة مِن دوراتها، وشجع إقامة علاقات مع الاتحاد السُّوفياتي، وكان ذلك خلاف رغبة بريطانيا والجارة المملكة العربية السُّعودية، مع أن موسكو كانت مِن العواصم الأُولى في اعترافها بالدَّولة السُّعودية الناشئة حينها.

ناصح نجم الدِّين دولة الإمارات الفتية بأن التَّبادل الدُّبلوماسي مع موسكو مفيدٌ في الأمم المتحدة؛ فلموسكو ثقلها في قرارات الأمم المتحدة. لم يستبدل نجم الدِّين ثيابه، ولم يُطلب منه ذلك، فمثلما يبدو في صوره، الملحقة في كتابه «قيام دولة الإمارات العربية المتحدة» يرتدي لباسه السَّابق عندما كان دبلوماسياً عراقياً. كذلك ظل على هذا الحال الدُّبلوماسي عدنان الباچه چي.

تقريباً الشَّخص الوحيد الذي كنا نسمع عن أخباره بدولة الإمارات هو الدكتور عدنان الباچه چي، وهو ممثل العراق في الأمم المتحدة ووزير خارجية أسبق، ووالده رئيس الوزراء مزاحم الباچه چي. ما نعرفه أن عدنان كان مستشاراً في القصر الأميري الظَّبياني، وصار وزيراً بعد أن حصل على الجنسية الإماراتية.

سمعت عتباً مِن أكثر مِن عراقي على الدِّكتور عدنان، أنه لم يشارك العِراقيين الذين يعيشون بأبو ظبي لا بحزن ولا بفرح، ويبتعد عن اللقاء بهم، وبهذا يصفونه بالمتعالي. مع ذلك

فما أعرفه عن الباچه چي أنه مؤدب للغاية، ومتحضر للغاية أيضاً. كنت أحد المبتهجين بإسهامه في السياسة العراقية بعد سقوط النِّظام السَّابق (نيسان/أبريل 2003)، وإصداره جريدة «النَّهضة»، ودعيت للكتابة فيها مِن قبل رئيس تحريرها آنذاك، جلال الماشطة، ولبيت الطَّلب. بلا شك في أن الباچه چي في اختيار اسم «النَّهضة» لجريدته (2003) عاد إلى اسم الجريدة التي أصدرها والده مزاحم الباچه چي (ت 1982) في أواخر العهد العثماني بالبصرة (1914)، التي أغلقت بعد فترة قصيرة، هذا ما قرأته في مذكرات سليمان فيضي (ت 1951) عضو مجلس المبعوثان العثماني.

أول مرة التقيته كان بديوان الكوفة (2004) بلندن، ثم التقيته في مجلس الشِّيخ نهيان (نيسان/أبريل 2008)، استقبلني حينها بحفاوة واحتضان، وكان أحد الذين واجهوا صدام حسين بعد اعتقاله، وأسس حزب «الوسط» قُبيل نيسان(أبريل) 2003، ودخل في الانتخابات، ولم يُحالفه الفوز. صار عضواً مع أياد علاوي في القائمة العِراقية في انتخابات (2005)، وكان أكبر الأعضاء سناً.

في غلو الطَّائفية بالعراق قام عدنان الدِّليمي، رئيس الوقف السُّني السَّابق، وعلق على وجود الباچه چي عضواً في مجلس الحكم، على أنه مِن حصة أهل السُّنَّة، قائلاً: إنه نصف سُني. ويقصد أن الباچه چي اضطر إلى تبديل مذهبه إلى الشِّيعة بسبب ليس له

وريث ذكر، وهنا، بحسب الفقه السِّنِّي يشارك البنت الأقارب في الميراث، أي ما يُعرف بالعصبة، أما عند الشِّيعة الإمامية فلا. مع أني واثق أن الباچه چي ليس له لا في السُّنَّة ولا في الشِّيعة. التقيت بعدنان بأبو ظبي (تشرين الثاني/نوفمبر 2011) في محل سكنه، بحضور فالح حنظل، وسألته ما قصة: نصف سُنيتك! فحكى لي القضية، مع العلم أن رئيس وزراء لبنان الأسبق سليم الحص فعل ما فعله الباچه چي، وسواهما العديد.

تتميز الشَّيعة الإمامية في اعتبار البنت تحجب بقية الأقارب، ولا يرث معها أخو الموروث ولا عمه ولا الأقارب، أي لا عول ولا تعصيب. فالبنت عندهم ترث النِّصف بالفرض، والنِّصف الآخر بالرَّد إليها. أما المذاهب السُّنَّية فتعترف بالعول والتَّعصيب، أي تأخذ البنت، إذا كانت بمفردها النِّصف والنصف الآخر للأقارب من أخي الموروث إلى عمه والبقية، وكنت قد ذكرت ذلك تفصيلاً في كتابي «بعد إذن الفقيه».

بحسب ما كتبه الدِّبلوماسي نجم الدِّين في كتابه «قيام دولة الإمارات العربية المتحدة مذكرات ودراسات»، إنه عندما كان التهيؤ جارياً لإعلان الاتحاد جرى نقاش حام حول منح الجنسية الإماراتية، أو المواطنة الإماراتية، للعرب العاملين في الإمارات المتصالحة سابقاً. وكان مدير الدِّيوان الأميري بأبو ظبي، وأول وزير خارجية إماراتي، أحمد خليفة السُّويدي مع منح الجنسية للاستفادة مِن الكفاءات العربية، فالرَّجل يرتبط بشبكة مِن

الصَّداقات مِن أمثال هؤلاء، وألا يكون هناك درجة أولى وثانية مثلما حصل بالكويت عندما أُعلنت الدَّولة المستقلة العام 1961، إلا أن آخرين اعترضوا على ذلك، وقال أحد المجتمعين بالحرف: «هؤلاء العرب غزاة»! بمعنى لا تمنح الجنسية لهم، عندها احتج عدنان الباچه چي وترك الاجتماع، فواضح أنه كان أحد المقصودين.

سويدي إماراتي آخر وهو محمد السُّويدي قد درس ببغداد، وهو خريج كلية الإدارة قبل دمجها لتصبح كلية الإدارة والاقتصاد، ولما حصلت الانتخابات الطُّلابية للطلبة العراقيين (1967) في جامعة بغداد اختير هو كأحد المحكمين باعتباره مستقلاً، وليس عراقياً، ليميل لهذا الطَّرف أو ذاك، وكان على خُلق مقبول لدى الجميع، وقد حصل ما حصل في تلك الانتخابات مِن صراع بين الشُّيوعيين والبعثيين.

هذا ما أخبرني به زميله العراقي محمود شكارة، وبعد أن تسلم محمد السُّويدي مهاماً عليا في إمارة أبو ظبي، على ما يتذكر شكارة، دعاه للعمل معه، لكن الأخير اعتبر المكان مقفراً آنذاك، أي العام 1968 أو 1969 فرفض العرض، قالها وهو يضحك الآن مِن قراره ذاك، وكون المكان غدا قبلة للعمل والإقامة، حتى أصبحت أبو ظبي مجمعاً لشعوب العالم كافة.

لي أن أشبه مِن أمثال نجم الدِّين عبدالله حمودي وعدنان الباچه چي، وجودهم حول الشَّيخ زايد بن سُلطان آل نهيان، بالعِراقيين الذَّين كانوا حول الملك عبدالعزيز آل سعود، في بداية

مشواره لتأسيس الدَّولة السُّعودية، من أمثال الطَّبيب ووزير خارجية العراق الأسبق (1934)، عبدالله الدَّملوجي (ولادة 1890) وآخرين.

ترك المعمار العراقي مدحت علي مظلوم (ت 1973) آثاراً معمارية بأبو ظبي، بعد أن وصلها بدعوة مِن مكتب الشَّيخ زايد آل نهيان، العام 1968، ليساهم في النَّهضة العُمرانية، التي بدأت واستمرت بلا توقف، فمِن تصميمه هناك قصر «المنهل»، وهو قصر الحكم بعد قصر الحصن المربع، وبناية الأكاديمية العسكرية بمدينة العين، ومشروع إسكان لموظفي الحكومة بأبو ظبي. كان المعمار مدحت مِن أوائل المدرسة المعمارية العراقية، درس ببريطانيا وعاد إلى العراق، وأسس مكتبه الاستشاري ببغداد عام 1950 وسمعته في هذا المجال ما زالت ترن ببغداد.

سألت المعمار محمد مكية، أطال الله بعمره (95 عاماً)، وهو يحدثني عن زميله المعمار مدحت علي مظلوم، لماذا لم تذهب أنت إلى أبو ظبي، بينما لك بمسقط والكويت تصميمات مساجد الدَّولة، وأنشأت مكتباً بالبحرين! قال: تستغرب إذا قُلت لك أنا مِن أوائل العِراقيين الذين زاروا أبو ظبي، زرتها العام 1949 وحينها نزلنا مِن طائرة صغيرة على الرِّمال إلى جوار فندق، كان هو الوحيد. سألته وكيف وصلتها آنذاك وماذا رأيتها؟ وخشيت، أنه يخلط بين مسقط وأبو ظبي، لكن أتضح لي أنه كان يؤكد على التاريخ، ثم عندما قال لي: ذهبت بالسيارة لاندروفر

عبر طريق تُرابية إلى «أبو العين»، ويقصد مدينة العين، تيقنت أنه يقصد ما يقول.

قال: لم يكن فيها مطار، إنما ركبنا طائرة صغيرة الحجم، ونزلنا على مدرج مِن الرِّمال، ويوجد هناك، إلى جانب ما أسميه مطاراً، فندق وهو الوحيد بأبو ظبي، وهناك دكاكين قليلة، ربما أربعة دكاكين، وفيها قصر الحصن، وقد دخلته، وأعجبتني ريازته، وتمنيت أن تصميمه يؤخذ بالاعتبار في ما يُشيد مِن بناء مستقبلاً.

لم يكن حوله سوى صحراء ممتدة برمالها إلى البحر. لكن ما أعجبني في ساحلها النَّادي الخاص بالأجانب، وأعني البريطانيين، فهو مفتوح على البحر وفيه كل المستلزمات، ولا يرتاده سوى الأجانب، كان شيخ أبو ظبي شخبوط عندها، لكني لم ألتق به. ثم استدرك قائلاً: أتدري ثيسجر عندما زارها لم يجد ظلاً يأوي فيه سوى ظل جدار قصر الحصن. قلت له: قرأت هذا في كتابه «الرِّمال العربية».

يؤكد مكية، وهو يحاول شحذ ذاكرته بإلحاح مني، كانت بأبو ظبي عندما وصلها العام 1949 نادٍ إلى جوار القصر، ولم يتذكر ما مهمة هذا النَّادي، لكنه قال: التقيت بعراقي هناك، ولم يتذكر الاسم. ثم لم تسعفه ذاكرته، سوى أنه عرف بوصول زياد العسكري، في ما بعد، ويوسف ياقجي، وكان الأول مِن أرحام رئيس الوزراء الأسبق نوري السَّعيد (قُتل 1958)، والثَّاني كان مِن عائلة

مسيحية بصرية على صلة بشركة لنج البحرية التِّجارية المشهورة بالعراق. وهناك شخص وصلها مبكراً أيضاً وهو مِن آل كاشف الغطاء، العائلة النَّجفية المعروفة، وقال لعله: نوري كاشف الغطاء.

رأيت لدى المعمار مكية تخطيطات، أو إسكيچات، تحت عنوان أبو ظبي، ولما سألته عنها قال: كان الاتفاق أن أقدم تصميماً لمتحف العين، في أوائل السبعينيات، أو نهاية الستينيات، وحاولت أن أحتفظ بعمران العين التقليدي، فهي كثيرة القلاع، ولم أتفق على ذلك في ما بعد. وبدا مكية معجباً بالعُمران والنهوض بأبو ظبي ودبي، وخصوصاً أنه شاهدهما عاريتين مِن قبل. فما يخص دبي دخلها بدعوة مِن الشَّخصية المعروفة مهدي التَّاجر، وهو مِن شيعة دبي الأغنياء، وأراد له العمل في العُمران هناك.

أسماء عراقية أُخر برزت في إمارة أبو ظبي، وعملوا منذ العام 1968 وقبل هذا، في مواقع مهمة، منهم محمود حسن جمعة، الذي عمل في غضون العام 1967 في دائرة التخطيط، وهي نواة المجلس التنفيذي في ما بعد، ولد ببغداد، وتوفي بأبو ظبي ودفن في تربتها، وله أولاد أبناء، وقد سألت عنهم، فقيل لي يعيشيون ببلاد أخرى، وربما بأمريكا، ومنذ حياة والدهم عُدوا مواطنين إماراتيين.

كذلك يبرز اسم المخرج محمد شكري جميل، الذي وصل أبو ظبي في الخمسينيات مع الشركات العاملة على اكتشاف

واستخراج النِّفط، عمل مصوراً. كذلك يبرز اسم هشام الكتاب، الذي التقيت به أكثر مِن مرة، الأولى كانت بشقة المهندس في النِّفط جعفر السَّامرائي، وكان الفضل في التعرف إلى هذه الشَّخصيات للصديق الودود الفيزيائي محمد عاكف، الذي فتح لي منذ 2008 باب التَّعرف إلى العِراقيين بأبو ظبي ودبي. كان اللقاء به في المرة الثَّانية في مزرعة الأكاديمي الإماراتي محمد المطوع الواقعة في ضواحي إمارة دبي.

هشام الكتاب أحد القدماء العراقيين بأبو ظبي، وصلها في نهاية السِّتينيات وتولى إدارة مكتب أحمد بن خليفة السويدي، ممثل الشَّيخ زايد، ثم وزير الخارجية، بعدها تعين سفيراً في وزارة الخارجية، ومكلف بمسؤولية إدارة الملف اللبناني فيها. وللأسف لم أستطع مقابلته بسبب مرضه، وأنا أهم في الكتابة عن عراقيي أبو ظبي.

سمعت عن الياس جموعة، المصور العِراقي، وقيل لي إنه صار المصور الخاص لدى الشَّيخ زايد، وبعدها قرأت ما كتبه بدر عبدالملك في روايته التالي: «زمن مضى مثل مضي الكاميرا اليائسة للمصور العراقي الياس جموعة، وهو يصول ويجول في فضاء المدينة، يسترزق مِن مهنته النَّادرة، لو كان سينمائياً لمنحنا موضوعاً جميلاً مِن تلك المرحلة. كلُّ ما فعله هو البحث عن لقمة العيش عبر ذلك الأستوديو المنسي وأفلامه السُّود (وردت

السَّوداء) والبيض (وردت البيضاء)» (أبو ظبي ذاكرة مدينة).
كان هذا بين عامي 1968 و1970، في وقت لم يصل بعد الياس إلى الدِّيوان الأميري ليكون مصوراً هناك، إذا صح أن عمل هناك.

سألت الدُّكتور في علم الآثار وليد التِّكريتي، وهو يطوف بي في متحف «العين» بأبو ظبي هل درست على يد طه باقر (عالم آثار عراقي توفى السَّنة 1984)، أو عملت تحت إشرافه؟ قال: لِلأسف سبقني الآثاري المرموق باقر بسنوات؟! ثم تذكرت أمامه أُستاذ الطِّب فرحان باقر، لتشابه الاسم، فقال: هو موجود بأبو ظبي، هل ترغب بتلفونه؟ وكان ذلك فاتحة للقاء طويل مع طبيب العلل الجسام فرحان باقر. كان التِّكريتي أحد الآثاريين العِراقيين اللامعين، وهو وزميله النَّجفي ماجد محسن هدو ساهما في البناء والتنقيب والتدريب وإدارة آثار أبو ظبي.

فرحان باقر اختصاصي الباطنية، تخرج مِن كلية طب بغداد العام 1948، وصار طبيباً لثلاثة حكام: الزَّعيم عبدالكريم قاسم (قُتل 1963)، والرَّئيسين: عبدالرَّحمن عارف (ت 2007) وأحمد حسن البكر (ت 1982). ترك العراق إلى أمريكا ثم بريطانيا ليستقبل هناك طبيباً وأستاذاً، فهو الحاصل على أعلى الشَّهادات بطب الصَّدر، وكليته طب بغداد الأصل كانت لا تحتاج إلى تزكية ببريطانيا على وجه الخصوص، لكن الأمر تبدل في ما بعد وهبط مستواها.

اتصل به وزير الصِّحة الإماراتي حمد المدفع (1983) شخصياً طالباً منه العمل بالإمارات؛ وبالفعل وصلها وصار رئيساً للقسم الباطني الذي طوره وسهر على تقدمه بمستشفى الجزيرة بأبو ظبي. لباعه العِلمي وخبرته الطَّويلة في مهنته لم يؤخذ وصوله سِن التقاعد بالاعتبار، إنما جُدد له عقد العمل، حتى ترك أبو ظبي إلى أمريكا برغبته، ثم عاد مقيماً فيها حتى هذه اللحظة.

طال اللقاء بالطَّبيب لساعات، قلبنا فيها الماضي والحاضر، أهداني خلالها كتابه الجديد «الطِّب المعاصر في العِراق»، وكان الإهداء مؤثراً إلى كليته الأولى «طب بغداد»، تلك التي دخلها بمشورة أستاذه الفيزيائي العالم عبدالجبار عبدالله (ت 1969)، وشقيقه الطَّبيب عباس باقر. جاء في الإهداء: «إلى كليتي العزيزة والعتيدة، إلى أم الكليات في العِراق، ورائدة الكليات في الشَّرق الأوسط، التي خرّجت عشرات الآلاف، وطرزت أكثر كليات المنطقة بأبنائها مِن أساتذة وعمداء، ولتفضلها عليَّ بولادتي في أجواء الطَّب والعلوم الطِّبية».

يحكي الدُّكتور فرحان ظروف تأسيس كلية طب بغداد بجهود الأطباء البريطانيين، وقد اقتُرحت العام 1921 ولم تنضج الفكرة حتى العام 1925، فحينها بدأت الاستعدادات، وفتحت أبوابها (1927 -1928)، واتخذ قرار أن تحاكي تقاليدها التقاليد الطِّبية الملكية البريطانية، وهذا هو سرٌّ نجاحها وتفوقها، ومِن ذلك

اليوم أخذت تُخرج أجيالاً مِن الأطباء وبعد تخصصهم في الخارج يعودون أساتذة مرموقين فيها.

لم يختصر الكتاب على كلية الطب إنما أتحفه بصفحات عن تطور المهنة، وهو عاش فترة الانتقال مِن المتطببين إلى الأطباء، فمما نقله أنه كان يشاهد متطبباً بالكاظمية، مسقط رأسه، يعتمر العِمامة ويضع في رقبته سماعة طبيب، كوسيلة لجذب المرضى. كذلك رفد كتابه بسير كبار الأطباء العراقيين، من أساتذته وزملائه وتلامذته، مِن الأطباء والطَّبيبات.

كان مِن أولئك الكبار ممَن شملتهم «مذبحة مدينة الطِّب»، فما أن تسلم صدام حسين (أُعدم 2006) رئاسة الجمهورية إلا وأحال (48) أستاذاً بمدينة الطب على التَّقاعد، بينهم فرحان باقر، وزهير البحراني، وخالد القصاب، ونجم الحديثي، وسالم الدَّملوجي وغيرهم. ولما وصل النبأ إلى أحمد حسن البكر (ت 1982)، بعد عزله: «ضرب يداً بيد وقال: إنه تخريب والله تخريب». تفرق هذا الجمع واختلفت فيهم السُّبل، وأي دولة تريد الرُّقي لشعبها لا تسعى للاطمئنان على مرضاها بين يدي مثل هؤلاء النُّبلاء!

ما زال فرحان باقر موقراً مكرماً بأبو ظبي، وكثيراً ما دُعي لعلاج الشَّيخ زايد، ولما طلب منه أن يكون طبيبه الخاص اعتذر بأدب، فربما لا يتمكن مِن تحمل مسؤولية مثل هذه وهو في هذا

العمر، وله تجربة في طبابة الرُّؤساء مثلما تقدم، وما يقتضيه هذا الموقع مِن دقة وتعب.

فعادة يُطلب منه أن يكون جاهزاً في أي لحظة، ويعرف جيداً عن حزم الشَّيخ زايد في المواعيد وأداء الواجب، وحكى لي عما حصل للطَّبيب السُّوداني في مجلس الشَّيخ زايد مِن تعنيف بسبب عدم حضوره عند الطَّلب. وحكى لي يوم استدعي مساءً لعلاج الشَّيخ شخبوط بن سلطان، حاكم أبو ظبي حتى العام 1966 بالعين. قال لي: في الآونة الأخيرة مرضت ورقدت في المستشفى، وكان الشَّيخ نهيان بن مبارك يعودني يومياً بلا انقطاع ويُقبل جبهتي كلما طل عليَّ، وحضر شخصياً لتوقيع كتابي عن تاريخ الطب.

يبدو قانون التَّقاعد في الإمارات صارماً، ولا يسمح لمَن بلغ السِّن القانونية في الاستمرار بالوظيفة، ولما بلغ الطَّبيب فرحان باقر سن التَّقاعد، وأن عقده لا يُجدد بعدها، استدعاه وزير الصَّحة وأبلغه بالاستثناء، لخبرته وعلمه، ولكم المقابلة مع ما حصل للأطباء الكبار في مدينة الطَّب ببغداد، مثلما تقدمت الإشارة.

أول ما سمعت بعبدالمجيد القيسي مِن وزير الزِّراعة والرَّي في العهد الملكي عبدالغني الدَّلي (ت 2010)، عندما كنت أكتب عن مصائر مكتبات العِراقيين المنفيين والمهاجرين. بعث إلي الدَّلي رسالة كتب لي فيها عن صديقه القيسي المقيم بأبو ظبي والمتوفى فيها العام 2005. كان الدَّلي قد عرفه لخمسين عاماً، منذ جمعهما العمل في الحقوق العراقية العام 1945.

ذكر له الدَّلي موقفاً جريئاً، وهو عندما قُتلت العائلة المالكة العِراقية في صبيحة 14 تموز(يوليو) 1958 في حديقة قصر الرِّحاب، وكان الجو مكفهراً ومخيفاً، فعبدالسَّلام عارف (قتل 1966)، وهو الرَّجل الثَّاني في الثَّورة كان يصيح مِن إذاعة بغداد: اقتلوهم اسحلوهم. في هذه الأجواء أقام عبدالمجيد القيسي، عندما كان مديراً لدائرة بجنوب العِراق، مجلس فاتحة على روحي الملك والوصي عبدالإله، فطُرد مِن العمل، ولم يُعتقل لعدم وجود مادة قانونية تحكمه، فمع تلك الأجواء كان هناك شيء مِن احترام القانون، وهناك شجعان في مواقفهم في اللحظات الحرجة.

غادر القيسي العراق العام 1961 ثم عاد إليها 1963، وعُين في وظيفة مرموقة، إلا أنه لم يتحمل عتمة الأجواء فرحل إلى الكويت، وهناك التقى مرة أخرى بصديقه عبدالغني الدَّلي، ومِن هناك وصل أبو ظبي، المكان الذي سبقه إليه مجموعة مِن أصدقائه، وبعد وصوله عُين أميناً عاماً في مجلس الوزراء، ومستشاراً لدى رئيس الدَّولة الشَّيخ زايد، وكان له إسهام في وضع لائحة القوانين في الدَّولة الفتية.

من صفاته التي سمعت بها مِن عراقيين، ما زالوا يعيشون بأبو ظبي، أَنه كان حاد المزاج، لا يُجامل ولا يُنافق أبداً، وحصل مرة في مجلس مِن المجالس أن تحارش به أحد المواطنين الإماراتيين: ماذا تنصبني لو كان لك الأمر بالعراق؟! قال له: سائقاً أو ما شابه ذلك! ضحك الرَّجل لأنه يعرف حق المعرفة مزاج القيسي وحدته.

أترى الذي يُقيم فاتحة على الملكية في أول يوم 14 تموز (يوليو)، مع ما حوله مِن المد الجارف القاتل، يُجامل أو يُنافق؟!

كنت متشوقاً لرؤية مكتبته، التي نصحني عبدالغني الدَّلي بالكتابة عنها، وله الفضل في تعرفي إلى هذا الشّخص، الذي ترجم العديد مِن الدِّراسات المهمة، ومنها ما تتشرف بها مكتبتي مِن قبل، مثل: «المجتمع الإسلامي والغرب»، و«مذكرات أميرة عربية»، و«العراق دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته الدَّاخلية». له ردٌّ على ما كتبه نجم الدِّين السَّهروردي تحت عنوان «التَّاريخ لم يُكتب غداً»، وكان رد القيسي «التَّاريخ يُكتب غداً».

فما كتبه السَّهروردي كان يتعلق بتمجيد انقلاب أيار (مايو) 1941، وشخصية والد زوجته رشيد عالي الكَيلاني (ت 1966) رئيس الوزراء الأسبق، وقصة لجوئه المثيرة إلى المملكة العربية السُّعودية، وعمله لدَى الملك عبدالعزيز آل سعود (ت 1953)، وخروجه بعد تولي الملك سعود بن عبدالعزيز (ت 1969) المُلك، إلى مصر ثم عودته إلى بغداد بعد العام 1958 واتهامه بالتَّآمر.

عبد الغني نفسه أقام بأبو ظبي، في زيارات متواترة لولده حازم، العامل في مؤسسة برنامج تمويل التِّجارة العربية، وهو مدير عمليات التَّمويل فيها. حرصت على اللقاء بحازم، وهو يعمل بأبو ظبي مِن فترة طويلة، وأتذكر أن والده شوقني للقاء به، قائلاً: إنه حريص على الصِّلات وطيب المعشر، ووجدته بالفعل كذلك.

حاولت في زيارتي السَّابقة اللقاء به، لكن ظهر خطأ في رقم التلفون، وعدت بعد وفاة والده طلب الرَّقم مِن شقيقته علياء التي التقيت بها في دار المؤرخ المغربي عبدالهادي التَّازي بالرَّباط، خلال دعوتي لحضور الاستفتاء على الدُّستور المغربي تموز (يوليو) 2011، والتَّازي مِن أصدقاء الدَّلي فكان قد عمل بالعراق سفيراً، وله صلات عميقة بالمثقفين العراقيين مِن جيل اللغوي مصطفى جواد (ت 1969). ولحبه لبغداد سمى فيلاته بالرباط «بغداد»، وقد وقفت على عتبة بوابتها متأملاً.

كان عبدالغني في تجوله في شوارع أبو ظبي يُراقب النَّخيل الممتد بخطوط، وتعود به الذَّاكرة إلى نخيل العِراق، وهو كان وزيراً للزراعة في يوم مِن الأيام، وكان في العديد مِن المواسم يُعين نخلة على مزاجه، ليأتي يقطف منها الرَّطب في وقت النُّضوج. فمِن المعلوم أن ثمر النَّخيل بأبو ظبي متاح للجميع، هذا ما قاله لي مرافقي طول الرِّحلة فازها محمد مصطفى، وأي شخص مِن حقه قطف الثِّمار للأكل لا للتجارة أو الخزن، ومِن دون إيذاء النَّخلة، فهي مشاعة شأنها شأن أشجار الكرز ببلغاريا، أو العكَيد بأهوار جنوب العِراق، وهو لب نبات البردي، الذي ينضج ويُجتذ مِن جذوره عادة في فصل الرَّبيع.

هناك أسماء عديدة حلت على رمال أبو ظبي، وعاشت عسرها ويسرها بعد النَّهضة الاقتصادية والعُمرانية، منهم وزير عراقي سابق، وهو شكري صالح زكي، وله صلة ما بوضع الدُّستور

بأبو ظبي، لكن ليس كما تحدث هو بها، فقيل لي إنه كان عضواً في لجنة المراجعة ليس أكثر. هناك أطباء كانوا مشهورين ببغداد وأساتذة في كلية الطب، ومِن زملاء الطَّبيب اختصاصي الأمراض الباطنية فرحان باقر، مثل الطَّبيب الاختصاصي، مهدي فوزي، الذي تخرج مِن كلية طب بغداد العتيدة العام 1934، وفي العام 1948 منح لقب أستاذ في التَّداوي، عاش وعمل بأبو ظبي، ثم انتقل منها إلى لندن، وعاش فيها حتى وفاته السَّنة 1999.

بينهم الطَّبيبة لمعان أمين زكي، تخرجت مِن كلية طب بغداد العام 1945، اختصاصية بطب الأطفال مِن جامعة لندن، كانت أُحيلت على التَّقاعد في ضمن مَن أُحيلوا في ما عُرف بمذبحة مدينة الطِّب، فمنع العلماء مِن طلابهم ومؤسساتهم العلمية لا يقل عن قطف الرِّقاب، بعد وصول صدام حسين إلى سدة رئاسة الجمهورية، وكانت لمعان حصلت على نوط النَّجمة الفضية مِن حماية الأطفال. عاشت بأبو ظبي عاملة في عيادتها الخاصة، وتوفيت ودفنت بأبو ظبي.

كذلك عمل زوجها الطَّبيب الاختصاصي الأمراض الصَّدرية سالم الدَّملوجي بأبو ظبي، ولد بالموصل العام 1924 وتخرجمِن طب بغداد العام 1946، ثم صار أستاذاً فيها العام 1965، له فضل كبير في مكافحة مرض التَّدرن بالعراق، وأحد المؤسسين لطب القلب والصَّدر هناك، وله مؤلفات في هذا المجال، أُحيل على

التقاعد في مذبحة مدينة الطِّب، ووصل إلى أبو ظبي، فعُين رئيساً لفرع الطِّب في المستشفى المركزي، ومستشاراً علمياً في وزارة الصَّحة الإماراتية، بعدها فتح عيادة خاصة بأبو ظبي، وترك العمل في الطِّب نهائياً العام 2000، حتى وفاته بلندن.

كذلك عمل الطَّبيب العراقي سامي كندريان، مبكراً بأبو ظبي، وله عيادة طب الأطفال. ويرد اسم طارق المتولِي عمل مستشاراً لدى الشَّيخ زايد، وكانت تربطه صِلات بالقصر الأميري، ومع رئيس الدَّولة الشَّيخ خليفة بن زايد منذ كان نائباً لوالده على منطقة العين. ويرد اسم عقيد الشُّرطة ظاهر حبيب، وقد عمل بأبو ظبي كمسؤول في الشِّرطة، ونُقل لي أنه كان مسؤولاً أمنياً في العهد الملكي بالعِراق، وقد أعاق تعيين عراقيين هنا، بعد أن تقدموا لعمل في سلك الشِّرطة، ومنهم مَن كان حقوقياً، مخمناً أنهم كانوا شيوعيين، وذلك قياساً على سؤالهم عن مكان سُكناهم بالعِراق، فلما أخبره أنهم مِن البصرة مِن كذا مناطق قالوا لهم: إذن أنتم شيوعيون! مع أن إدارة الشَّرطة كانت محتاجة لكفاءتهم، لكن تدخل ملازم أُردني بالأمر كسر قراره وحصلوا على الوظائف.

مِن هذا الموقف وغيره جرى حديث طويل، مع أصدقاء عراقيين مقيمين بأبو ظبي، مِن أن العراقيين نادراً ما يسعون لمنفعة أبناء جلدتهم أو وطنهم، بينما الأمم الأُخر ما أن يحل شخص في منصب أو وظيفة ما إلا وسعى إلى جلب أبناء وطنه،

ومنهم مَن فسرها بسبب الخلافات العميقة في المجتمع العِراقي وآخر فسرها بالأَمانة وعزة النَّفس، أو عدم الرَّغبة في تحمل المسؤولية إذا ما ظهر الذين سعى بتعيينهم أنهم غير مناسبين.

أسماء أُخر عاشت وعملت بأبو ظبي، ولعبت أدواراً مهمة فيها، مثل عبدالله إسماعيل، الذي عمل وكيلاً لوزير النَّفط بالإمارات، وطالب مصطفى خان وكان تاجراً، وجواد الجلبي فتح مصنع بيسي كولا بأبو ظبي، ولوالده عبدالهادي الچلبي حصة في بنك أو ظبي في أول نشأته، وزياد العسكري، وجوزيف جوباغچي، ولعله الاسم الذي ذكره محمد مكية يوسف قايچي نفسه، مورد الأسمنت أيام إمارة الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان.

كان جوباغچي، أو ياقچي، مِن الأوائل بأبو ظبي، وأخبرني أبو خالد صلاح إبراهيم المحامي أنه حمل إليه رسالة توصية مِن صديق له يُدعى سيد أمين عند وصوله إلى أبو ظبي في نهاية السِّتينيات. كذلك ورد اسم غانم وحيدة، الذي عمل في الآثار بأبو ظبي، وهو مِن مسيحيي العِراق.

أسماء أُخر مثل الدُّكتور عبدالعزيز بسام، الذي عمل في التربية والتَّعليم العام 1977، وجاسم الحسيني رئيس قسم الفيزياء في الجامعة ولعلها جامعة العين للعلوم والتِّكنولوجيا، أو جامعة الإمارات بالعين، لم أكن متأكداً، وصلاح حسن نائب رئيس جامعة، وأمل أمين زكي مدرسة الأدب الإنكَليزي وزوجها

عبدالرَّسول الأسترابادي، أمين صندوق أبو ظبي للاستثمار. وأسماء أخر لا أعرف عنها سوى القليل: عدنان الصَّراف، وصل إلى وظيفة مساعد مدير عام، وجمال المغازجي موظف في الدولة، وخضر محسن محمد علي كان موظفاً أيضاً، وعادل الشِّيخلي كان مهندساً، وكاظم الرُّبيعي عمل مهندساً في الأشغال، وما زال الدِّكتور وليد ياسين التِّكريتي مديراً لقسم الآثار بالعين، وقد بدأ العمل هناك العام 1971 وانقطع وعاد إلى العمل مرة ثانية.

لكن ألطف ما ذكره لي بعض الإخوة العراقيين أن العِراقي نزار الجمالي، وكان يعيش بأبو ظبي (1969-1970) كان مغرماً بتربية الطِّيور، وجلب منها ما جلب إلى أبو ظبي، وكأنها تصل لأول مرة، فتكاثرت، ولا أدري إذا كان منها نوع البلبل العِراقي، والحمام، وهما مِن الأنواع التي تمرح في فضاء أبو ظبي ودبي وجزيرة صير بني ياس.

أما في الجانب الثَّقافي بأبو ظبي فهناك حضور عراقي مكثف في شتى المجالات، وأسماء صعب عليَّ إحصائها، فأبرز المخرجين المسرحيين، أمثال المعروفين: جلال إبراهيم (ت 1991)، وعوني أفرام كرومي (ت 2006)، وجواد الأسدي، وائل السَّامرائي وكان مِن المؤسسين للمسرح بأبو ظبي، وجاسم حلاوي، ومَن كتب في المسرح الإماراتي فاروق أوهان.

ناهيك عن الذين عملوا في الصحافة والمؤسسات الثَّقافية المتعددة، والفنانين في الموسيقى والغناء وغيرها مِن المجالات.

ولصعوبة الرَّصد عجزت عن تقديم صورة عن هذا الجانب، ولعلَّ هناك مِن الكار نفسه مَن يتمكن مِن تسجيل الإسهام العراقي بشكل موسع ودقيق، لذا أقدم اعتذاري لأهل الثَّقافة، خشية مِن اضطراب الذَّاكرة والوقوع في التَّقصير تجاههم.

في ختام هذا الفصل لا بد مِن ذكر المؤثرات على عمل العِراقيين أبو ظبي، لما سألت عمَّا إذا كان هناك تمييز بين العِراقيين على أساس ديني أو مذهبي فقيل لي حصل هذا في الجامعات والتَّربية والتَّعليم، عندما تمكن الإخوان المسلمون مِن الهيمنة، إلى حدٍّ ما عليها، فظهر تمييز في التَّعيين على أساس الالتزام الدِّيني، أو محاولات إبعاد مَن عُرف عن ماضيه اليساري، وكاد هذا الأمر يؤثر بأبو ظبي كافتها لولا معالجة الأمر في إبعاد تلك العناصر عن التَّربية والتَّعليم.

أمر آخر أثر في العلاقة مع العِراقيين في حينها، وهو ما حصل مِن تفجيرات، اتهم فيها جهاز المخابرات العِراقية آنذاك، وهناك حادثة مشهورة أودت بحياة سيف سعيد غبَاش، أول وزير دولة للشُّؤون الخارجية العام 1977 وهو يودع وزير الخارجية السُّوري الأسبق، في وقتها، عبدالحليم خدام في مطار أبو ظبي، وكان الأخير هو المقصود بالمحاولة، لكن الرَّصاصات أخطأته إلى جسد غباش.

حصل ذلك في شدة الخلاف السُّوري العراقي، وهما بالأصل مِن حزب واحد. كذلك عاشت الإمارات، وعاصمتها أبو ظبي، مِن

ظروف حرجة خلال الحرب العِراقية الإيرانية، وكانت الضغوط مِن الجانبين تجري على عاصمتها، وكلُّ طرف كان يريد إقحامها لصالحه، فقد سمعت كلاماً عن هبوط طائرات بلا موافقة الدَّولة، لكن بسرعة تدارك الأمر.

هناك قضية أخرى ربما أثرت في سمعة العِراقيين داخل أبو ظبي، وهي قضية سرقة صندوق النَّقد الدُّولي، فرَّ أحد المتهمين، وهما مِن العِراق، والآخر قبض عليه وأودع السِّجن، حصلت القضية العام 1982. كنت قد سمعت بمثل هذه القضية، ولكني لم أركز في التَّفاصيل حينها، عندما اصطحبني أحد الأصدقاء الإماراتيين لزيارة مدير النقد العربي، مِن أجل أن يُسلم عليه، وعلى ما أتذكر كان مِن أهل البحرين.

أخذا يتحدثان عن سرقة كبرى تُقدر بخمسين مليون دولار، وأحد المتهمين كان وزيراً عراقياً، وظهر هو وزير التَّخطيط في عهد دولة البعث، الدكتور هاشم محمود جواد، وآخر هو الدُّكتور محمد مهدي بحر العلوم، حينها لم أدقق بالتَّفاصيل، لكن بعد سؤالي لعراقيين عمَّا أثر عليهم في التَّعيينات، أو بشكل عام بأبو ظبي، طرحوا هذه القضية كواحدة كان لها صداها في أواسط الثَّمانينيات. ظل السَّجين يكتب الرَّسائل عبر المحامين، وعبر الأصدقاء، بأنه سيموت في السِّجن إذا لم يُسعَ بإطلاق سراحه، فهو سجين في هذه القضية منذ العام 1993 في سجن أبو

ظبي المركزي. وبحر العلوم كان يعمل منذ 1970 في المؤسسة المصرفية بأبو ظبي.

تناسى النَّاس تلك القضية، بعد أن صعب على حكومة أبو ظبي جلب المتهم الأول فيها جواد للمحاكمة، بسبب جنسيته الأجنبية، أو ما شابه ذلك، لكنها عادت مرة أخرى إلى واجهة الإعلام عندما قام هاشم جواد بكشف عقود وزارة الكهرباء العراقية (2011) المزورة عن شركات وهمية بكندا، ومع أنه كان عملاً جليلاً ومأثرة وطنية، في ظل الفساد المستشري في الدولة العراقية، لكن النَّاس لا تنسى فأخذت الصُّحف والمواقع تكتب عن قضية تورطه في سرقة أموال صندوق النَّقد العربي بأبو ظبي. حتى إنني اضطررت إلى الكتابة عن الحادثة مِن دون الإشارة إلى اسمه.

انتهيت مِن كتابته أواخر تشرين الثَّاني (نوفمبر) 2011

فهرس الأشخاص

(أ)

فهرس الأماكن

(أ)

(ن)

الناصرية: 30 - 213 - 285

نجد: 78 - 84 - 214

نجران: 58 - 116 - 120 -
228

النجف: 58 - 60 - 82 - 87 -
139 - 196 - 205

النهروان: 225

(هـ)

الهرمية: 99

الهند: 9 - 49 - 98 - 118
- 126 - 127 - 144 - 247 -
259

هيلي: 27 - 83 - 84 - 89 -
92

(و)

واحة القطارة: 95

الوضيحي: 108

الوكن: 39 - 41



ذاكرة الكاميرا

المروحة الهوائية لتوليد الكهرباء بصير بني ياس

البلبل العراقي بصير بني ياس

سفيان حارس مستشفى الصقور

بقايا دير صير بني ياس

أسد صير بني ياس

سرب من غزلان صير بني ياس

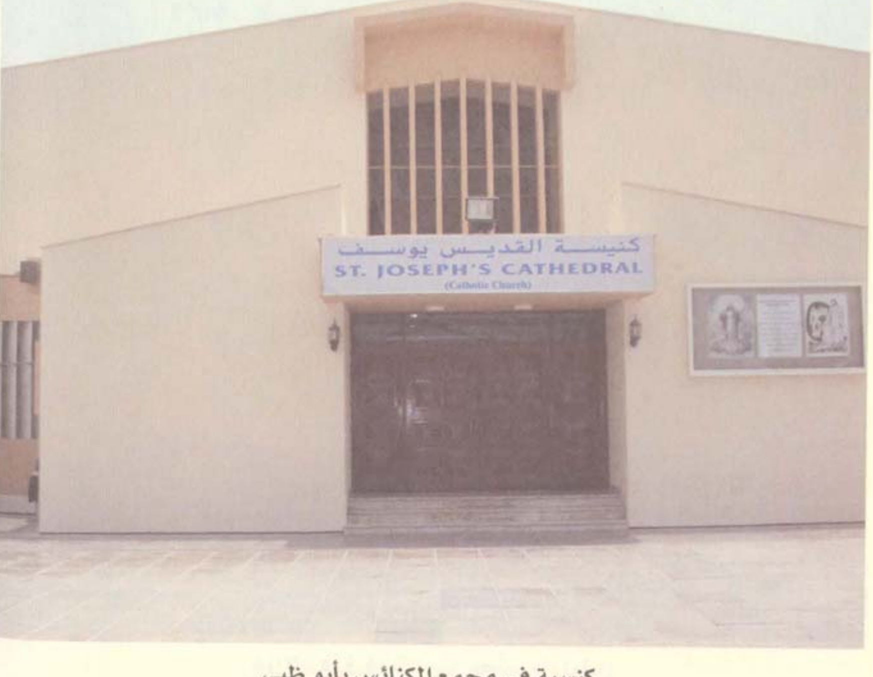
زوج من الفهود على جزيرة صير بني ياس

المها العربي على جزيرة صير بني ياس

على بقايا المسجد بصير بني ياس

غزالان فوق قمة الجبل بصير بني ياس

مخطط دير صير بني ياس



كنسية فى مجمع الكنائس بأبو ظبي

مع رئيس جامعة الإمارات الدكتور عبد الله الخنبشي

مع الراهب اللبناني نضال الرجيلي

مع القس غريب بالكويت



راهب الكنيسة السريانية بأبو ظبي

الدكتور سلطان الجابر المدير العام لمدينة مصدر



المصور عمر بحيرة

آية الله طالب الرفاعي

جاسم الهرمودي (العين)

أزهر وحسين الباكستانيان

رامس الظاهري (أفلاج العين)

رامس وفاضل العامري

سرحان دليل مستشفى الصقور

طاقم مدينة مصدر تتوسطهم الحوسني



الدكتور عبد الله العوضي

عبدالله نجل الدبلوماسي حمودي

الدكتور فالح حنظل

مدير البيئة بصير بني ياس موريس



ميثاء دليلة متحف الشيخ زايد بالعين

مع الأديب سلطان العميمي والمخرج بدر المنصوري

الأب كاندلفو في مجمع الكنائس

الطبيب فرحان باقر

أحد الشباب الواعدين في كليات التكنولوجيا

خالد وأنور



سواح لا وافدون على كورنيش أبو ظبي

عبد الله العامري من الوقن

فازها محمد مصطفى

مسؤول مكتبة المسجد عبد الله أحمد بكر

مع أبي محمد

مسجد محمد بن زايد

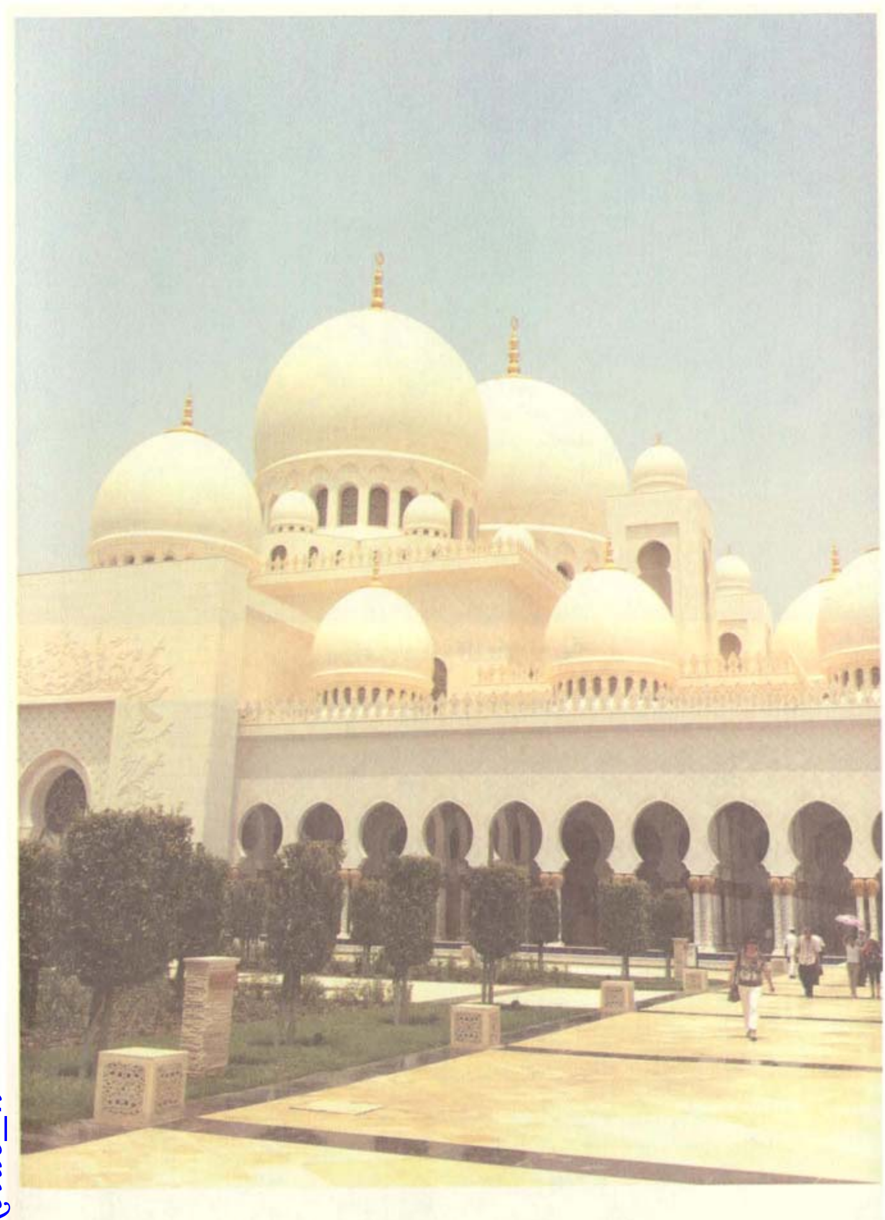
مع الأثاري وليد ودليلة قلعة الجاهلي وعبد الرحمن النعيمي والهرمودي

في متحف القرية بأبو ظبي

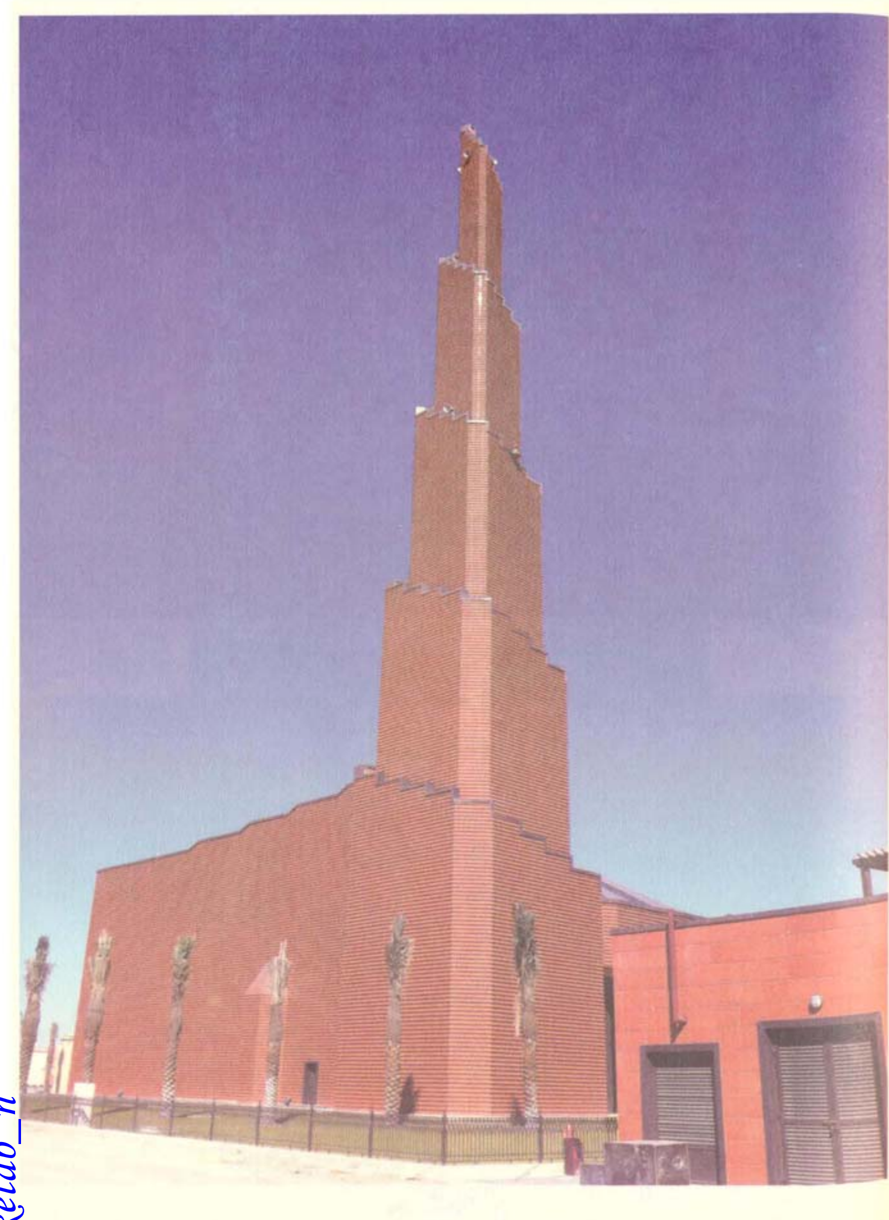
واجهة لإحدى كنائس أبو ظبي

من نماذج العشش

مسرح أبو ظبي



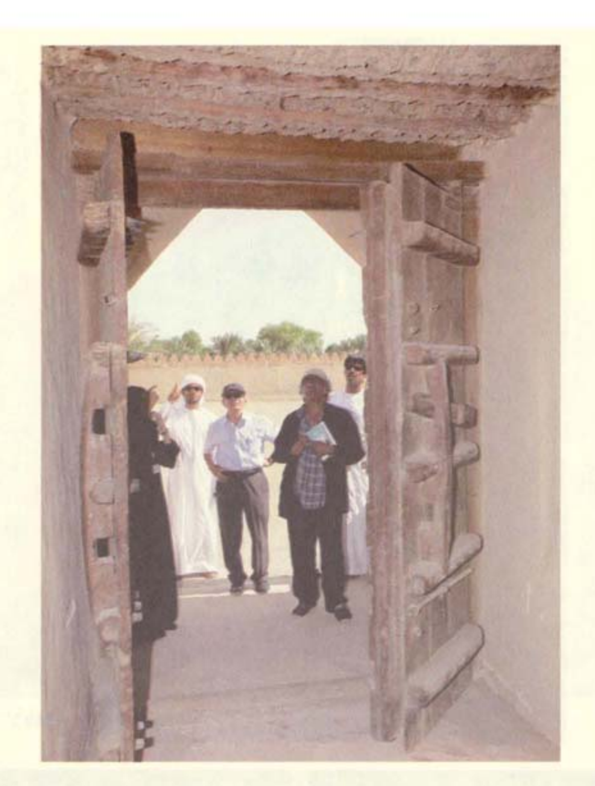
مسجد زايد الكبير



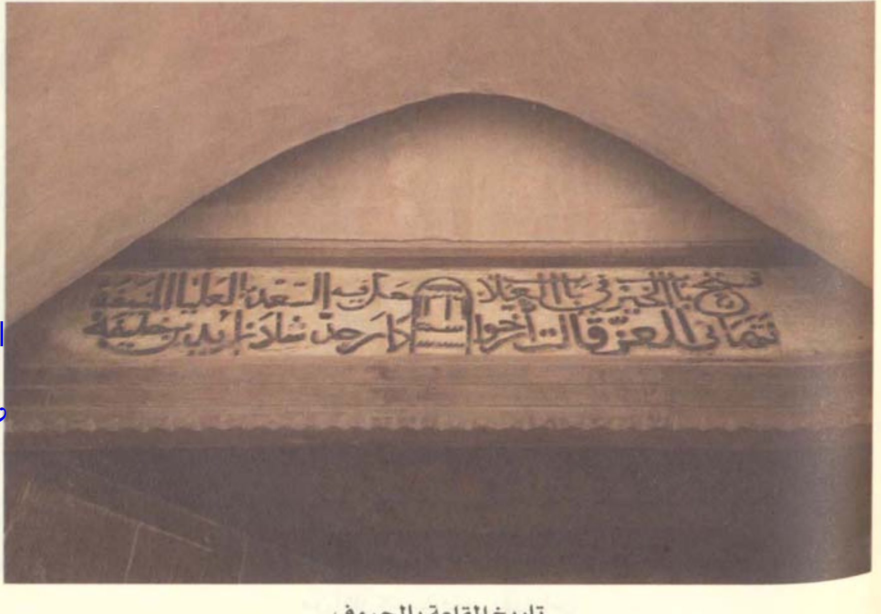
المنارة الملوية في مسجد الشيخة فاطمة بنت مبارك

صقارون يراجعون مستشفى الصقور

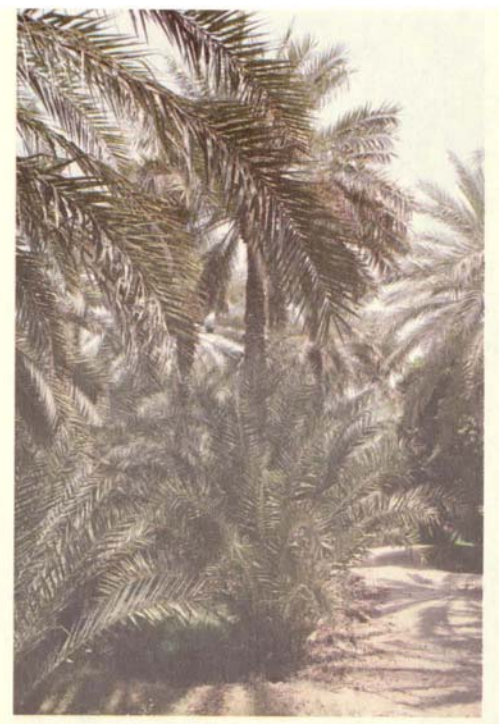
واحدة من مئات الزخارف على أعمدة مسجد زايد الكبير



باب قلعة الجاهلي بالعين



تاريخ القلعة بالحروف



جانب من نخيل الأفلاج





من آثار كنيسة صير بني ياس

نقل الماضي إلى المتحف

نخلة من أفلاج العين

أبو ظبي
تصالح العقل والثروة

تلك مشاهدات وانطباعات، فيها ما هو اعتراف بحماسة للعمران، اقتصرتها على إمارة أبو ظبي، وكانت النِّية الكتابة عن مشاهدات بدولة الإمارات كافة، لكن وجدت نفسي عاجزاً عن الإلمام، فمِن الإمارات لم أرها، ومنها ما مررت بها مروراً عابراً، فالتفاصيل تزدحم «وما يدري خراشٌ ما يصيد»، لذا اكتفيت بأبو ظبي. ما أكتبه ليس بحثاً إنما هو سكب ما رأته العين وسمعته الأذن على الورق، لا أُطالب فيه بآليات البحث العلمي.


ISBN 978-614-429-004-X

